

رفيق شامي

حكواتي الليل

ترجمة: رنا زحكا

منشورات الجمل

رواية

رفيق شامي



حكواتي الليل

رواية

ترجمة: رنا زحكا

منشورات الجمل

رفيق شامي: حكواتي الليل

ولد **رفيق شامي** (اسمه الحقيقي: سهيل فاضل) في دمشق عام ١٩٤٦. درس الرياضيات والفيزياء والكيمياء لكي يعمل معلماً في المدارس، غير أنه ترك البلاد عام ١٩٧١ إلى ألمانيا حيث درس الكيمياء وحاز الدكتوراه عام ١٩٧٩ وعمل لسنوات عدة في اختصاصه. صدر كتابه الاول بالالمانية عام ١٩٧٨ وتفرّغ للعمل الادبي منذ ١٩٨٢. مُنح عشرات الجوائز تقديراً لاعماله في ألمانيا وفي خارجها ويعتبر اليوم واحداً من أنجح الكتّاب في ألمانيا، وهو عضو في أكاديمية بافاريا للفنون الجميلة منذ عام ٢٠٠٢. تُرجمت أعماله إلى ٢٣ لغة. صدر له باللغة العربية: **التقرير السري عن الشاعر غوته** (٢٠٠٥)، **يدٌ ملأى بالنجوم** (٢٠٠٨).

رفيق شامي: حكواتي الليل، رواية ـ ترجمة: **رنا زحكا**

رسمة الغلاف: **روت ليب**

الطبعة الأولى ٢٠١١

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

Rafik Schami: Erzähler der Nacht

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ساهم «معهد غوته» في بعض تكاليف ترجمة هذا الكتاب

كيف جمع سليم العربجي قصصه من أقاصي الأرض من دون أن يغادر غرفته؟

إنها لقصة غريبة، هذا أقل ما يمكننا قوله عن هذه الإشاعة: سليم العربجي قد أصيب بالخرس. ما كنت لأصدّق أبداً مجرياتها لو لم أرَ أحداثها بأمّ عينيّ. بدأ كل شيء في آب ١٩٥٩ في حيّ من أحياء دمشق القديمة. حتّى ولو رغبت باختلاق قصة لا تصدّق كهذه ستبقى دمشق المكان الأمثل لمجرياتها، ما من مكان سوى دمشق يمكن أن تجرى فيها أحداث كأحداث قصتنا.

عاشَ في دمشق تلكَ الأيام الكثير من الأناس الغريبي الأطوار. لكن ما الغرابة في هذا؟ يُقال إن مدينة تعجُّ بالحياة لأكثر من ألف سنة، تورث سكانها غرائب القرون التي تراكمت في المدينة. وتاريخ دمشق يرجع لعدة آلاف من السنين وهكذا يمكنك تخيل أنماط كثيرة من الناس الغريبي الأطوار وهم يذرعون أزقتها وشوارعها الملتوية جيئة وذهاباً. سليم العربجي العجوز كان أكثرهم غرابةً. كان قصير البنية ونحيلها لكن صوته العميق الدافئ سرعان ما كان يحيله في خيال مستمعيه إلى رجل ضخم ذي أكتاف عريضة. سليم العربجي صار أسطورة في ذاك الزمان،

لا يبدو هذا كثيراً في مدينة حيث الأساطير والبقلاوة المحشوة بالجوز والفستق ليست سوى منتجات عادية لهذه المدينة.

بسبب الانقلابات الكثيرة التي أصابت البلاد في الخمسينات (من القرن العشرين)، لم يكن أمراً مستهجناً بالنسبة لسكان حيّ قديم أن يخلطوا بين أسماء رجال الدولة والسياسيين وأسماء الممثلين والمشاهير. لكن أحداً منهم لم يخطئ قطّ حيال سليم العربجي الذي عاش في البلدة القديمة والذي كان بوسعه سرد قصص تُبكي وتُضحك مستمعيه حتى ولو كانوا رجالاً بقلوب من صخر.

كان من بين هؤلاء الناس الاستثنائيين الذين يجوبون المدينة طولاً وعرضاً من يعرف مثلاً شعبياً لأية مناسبة كانت. مع هذا فقد كان في دمشق رجل واحد بوسعه سرد قصة عن أي شيء ـ فيما إن كنت قد جرحت إصبعك، أو أصبت بالبرد أو وقعت في الحبّ على نحو مأسوي. لكن كيف تمكّن سليم العربجي أن يتحول إلى أشهر راوي قصص في دمشق كلها؟ الجواب على هذا السؤال ينطوي كما يمكنك أن تحزرعلى قصة أخرى.

في الثلاثينات عمل سليم سائق عربة على خط دمشق ـ بيروت. كانت الرحلة تمتد ليومين شاقيّن لوعورة الطريق، وخطرين كذلك لأن العربة كان عليها أن تعبر «وادي القرن» الذي كان يعج بقطاع الطرق الذين يكسبون عيشهم عن طريق نصب كمائن للمسافرين.

كانت العربات بالكاد تختلف بعض الشيء في منظرها وهي مصنوعة من الحديد والخشب والجلد وتتسع لأربعة مسافرين. كانت منافسة العمل لا ترحم، وفي معظم الأحيان كانت القبضة الأقوى هي من تقرر

من سيباشر رحلته وليس أمام المسافرين سوى التسلل من إحدى العربات ليركبوا عربة المنتصر. كافح سليم من أجل كل راكب مثله مثل الجميع، لكن نادراً بقبضته، كان يستخدم لسانه الساحر الذي لا يقهر.

إبان الأزمة الاقتصادية العالمية وحين عمَّت البطالة سوريا، قلّة من الناس تمكنت من تأمين نفقات السفر، لذا كان على سليم أن يجد طريقة ما لتأمين القوت اليومي لعائلته المؤلفة من زوجة وولد وبنت. والأكثر من هذا، فقد ازدادت في نفس الوقت هجمات قطاع الطرق، حيث فرّ العديد من الفلاحين وأصحاب الحرف المُفقرين إلى أعلى الجبال ليكسبوا عيشهم كقطّاع طرق. كان سليم يعد ركابه بكل هدوء قائلاً: «إن ركبتم معي، أعدكم أن أوصلكم آمنين من دون أن تصابوا بخدش واحد ومن دون أن تخسروا أياً من نقودكم وحوائجكم». كانت علاقاته الطّيبة مع اللصوص قد جعلت من سليم شخصاً قادراً على الوفاء بوعوده. مرّة بعد مرّة كان يسوق عربته من دمشق إلى بيروت ليعود ثانية دون أن يتحرش به أحد. ما إن يدخل إلى منطقة قاطع طريق ما حتى يترك له على حافة الطريق زجاجة خمر أو بعض التبغ، لكن في السرّ دوماً ومن دون أن يلاحظه أحد من المسافرين ـ ويردّ اللصوص على هذه البادرة بتحيّته بكلّ ودّ. لم يُهاجَم قط ـ لكن سرعان ما تسرّب سرّ نجاحه وبدأ كلّ سائقي العربات بتقليده. تركوا هباتهم على جانبي الطريق حيث أصبحت سالكة أمامهم. وكما روى سليم فقد استحال هؤلاء اللصوص ومع الوقت إلى جامعي هبات، أطعمة وأموال، كسالى وبدناء غير قادرين البتّة على إثارة ذعر الناس. وهكذا سرعان ما فقدت وعوده بضمان سلامة الطريق بريقها الفريد وبدأ سليم ثانية بالتفكير جاهداً بطريقة يصلح فيها أحواله. ذات يوم قدمت إليه سيدة بيروتية عجوز فكرة أنقذته وعائلته من الجوع. أثناء الرحلة قام وبإسهاب بسرد

قصة عن مغامرات لصّ وقع في غرام بنت السلطان ذاتها ـ كان سليم قد تعرف شخصياً على هذا الرجل. ما إن وصلت العربة إلى دمشق حتى صاحت العجوز: «فليحفظ الربّ لسانك أيها الشاب، لقد مرَّ الوقت سريعاً بصحبتك». أطلق سليم على العجوز فيما بعد لقب «الجنيّة الطيّبة» ومنذ ذاك الوقت أخذ يعد ركابه بسرد حكايات على طول طريق دمشق ـ بيروت (أو بيروت ـ دمشق) وهكذا لن يشعروا بشيء من قسوة الرحلة. كان هذا خلاصه، حيث لم يتمكن أي عربجي من سرد قصص تسحر مستمعيها كما فعل سليم.

لكن كيف تمكَّن هذا الثعلب الماكر ـ الذي ليس بوسعه القراءة والكتابة ـ من اختلاق قصص جديدة على الدوام؟ الأمر بمنتهى البساطة! كان يسأل ركابه الذين انتهوا من سماع قصة أو قصتين له «والآن ألا يرغب أحدكم بأن يروي قصة ما؟». وكان هناك بالطبع دوماً شخص ما بين المسافرين، رجل أو امرأة، يجيب: «أعرف قصة لا تُصدّق لكنّي أقسم باللّه بأنها حقيقية»، أو «حسناً، أنا لست بارعاً في سرد القصص لكنّ راعياً كان قد حكى لي ذات يوم حكاية وسأرويها لكم إن وعدتموني بألا تسخروا مني». كان سليم بالطبع يشجّع ركابه على سرد قصصهم ثمَّ يقوم هو فيما بعد بإضافة شيء من بهارات التشويق عليها ليرويها لركاب الرحلة التالية وكأنها قصته. بهذه الطريقة كان لديه دوماً مخزونٌ لا ينضب. وذات مرة حدّث العربجي أحد الركاب بقصته لكن هذا لم يدرك لكثرة البهارات التي أضافها سليم أنه هو من حكى تلك القصة قبل سنين.

كان بوسع العربجي العجوز أن يسحر ركابه بحديثه لساعات. كان يروي قصصاً عن الملوك والحوريات وقطاع الطرق ـ الذين خالط الكثيرين منهم في مشوار حياته الطويل. أيّاً كانت القصص سعيدةً أو

حزينة أو ملأى بالإثارة والخوف فقد كان حديثه الآسر يفتن الجميع، لم يكن بمقدوره فقط أن يحمل في طيّاته الألم والغضب والفرح بل كان قادراً كذلك على أن تشعر معه بمرور الريح ودفء الشمس ووقع المطر. ما إن يبدأ بسرد قصة حتّى يأخذ بالتحليق فيها مثل سنونو. كان يحلّق فوق الجبال والوديان وكان يعرف حقَّ المعرفة الطريق الممتدة من أصغر شارع في بلدتنا وصولاً إلى بكين والعودة ثانية. كان كلما أحبَّ يحطُّ على قمّة جبل أرارات - حيث لا ينفع مكان آخر - ويدخّن نارجيلته. وإن لم يرغب العربجي بالطيران يمكنه حينها شقّ البحار السبعة مثل دولفين فتيّ. وبسبب قصر نظره فقد رافقه في كل رحلاته صقر بعينين لا يتفوق على حدة بصرهما عين مخلوق وكان الصقر ينبه العربجي لكل صغيرة وكبيرة في مياه المحيطات.

كان العربجي سليم في حياته الفعلية صغير الحجم ضئيل البنية إلا أنه في قصصه كان لا يقوم بإخضاع العمالقة ذوي الأعين الملتهبة والشوارب المرعبة فحسب، لكنه كان كذلك يصارع أسماك القرش ويهزمهم، كان في كل رحلة تقريباً يقاتل وحشاً ما.

كان طيران سليم حول العالم مألوفاً لدينا مثل الانسياب الساحر لطيور السنونو فوق سماء دمشق الزرقاء. كم من مرّة وقفت وأنا طفل صغير أمام النافذة، أراقب هذا الطائر الرشيق وأتمنى أن أسبح في سماء دارنا مثله. لم تكن إذناً تلك التحليقات التي رواها سليم لتثير الرعب داخلي، لكنّي كنت أرتعش خوفاً مع الآخرين لسماع معارك سليم مع أسماك القرش وباقي الوحوش في الأعماق.

كان الجيرانِ يطلبون ولمرة واحدة على الأقل في الشهر من العربجي العجوز أن يسرد قصة الصيّاد المكسيكي، قصة يستمتع بها

سليم كثيراً على وجه الخصوص. كانت أحداثها تجري على هذا المنوال: سليم يسبح في خليج المكسيك بأمان وسعادة مثل دولفين حين يقوم أخطبوط ضخم شرير بمهاجمة مركب صيد صغير ويستطيع بعد فترة قلبه في الماء. يبدأ الأخطبوط بلفّ مجسّاته حول الصياد وكان ليسحقه حتّى الموت لو لم يسارع سليم إلى نجدته. فرح الصياد لنجاته لدرجة سالت معها دموعه وأقسم بمريم العذراء المقدّسة بأنه في حال أنجبت له زوجته الحامل ولداً بأن يسميه سليماً على اسمه. عند هذه النقطة يتوقف سليم عن الحديث ليتأكد من إصغاء مستمعيه.

«وماذا لو كانت بنتاً؟» يبادر أحدهم بالسؤال، حينها يبتسم العربجي العجوز جذلاً، يأخذ نفساً من نارجيلته ويمسد على شاربه الرمادي. كان جوابه هو ذاته كلّ مرة «حسناً، سيدعوها آنذاك سليمة، بالطبع».

كان الصراع مع الأخطبوط الضخم يأخذ وقتاً طويلاً. في الشتاء كنا نحن الصغار نتكوّم في غرفة سليم ونرتعش خوفاً على العربجي الذي يقاتل الأخطبوط بأذرعه التي لا تعدّ. وما أن ترعد السماء في الخارج حتى نلتصق ببعضنا البعض أكثر.

تميم، أحد أولاد الجيران، كانت لديه عادة مزعجة في التشبث برقبتي بأصابع يديه السمينتين عند منتصف القصة. كان الأمر يرعبني إلى درجة أكاد أصرخ معها من الخوف، حينها يسارع سليم إلى تأنيب المشكلجي، ثمَّ يسألني عن النقطة التي توقّف عندها ليعاود معركته مع الأخطبوط الضخم.

فيما بعد وفي طريقنا إلى بيوتنا كان حفيف كلّ ورقة شجر على الأرض تدبُّ في أوصالنا الخوف وكأن الأخطبوط واقف لنا بالمرصاد. كان تميم، ذاك الجبان والذي يبدو غير مكترث أثناء سماع القصة أكثرنا

خوفاً. كان يقطن على بعد بضعة بيوت وهكذا كان عليه أن يجتاز أرض الديار ثمَّ يسلك زقاقاً معتماً ليصل إلى بيته. فيما كنت أنا وثلاثة أولاد آخرين نقطن في البيت ذاته مع سليم وهكذا نشعر بقربه المطمئن حتّى ونحن في أسرّتنا.

ذات ليلة كان الأخطبوط مرعباً بشكل استثنائي. لذا كنت في أقصى سعادتي أن أصل سريري سالماً آمناً. فجأة سمعت أنين تميم وهو يقرع باب العجوز برفق «عمي سليم، هل ما زلت مستيقظاً؟».

«من هناك؟ تميم، يا بنيّ، ما الأمر؟».

«عمّي، أنا خائف، هناك شيء يزحف ويشخر في الظلمة».

«ابق مكانكَ يا ولدي، أنا في طريقي إليك. سوف أستل خنجري اليمنيّ» جاءه صوت سليم مطمئناً عبر الباب المغلق.

انتظر تميم شاعراً بالخزي حيث كانت أصوات ضحكاتنا كلنا، نحن ساكني الدار، مسموعة عالياً.

«سر خلفي، حافظ على مسافة بيني وبينك، لا تخف حتى وإن قفز نمر نحونا فسوف أصرعه أرضاً وأنت لا تلتفت عندها بل اركض بأمان إلى البيت». اطمأن تميم لصوت سليم الهامس بالرغم من أن العربجي العجوز كان نصف أعمى وبالكاد يرى في الظلمة. لم يكن في مقدور أحد الكذب كما يفعل سليم.

أجل، كان يحب الكذب بالرغم من أنه كان قليل الصبر حيال المبالغة. ذات يوم انضم إلينا أحد الجيران وكان سعيداً وهو يستمع إلى حكاية الأخطبوطِ والصياد المكسيكي. لكنه، وفي منتصف المعركة، أصرَّ على معرفة طول مجسات الأخطبوط.

أجفل السؤال سليماً. أجاب وهو مرتبك بعض الشيء: «طويل جداً... مع مئات من الماصّات».

«ما مدى طوله؟ متر؟ عشرة؟» سأل الجار ساخراً.

«وكيف لي أن أعرف؟ أنا لم أذهب إليه لأقيس ذراعيه، كان عليّ أن أتخلص منه لا أن أخيط له بدلة». أضحك جواب سليم اللاذع الجميع. ظلّ الرجل يدمدم بأشياء غير مفهومة فيما كان العربجي يصارع الأخطبوط إلى أن تقيأ الأخير مخزونه من الحبر وفرَّ هارباً. لكن ما إن انتهت المعركة، وبدا سليم مستعداً لسحب النَفَس الأول من نارجيلته على شاطئ رملي في كوبا ـ حتى قاطعه الرجل للمرة الثانية: «إذناً فهو أنت من لوَّن المحيطات بلون أزرق».

«أبداً، أبداً، إن المحيطات زرق من قبل أن أولد. إن الكثير من الرجال الشجعان قد صارعوا العديد من وحوش البحر. أول من قام بالأمر كان في سنة ثلاثمائة واثنتين وعشرين قبيل آدم وحواء» قال العربجي معلقاً وسحب نفساً عميقاً من نارجيلته ثمّ عاد ثانية إلى شاطئ كوبا.

ذات يوم سألت سليماً لماذا تسحر كلماته الناس، فقال: «إنها هبّة من الصحراء» وبما إنني لم أفهم قصده فقد شرح لي قائلاً: «الصحراء، يا صديقي، تبدو للوهلة الأولى جميلة. إن الناس الذين يزورونها لبضعة أيام، أسابيع أو شهور يجدونها ساحرة لكنَّ الحياة تبدو شاقّة حين تسكنها بشكل مستمر. من الصعب أن تجد أي جمال تحت أشعة الشمس الحارقة صباحاً أو البرد القارس ليلاً. لهذا السبب لم يرغب أحد في العيش فيها وظلّت الصحراء موحشة ولزمن طويل. لقد

صرخت الصحراء طويلاً من ألم العزلة لكن قوافل الذين مرّوا فيها كانوا سعداء بمغادرة هذا القفر الموحش من دون أن يصيبهم الضرر. إلى أن جاء يوم كان فيه جدّي الأكبر ـ واسمه سليم أيضاً ـ ماراً بالصحراء مع قافلته. سمع استغاثتها وقرر البقاء فيها وعدم تركها وحيدةً ضحك عليه الكثير من الناس لأنه خلّف حدائق المدن الخضر بحثاً عن حظه في الرمال. لكنّ جدّي الأكبر ظلّ متشبثاً بالصحراء. لقد آمنَ طوال حياته أن الجنّة هي عبارة عن خلاء تمّ اقتحامه ومنذ ذاك الوقت بدأت تتلاشى عزلة الصحراء بفضل ضحكات وألعاب وأحلام أولاده وأحفاده. كانت حوافر أحصنة جدي الأكبر تقرع أرجاء الصحراء باعثة فيها الحياة. وكانت أخفاف جماله تبعث بلمساتها الخفيفة الهدوء في سريرة الصحراء وعرفاناً بالجميل فقد أهدته الصحراء وأولاده وأحفاده أكثر الألوان جمالاً في العالم. لون الكلمات السرّي. وهكذا أصبح في مقدور كلّ واحد منهم سرد قصص على ضوء نار لياليهم وأثناء رحلاتهم الطويلة. وهكذا حوَّل أجدادي الرمال إلى جبال وشلالات مياه، إلى غابات الأمازون الخضر وإلى ثلج جبال ناصع. هناك، على ضوء النار، في وسط الصحراء، وهم يكادون يموتون جوعاً وعطشاً كانوا يروون قصصاً عن جنة فيها أنهار من حليب وعسل. كانوا يحملون جنّتهم هذه في أسفارهم كلها. كانت كلماتهم السحرية تجعل كل جبل ووادٍ، كل كوكب وكل عالم أخف وزناً من ريشة».

على مدى أربعين عاماً لم يقد سليم عربته لأبعد من بيروت، لكنه وعلى أجنحة كلماته سافرَ عبر بلاد الكرة الأرضية كلها كما لم يفعل أحد. لهذا شعر كلّ الجوار بالارتباك والإحباط عندما لم يصب الخرس سوى سليم. لم يستطع حتّى أصدقاءه المقربين أن يصدّق ما حدث.

لماذا صارت الجيـرة تنظر بقلق إلى مشاوير السادة السبـع الهادئة؟

لو استمع سليم لنصائح والده لأصبح تاجراً سعيداً أو حرفياً كأي واحد من إخوته الخمسة، لكنه أصرَّ وأياً كانت النتائج على أن يصبح عربجياً. كانت سمعة المهنة في تلك الأيام بالغة السوء إذ لم يكن صيت العربجية عموماً أفضل من السكّيرين المشاكسين، ومع هذا ظلّ سليم طيلة عمره شديد الفخر بمهنته.

إلى جانب موهبته كراوي قصص ـ تلك الموهبة الساحرة التي شهرته في حيّنا بلقب الحكواتي الأكثر لطفاً من كونه عربجياً ـ فقد امتلك سليم مقدرة أخرى. كان الوحيد القادر وبسرعة مذهلة على شفاء طيور السنونو التي سقطت أرضاً كي تعاود الطيران ثانية وهو بحقّ عمل قارب السحر. حار جيران سليم من تلك الرابطة السرية التي تجمع سليماً بطيور السنونو وتشاحنوا فيما بينهم عن سرّ هذه الموهبة. ادّعى بعضهم أن يديه كانتا مباركتين فيما اتهمه آخرون ومن وراء ظهره وبصوت منخفض لوجلهم بأن له علاقة بالشيطان، لكن الغالبية لم يثبت لها رأي إنما أقرت ـ بقدر من الخوف ـ بأن السحر وحده هو من أعطى القدرة لسليم، وسليم وحده، على تمكين أي طير سنونو من الطيران

ثانية فيما ظنَّ معظم فتية الحيّ أن الأمر كله ليس أكثر من عملية احتيال ماهرة.

كانت تلك الكائنات الانسيابية المتألقة والتي تزيّن تحليقاتها الساحرة سماء دمشق تبني أعشاشها تحت أسقف منازلنا. مرة بعد أخرى كنا نجد على الأرض طير سنونو قد سقط بطريقة ما من عشه وهو يصفق بجناحيه عاجزاً. من المعروف عن هذه الطيور بأنها ترفض أي قوت يقدم لها طالما أنها تعجز عن الطيران. إذاً لولا سليم العربجي لانتهى أمرها بالموت جوعاً. كنا نحن الصغار نحمل الطيور له، وكما أسلفت، له وحده، فيترك حينها أي شيء في يده، ليمسك الطير المرتعش بين كفيه الضخمتين، ويخرج به إلى شرفته. بم يهمس للطير وما سبب تقبيله إياه فقد كان هذا سرّه وحده، لم يعرف أياً كان ماهية الأمر. لكن النتيجة كانت واضحة لعيون كل مراقبيه حتى المشككين منهم. كان سليم المرة تلو الأخرى يعيد للسماء بهلوانه فيزعق طائر السنونو فرحاً وينطلق كالسهم إلى زرقة السماء وكان بعضها يقوم بدوران جميل فوق رأس العجوز وكأنه يرسم وردة تعبيراً عن شكرها.

لم يعرف أهل الحي الكثير عن سليم، فنادراً ما تكلم عن نفسه،وإن فعل لبدا الأمر على شاكلة إحدى قصصه العجائبية حيث صعب الأمر على مستمعيه أن يميزوا إن كان العربجي العجوز يتحدث عن نفسه أو عن أحد أبطاله. كان الناس يعرفون سليماً باسم العربجي، لكن معظمهم لم يعرف كنيته التي هي في الواقع أبو صقر.

كانت عائلة أبو صقر تنتمي إلى بدو الصحراء العربية. بعد ثورة

فاشلة ضد السلطان العثماني في القرن الثامن عشر، فرّق السلطان العشيرة وشتت شملها. وجرّ عساكره جدّ سليم مصفداً بالحديد إلى دمشق وزج في سجن القلعة حتى مماته، وبعدها لم يُسمَح للعائلة بمغادرة المدينة. تعلّم والد سليم مهنة الدباغة وازدهرت أعماله وفي حين استلم ابنه البكر الدبّاغة الصغيرة عمل آخران في تجارة البضائع الجلدية. أصبح أحد الأبناء خياطاً والآخر صائغاً لكنه مات في سن مبكرة بمرض الجدري. دُعي سليم، الابن الأصغر، على اسم جد جده لأبيه وعُرف منذ طفولته الأولى بطبيعته التي لا تهدأ مسبباً لوالديه المتاعب أكثر من أخوته الخمسة مجتمعين. كان سليم يختفي أحياناً لأسابيع وشهور طويلة وكان والده يُهدِّء خاطر أمه الدمشقية الأصل قائلاً: «هذا الولد بدوي يحب الترحال كأجدادي. لا تخشي عليه فهو يحمل بوصلته في قلبه وسيجد طريق العودة دوماً».

وبالفعل كان سليم يعود كل مرة، ثانية بثيابه الرثّة، وبدل أن ينوح ويبكي كان يضحك للعقوبات التي ينزلها والداه به. وبدلاً من أن يتعلم مهنة ما فقد أمضى وقته وهو يرافق العربجية ويساعدهم من دون أجر يذكر ويعاني أحياناً الجوع معهم. تنقل سليم وهو في سن الطفولة مع العربات من خان إلى خان ومن مدينة إلى مدينة، كان يشق طريقه عبر الصحاري والجبال والوديان، متنقلا بين اليمن والخليج وصولاً إلى تركيا وإيران. حتّى إن الشائعات تناقلت أنه أمضى سنة في المغرب كتلميذ ساحر معروف. كان سليم نفسه لا ينكر ذلك ولا يؤكده بل يضحك بخفوت حين يسأله أحد ما عن أيامه في المغرب الأمر، لكنه في الواقع كان يعرف الكثير عن عادات وطبائع البربر المغاربة أكثر من أستاذ جغرافيا.

لثلاثين عاماً كان سليم يكسب قوته كعربجي. وبعد أن هاجر ابنه إلى أميركا وغادرت ابنته الجميلة مع زوجها الثري ليستقرا في شمال البلاد، بقي سليم وحده مع زوجته في حجرتهما الصغيرة. وعلى عكس ابنه المحبوب الذي كان يبعث برسائل من دون إرفاق دولار واحد، فقد أعانت ابنة سليم والديها بمبلغ صغير كل شهر إذ لم يكن للعربجية المتقاعدين أي راتب يعتاشون منه.

كانت سيدة، زوجة سليم، إنسانة طيبة المعشر ومتواضعة تعيش حياة هادئة. لكن لم يعرف جيران سليم كم كانت هذه المرأة صلبة وشجاعة إلا بعد رحيلها. تنكرت ذات يوم ـ كما روى سليم القصة ـ بهيئة فارس أسود وأنقذته من سبعة جنود مسلحين اعتقلوه لهروبه من الجيش العثماني. صدق كل الجيران على أن سليماً لم يخدم في العسكرية أبداً ـ لكن لم يتخيل أحد أن زوجته الصغيرة سيدة قد تمكنت من بث الرعب في نفوس الجنود السبعة.

كل مساء كان سبعة رفاق يجتمعون عند الأرمل العجوز، كانوا جميعاً في السن ذاتها، في حوالى السبعين من العمر. علي الحداد، كان أكثرهم ضخامة، بدا ضخماً إلى درجة يكاد يشغل معها الأريكة كلها. أما آخر من التحق بالسادة العجزة فهو مهدي، معلم الجغرافيا، وعلى الرغم من أنه قد مضت ثمانية أعوام على انضمامه إلى المجموعة إلا أنهم ظلوا يشيرون إليه على أنه «الوافد الجديد». موسى، الحلاق القصير ذو الجسم المكتنز كان الوحيد في المجموعة الذي يموّه سنواته السبعين بصبغ شعره. أما أكثر الأصدقاء أناقة فهو فارس، رجل الدولة الأسبق. بعيد حصول سورية على استقلالها عُين حفيد الباشوات هذا

وزيراً للمالية وسرعان ما أكسبته إصلاحاته وقراراته الراديكالية لقبه الشائع «الباشا الأحمر». توما، العضو الخامس في الدائرة عرف بلقب «المغترب» على الرغم من مرور أكثر من عشر سنين على عودته من أميركا. يونس، القهوجي، كان الوحيد من السادة الذي يكنون له جميعاً كل الامتنان فقد كان مقهاه المكان حيث تعرّف فيه كل منهم على الآخر خلال تلك السنوات ـ وحدهما سليم وعلي كانا أبناء حارة واحدة. لسنين طويلة كان الرجال السبع يجتمعون في المقهى الوحيد الذي يمكن للمرء فيه ارتشاف فنجان من القهوة اليمنية الأصيلة وتدخين نارجيلة عجمية. لكن ما إن قام ابن يونس بتحويل المقهى الشرقي القديم الطراز إلى مطعم حديث ومبهرج حتّى لم يعد يرتادها أيٌّ منهم.

العضو السابع في المجموعة كان رجلاً صغير القامة يدعى عصام أمضى أربعة وعشرين عاماً في السجن لجريمة نكراء لم يرتكبها. بالمصادفة تمَّ القبض على المجرم الحقيقي قبل سنة واحدة من إطلاق سراح عصام. وكان سليم يكرر على مسمع الجيران ليبين حسن أخلاق صديقه: «يحق لعصام قتل أي منكم فقد دفع سلفاً ثمن جريمة.. لكنه لا يفعل».

بدا عصام رغم سنينه السبعين للجيرة رجلاً نشيطاً لا يعرف الكلل أو الملل، وكأنه كان يريد ملء سنواته المتبقية لتعويض ما فاته في السجن. كان من يوم الاثنين وحتى الخميس يدفع عربة صغيرة ملأى بالخضراوات في أحياء المدينة النائية، وفي يوم الجمعة يتاجر في بيع الحساسين والعصافير المغرّدة الأخرى، فيما يقوم أيام السبوت والآحاد ببيع الفول النابت أو البليلا أمام دور السينما.

كان سليم يفضّل عليّاً من بين الجميع فقليلاً ما كان الحداد يتحدث لكنه في المقابل يستمتع كثيراً بالإصغاء إلى قصص الحوذي. كانت آذان الحداد الكهل المتمم المثالي للسان العربجي الثرثار، كان علي مستمعاً مرهف الحس يقهقه عند أدنى إيماءة. لكن لم يكن هذا كل شيء. كان سليم يمدح عليًّاً بكونه أكثر الرجال شجاعة في الجوار كله. في أوائل الأربعينات صفع علي جنرالاً فرنسياً في وسط الشارع، وفي وقت كانت البلاد ترزح تحت نير الاحتلال الفرنسي. تناقل الناس أن علياً قام بالفعل بذلك لأن الجنرال كان مخموراً وتلفظ بكلمات ساخرة على النبي محمّد الذي حرّم شرب الخمرة. لم يحب علي الخوض في تفاصيل الحكاية وكأن ذكراها تؤلمه لكن سليم العربجي وصف وبالتفصيل ثأر الجنرال المرعب، لقد اعتقل عساكره علي واقتادوه إلى الثكنات خارج دمشق حيث قاموا هناك وبالقوة بإفراغ كمية هائلة من النبيذ الأحمر في معدته بواسطة قمع ثمَّ ربطوه إلى عمود تحت أشعة الشمس الحارقة، وحين فقد علي وعيه جرّه الجنود خارج الثكنة وألقوه في خندق على جانب الطريق. وجدته عائلة من الفلاحين كانت في الجوار فاصطحبته معها. طبعاً لم يعرفوا مصابه حيث إنهم لم يسمعوا قبلاً بالتسمم الناتج عن شرب الكحول. لكن المرأة العجوز قدمت له خليطاً من زيت الزيتون واللبن والخلّ مما ساعده على القيء وهذا ما أنقذ حياته. اضطّر علي إلى قضاء عدّة أيام طريحاً في الفراش عندهم قبل أن يستعيد عافيته. في تلك الأثناء كانت عائلة علي قد علمت بأمر اعتقاله وبدأوا يسألون عنه في الثكنة العسكرية. كل ما توصلوا إليه هو الجواب الساخر: «إنه ليس هنا، لربما كان عند النبي». حين استعاد علي عافيته أخيراً خجل من العودة إلى البيت لذا شقَّ طريقه متجهاً إلى

ملهى ليلي معروف للضباط الفرنسيين وتربص طويلاً قرب الملهى إلى حين خروج الجنرال ثمَّ قام بضربه بشكل مرعب. بدا الأمر أعجوبة أن الرجل لم يمت. اضطر علي إلى الهرب إلى الجبال حيث بقي هناك حتى رحيل الفرنسيين عن البلاد بعد أربعة أعوام. كان سليم العربجي وحده من يعرف مخبأه ويقوم سراً بإيصال الطعام واللباس وآخر الأخبار أسبوعاً بعد أسبوع إليه.

كان الأصدقاء السبعة يلتقون كل ليلة ومن دون أي استثناء، سواء أمطرت السماء أم قام الجيش بانقلاب، ليصلوا قبيل الثامنة ولا يغادرون غرفة الحوذي حتى منتصف الليل. وفي حال كان أحدهم مريضاً ولم يتمكن من الحضور فإن زوجته أو حفيده أو حتى ابن الجيران يقوم بتقديم اعتذار مع شرح مفصّل عن حالته، لم تكن الأعذار الواهية لتُقبل.

كنتُ الطفل الوحيد في الجوار الذي يسمح له العربجي بالبقاء حين وصول باقي الرجال. في المقابل، كنت غالباً ما أقوم بدور الساعي ولم يكن هذا من الأعمال الممتعة دوماً حيث إن الرجال العجزة كانوا كثيري النسيان. كان المهاجر غالباً ما ينسى حبوب دوائه ونظارته، وصاحب المقهى ينسى السعوط، فيما ينسى الوزير الأسبق مناديله الأنيقة ـ ولا يقبل منديلاً آخر. كنت اضطر أحياناً للقيام بهذه المهمات المزعجة تحت المطر حيث تتفرق بيوتهم في أرجاء المدينة كلها. وحده سليم العربجي لم يرسلني أبداً لمهمات كهذه. لكنه ذات يوم أجبرني أن أقسم له بألا أتفوه بكلمة واحدة مما أسمع في غرفته. أقسمت بروح جدتي نجلا، التي أحبها أكثر من كل القديسين مجتمعين، بألا أبوح بكلمة

واحدة. لكن وباستثناء عفيفة، جارة سليم الفضولية، لم يكن أحد ليهتم بحديث الرجال العجزة، وبالإضافة إلى هذا، ما كنت ـ حتى بدون حلف الأيمان ـ لأفشي بكلمة واحدة لعفيفة، تلك المحطة الإذاعية المتنقلة، حتى وإن أغرتني بقطعة شوكولاته.

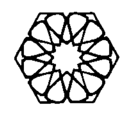
أحياناً كان ينتابني شعور أن الرجال العجائز لم يقوموا بإرسالي بعيداً إلا كي تتاح لهم الفرصة لحديث أكثر حريّة. كنت أتصرف وكأني لا أفهم لمَ يقدم أحدهم بإرسالي لجلب علبة التبغ للمرة الثالثة في الليلة الواحدة، أو لمَ يطلب الآخر حبة دواء أخرى بعد ساعة واحدة من تناوله للأولى. كان فارس، الوزير الأسبق أسوأهم ـ كان بوسعه العطس كلما رغب وكان يتقصد تلويث منديله بالكامل بمخاطه. في الخارج كنت أتوانى تحت النافذة وأسترق السمع على أسرار قصصهم والتي غالباً ما تبدأ بعبارة «والآن بما أن الولد قد راحَ...».

كان الأصدقاء السبعة يجتمعون كل مساء، وعبر السنين أصبحت تلك الاجتماعات واحدة من آلاف العادات في حيِّنا. لا أحد، ولا أي شخص أعارهم أي انتباه كلما شقوا طريقهم باتجاه بيت سليم العجوز. كانت جيئاتهم وروحاتهم قد أصبحت جزءاً من حياتنا اليومية مثل صراخ الأطفال وزقزقة السنونو التي تملأ السماء فوق حينا الصغير كل مغيب شمس. كل هذا تغير بشكل مفاجئ حين أصاب الخَرس سليم العربجي. أجل، سليم، الرجل الذي تحول كلماته السحرية غرفته إلى محيط وصحراء وبل حتى إلى غابة قد أصبح فجأة رجلاً أخرس.

صار خرس العربجي بين ليلة وضحاها الموضوع الأول في الحي. وتتبع الناس ذهاب وإياب اصدقائه العجائز باهتمام فضولي ـ غريب عن

الحي كان سيصف ذلك الإهتمام بالرهبة والخوف ـ لكني بما أني أعرف حارتي التي لا ترهب أحداً أكتفي بوصف مراقبتهم بكلمة «اهتمام فضولي». فهم فضوليون بالتأكيد. وباختصار أثار خرس العربجي الغريب تساؤلات كثيرة وتفاسير أغرب. لكن كل تكهنات الحي لم تعنيني بشيء فقد ملأ قلقي قلبي على صحة صديقي سليم.

من الآن فصاعداً كنت أزوره كل ليلة ولا أرضخ لأمر أحد بإبعادي عنه.





كيف أصيب العربجي العجوز بالخرس وأصبح أصدقاؤه حديث العامة؟

يطلق الناس في دمشق على آخر أشهر الصيف لقب «آب اللهّاب»، أثناء النهار تعيش المدينة في حالة مستمرة من الغليان الناري حيث إن درجات الحرارة تكاد تتجاوز الأربعين درجة في الظل، حينها ماذا يمكن لمروحة تافهة أن تفعل بحرارة كهذه سوى أن تدير الهواء الحار بلا جدوى إلى ما لا نهاية؟ في باقي الأشهر تتلطف الأجواء قليلاً ما أن تأخذ الشمس بالمغيب ويرتاح سكان المدينة في أمسياتهم المنعشة من قيظ النهار، لكن ليس في شهر آب، حيث تظل الأرض حارة حتّى في الليل حيث يبدو عمود ميزان الحرارة الزئبقي قد تسمر عند درجة الحرارة ٣٠ مئوية لذا بالكاد يتمكن الناس في ليالي آب من النوم وما إن تمضي ساعة واحدة على شروق الشمس حتى تعاود الحرارة ارتفاعها الشديد.

في إحدى أمسيات شهر آب سنة ١٩٥٩، استيقظ سليم فجأة وهو غارق في عرقه، انتصب في سريره جالساً وقد أحسّ بأن أحداً ما كان معه في الغرفة. ناداه قائلاً: «من هناك؟».

«أخيراً صحوت من نومك!» وصل إلى مسامعه صوت امرأة تنهدت

ارتياحاً. كان الظلام مخيماً كالقار، لكن العربجي أحسَّ بيد صغيرة لامرأة تلمس وجهه، كان لها رائحة البرتقال «لقد أتيت يا أعز صديق كي أودعك».

«ماذا تعنين وداعاً؟ من أنتِ؟» سأل سليم بما أنه لم يسمع هذا الصوت قبلاً.

«أنا جنيّتك الطيبة، تلك التي نفثت الحياة في كلماتك المغبرّة والجافة وجعلتها تنمو لتصبح شجرة حكايات سحرية. هل تظن حقاً انه كان بوسعك وحدك سرد القصص لو لم ألازمك بإخلاص لأكثر من ستين عاماً؟ كم من مرة توجب عليّ إعانتك كلما أضعت خيط الحكاية؟ أنت بلا شك أفضل راوي قصص في دمشق كلها، لكنك كنت أحياناً تبالغ في حبك لرواياتك حتى تضيع داخل متاهات قصصك الثانوية واستطراداتك، إلى درجة أنك تنسى معها تتمة القصة الأساسية، خاصة حين كنت تروي قصتك المحببة يوم قمت بإنقاذ الصياد المكسيكي، فعلى الرغم من أنك رويت القصة حوالي الثلاثمائة مرة إلا أنك كنت تصاب دوماً بنشوة نصرك على الأخطبوط إلى درجة تنسى معها أنك كنت قبل ذلك في طريقك إلى كوبا لإحضار اللؤلؤة السوداء النادرة التي تحتاجها لإنقاذ حياة الأميرة. وفيما كنت أنت تختال أمام مستمعيك كالطاووس متمتعاً بانتصارك على الأخطبوط وتدخن نارجيلتك أكون أنا في منتهى القلق إلى درجة أرتعش معها ـ وأهمس لك بصبر إلى أن تعود وتجد خيط القصة ثانية وتخبر مستمعيك كيف وجدت اللؤلؤة السوداء وتدبرت أمرك لإنقاذ الأميرة والعودة بها ثانية إلى دمشق حيث بدأت الحكاية. كنت في نهاية كل قصة منهكة القوى لكن سعادة ساحرة كانت

تغمرني لأنني أهديت بعملي قلبك ابتسامة راحة. كانت تلك سنوات عمل قاسية معك، يا صديقي». توقفت المرأة لبرهة: «والآن أنا مثلك قد طعنت في السن وأصبح شعري رمادياً وعلي أن أخلد لراحة التقاعد. ولكن ما أن أفعل حتى تفقد صوتك. لطالما أحببتك يا سليم، كان صوتك ويدك يدغدغان قلبي على الدوام مثل ريشة صغيرة. ولهذا السبب طلبت من ملك الجان عندما أثنى على عملي طلباً خاصاً بالرحمة، وملكنا رحيم كريم، استمع إليّ جيّداً وضحك قائلاً: أجل، أجل أعلم أنك كنت دوماً واقعة في غرام هذا العربجي المرح، أليس كذلك؟ حسناً، اذهبي وأبلغيه بشرطنا لكي نرحمه».

«شرط! أي شرط؟». بالكاد ابتلع العربجي ريقه وشعر بأن حلقه قد تحول إلى خشب.

«بعد هذا السؤال لم يتبق لك سوى إحدى وعشرين كلمة وبعدها ستصبح أخرس، إلا إذا... استلمت سبع هدايا فريدة من نوعها خلال ثلاثة أشهر، حينها ستأتي جنيّة شابة وتحل مكاني وتقف إلى جانبك، سوف تحرر لسانك من صمته وستعاود سرد القصص حتى آخر يوم في حياتك. عندئذ يمكنك يا صديقي أن تروي قصصاً فائقة التعقيد وسترى كيف ستعطيك هذه الجنية الشابة عبر حسن متابعتها وذاكرتها الخيط دوماً لتعود إلى قصتك وتجد المنفذ حتى نهايتها.

لا تبعثر كلماتك، حبيبي سليم، فالكلمات مسؤولية، ولا تسألني أي شيء بعد. عليك أن تكتشف الهدايا بنفسك! لم يخبرني ملك الجان بشيء، لم يبح حتى إليّ عمّا يمكن أن تكون. فكّر جيداً فيما تريد قوله، لم يتبق لديك سوى إحدى وعشرين كلمة!».

كان سليم العربجي دمشقياً أصيلاً لا يعتبر أي عرض أو سعر مقدساً ثابتاً نقش على حجر بل اقتراح قابل للتطوير وبداية لمساومة مفيدة لكلا الطرفين «فقط إحدى وعشرين؟» همس بصوت يرق له أقسى قلب بائع في سوق الحميدية.

«لم يبق لك الآن سوى ثماني عشرة كلمة» صححت الجنية كلامه بصوت مملوء بالأسف والحسرة، فتحت الباب واختفت في الظلمة. قفز سليم من سريره وأسرع خلفها لكنه سرعان ما التقى بجاره خارجاً من غرفته متجهاً نحو المرحاض، «يا الله، يا كريم، كم الطقس حار! لا يمكنك النوم كذلك، عمي سليم؟» سأل العربجي المرتبك.

«لا» أجاب سليم ثمّ لعن نفسه لأنه أضاع كلمة أخرى. أمضى الليل كله وهو يذرع غرفته الصغيرة جيئة وذهاباً، ويحدّق باستمرار من شباك غرفته إلى أن شق الفجر ثوب الظلام. أعدّ لنفسه بعض الشاي، مضغ بتأمل قطعة خبز، وما أن قرع جرس الكنيسة المجاورة عند الساعة الثامنة حتّى غادر غرفته بخطوات تعبة. تعجب الجيران من مزاجه الكدر، فالعربجي لم يرد حتى على تحيات «صباح الخير» أو «نهارك سعيد».

توقف سليم لبرهة على باب بيته. كان اثنان من كنّاسي الشوارع يمران بجواره، أحدهما يرش المياه من قربة جلدية ضخمة يحملها على ظهره كي يمنع قدر الإمكان من تطاير الغبار، لكن القطرات الصغيرة سرعان ما أحاطها الغبار بغلاف رقيق لتتدحرج ككريات الدحل الزجاجية وتستقر داخل الشقوق والحفر الكثيرة في أرض الزقاق الضيق. كان الرجل الآخر يتبع ناثر المياه بمكنسة ضخمة. خطوة، خطوة شاقاً طريقه

عبر الغبار. انتظر سليم حتى تلاشى الغبار خلف كناسي الشوارع وأصبح الهواء صافياً ثم سار بتمهل باتجاه بيت صديقه علي. كانت دار الحداد على بعد بضعة بيوت في نهاية الحارة.

قرع سليم الباب وانتظر. انفرج بعد قليل عن بنت صغيرة اختلست نظرة باتجاه العربجي العجوز وصاحت ملتفتة إلى الوراء باتجاه ساحة الدار: «عمو سليم!» وركضت نحو الداخل في حين أسرعت فاطمة، زوجة الحداد السمينة، باتجاه الباب معتذرة عن تصرف حفيدتها الخجول ودعت الصديق إلى الدخول ولكن ولدهشتها الشديدة ظلّ سليم مسمراً عند الباب يلوّح بيديه رافضاً دعوتها. «لكن ما الأمر يا سليم، ما بك؟ علي لا يزال في فراشه ـ فقد أصابت نبيل الصغير سخونة طارئة لكنه حتى وإن لم يكن مريضاً فهو يحب أن يندس في فراش جده كل صباح».

أشار سليم إلى أنه يفضل البقاء عند الباب منتظراً وصول صديقه. بدا الأمر صعباً أن يشرح للمرأة عدم قدرته على الكلام وإضاعة الكلمات المتبقية له سدى، وكذلك بدا الأمر أكثر صعوبة على المرأة أن تفهم الرجل العجوز الذي جعله مزاجه المتكدر يبدو متقدماً في السن أكثر. تناهى إلى سمعهما أخيراً قعقعة قبقاب الحداد وزئير الرجل الضخم المسموع على امتداد المدخل «ما هذا؟ صديقي سليم خجول كعروس يوم دخلتها؟». ضحك حين همست زوجته في أذنه أثناء مرورها متجهة نحو الداخل بأن خطباً ما قد أصاب سليماً، «اذهبي وضعي ركوة القهوة على النار. ما به بلاء، إنه ينتظرني فقط لأدعوه أنا إلى الداخل. وهو محق بهذا كلّ الحقّ!». نظر علي إلى صديقه بابتسامة

عريضة لكنه بدا أكثر ارتباكاً من زوجته حين رفض سليم دعوته. من دون أن يتفوه بكلمة، حاول سليم جاهداً أن يشرح للحداد بأنه يتحتم عليه ومن كل بدّ القدوم إلى بيته تلك الليلة.

بعد فترة وجيزة فهم علي إيماءات صديقه لكنه وعلى الرغم من كل محاولاته الحثيثة إلا انه لم يتمكن من فهم إصرار سليم على تأكيد ما هو بديهي وواضح والأكثر من هذا سبب صمته المفاجئ.

كان الأمر بالنسبة إلى سليم أشدّ صعوبة في أن يشرح لباقي أصدقائه كذلك بأن عليهم أيضاً وتحت أية ظروف طارئة عدم التخلف عن القدوم إلى بيته. كان الوقت قد أشرف على الظهر حين أنهى سليم مهمته الصعبة. تناول قطعة خبز وبعض الزيتون واستلقى لمدة ساعة كي يرتاح من عناء رحلة الصباح في حارات دمشق القديمة.

في عصر ذاك اليوم، اجتمع الأصدقاء السبعة باكراً في بيت سليم. بدوا شديدي القلق على سلامة عقل صديقهم، جلسوا معاً وحدقوا بالعربجي العجوز وكأنهم كانوا يخشون أن يسقط مغشياً عليه أو أن يبدأ رقصة جنونية أمام أعينهم. لكن سليماً قام وبكل هدوء بترتيبات الجلسة. صبَّ الشايّ أولاً وكما تفرض عليه واجبات الضيافة أمسك بالنارجيلة المعبأة حديثاً ومررها إلى أكبرهم سناً، توما المغترب.

«حسناً، ما بك أخي سليم؟» كسر رجل الدولة الأسبق حاجز الصمت.

تحدث سليم ببطء شديد، أخبرهم بسبع عشرة كلمة حديث الجنية. أراد أن يضيف بأنه نفسه لم يصدق الأمر، لكنه لم يتمكن من تفوه كلمة واحدة أخرى، حتّى عندما قام الحلاق بدغدغته وقرصه ورغب سليم أن

يضحك أو أن يصيح ألماً فقد تعذر عليه إصدار صوت واحد. شحب وجهه وأمسك برقبته وكأن حلقه يؤلمه بعد سعال.

فجأة صاح علي الحداد: «أنا أعرف ما هي الهبات السبع، لسنوات طوال ونحن نأتي إليه، نشغل بيته، نشرب شايه، ندخّن تنباكه ونصغي إلى قصصه، لكن لم يفكر أي أحمق فينا في إراحته. سبع دعوات للغداء ستحرر لسانه! وأنا أؤكد لكم بأنه ما أن يتذوق باذنجان زوجتي... صدقوني الله وكيلكم.. ما أن يتذوق سليم ذلك حتى يعاود تغريده مثل الكناري، لذا سنلتقي غداً في بيتي». أنهى الحداد كلامه وأسرع إلى بيته.

ارتاح علي لابتسامة سليم عند وداعه. لكن فارساً، الوزير السابق وجدها ابتسامة متكلفة غامضة المعنى. وفي طريق العودة أسر بشكوكه إلى موسى الحلاق وتعجّب أيما عجب لاكتشافه أن الأخير يشاركه حيرته هذه.

«ليس الأمر أن لعبة العربجي العجوز سمجة وغير متقنة فحسب»، قال الحلاق وهو يشعل سيجارته، «المحزن أن الآخرين قد اخذوا بها تماماً، تظن أنهم رجالٌ عجنهم الدهر وفجأة استحالت وجوههم شاحبة مثل ورقة. هل رأيت توما وهو يواصل رسم إشارة الصليب ويصيح: "يا مريم العذراء، ارحمينا"، لكن كيف يمكننا إزالة القناع عن وجهه؟ لقد قرصته إلى درجة تجعل الفيل يصيح، لكنه لم يصدر حتى أنّة واحدة».

كان فارس الوزير السابق يكنّ الاحترام العميق للحلاق الذكي، ولم تكن هذه المرة الأولى التي يتشاركان فيها الرأي ذاته. قال موافقاً: «لا، لن تؤدي عملية القرص إلى أية نتيجة فسليم من العيار الثقيل».

تابع الاثنان حديثهما لساعات وساعات وهما يبحثان عن مقهى هادئ حيث يمكنهما الجلوس وتدخين النارجيلة والتحدث كما يشاءان. في كل من المقاهي الثلاث التي ارتاداها كان صوت المذياع يدّوي عالياً. فمنذ شباط ١٩٥٨ كانت سورية قد اتحدت مع مصر بقيادة زعيمها جمال عبدالناصر. لكن الجمهورية العربية المتحدة بدت منذ استهلالها كأنها على شفير الهاوية. وفي ذاك اليوم تحديداً كان الرئيس عبدالناصر يلقي خطاباً عبر الأثير ولمدة ثلاث ساعات ضد النظام في العراق حيث استحال الصديق الحميم بين ليلة وضحاها إلى شيطان رجيم. جلس الدمشقيون مسمّرين أمام المذياع يصغون إلى كلمات الرئيس النارية الغاضبة.

«الرؤساء يتحدثون أكثر فأكثر فيما يزداد صمت الناس» قال فارس حانقاً بعد أن صفع باب مقهى قصر البللّور خلفه. وللحظة فكر الوزير السابق أن صمت سليم قد يكون له علاقة ما بصياح عبدالناصر. لكن الحلاق موسى ضحك وانتزعه من وجومه فلقد كان الحلاق من عشاق ناصر. ما أن أصبحا في الشارع ثانية وصوت الرئيس لا يزال يصدح ويلعلع من نوافذ الدكاكين والبيوت حتى انفجر الحلاق صائحاً: «بالله عليك تروى يا أخي في حكمك، استمع إلى هذه الكلمات، ما قيمة الكتب مقارنة بهذا الكلام. ما قيمة الكتابة الأجمل أمام النغمات الإلهية لهذا الصوت الرائع البشري؟ أليست الحروف والخط سوى الظل المتواضع لصوت الكلمات على الورقة!».

أجاب فارس ملوحاً بيده: «أرجوك لا تبالغ، ليست الكتابة ظل الصوت فقط بل آثار خطواتها الأبدية، الفضل ليس للصوت بل للكتابة

فلولاها لم يسعنا الإصغاء للإغريق القدماء والمصريين حتى يومنا هذا، إننا نسمع أصواتهم مملوءة بالحياة وكأنهم قد نطقوا للتو. الكتابة وحدها، يا صديقي من تملك المقدرة على حمل الصوت عبر الزمان وجعله أبدياً مثل الآلهة».

«لكن عليك أن تعترف بأن لناصر تلك الحنجرة الآسرة، كلما سمعت صوته ترتعش أوصالي وتغرورق عيناي بالدموع» كان موسى حليفاً عنيداً للرئيس. أجاب فارس: «أنت محق في هذا، الرجل صوته أخاذ وهنا تكمن المشكلة».

تابع الرجلان سيرهما على مهل وهما يناقشان أمر عبدالناصر الذي أدى خطابه الطويل إلى إثارة الشكوك عند الوزير السابق فقط، فيما أثار صمت سليم المفاجئ شكوك الاثنين معاً. تساءلا طويلاً كيف يمكنهما كشف خديعة العربجي العجوز؟

في اليوم التالي اجتمع الأصدقاء السبعة في دار علي الحداد. كانت أطباق الباذنجان لذيذةً بشكل لا يصدق. أكل سليم بمنتهى السعادة وتذكر زوجته سيدة، التي اعتادت الطبخ الشهي بشكل مماثل. واصل علي إعادة ملء صحن صديقه المرة تلو الأخرى وسؤاله: «أحببتها، أليس كذلك؟». فيبتسم سليم ويومئ برأسه لكن من دون أن ينبس بكلمة واحدة.

قال مهدي المعلم: «لا يمكننا قول كلمة سوء واحدة عن طبخ زوجتك الماهر لكن سترى ما سيحدث ما أن يتذوق سليم التبّولة التي تعدّها زوجتي مع بعض العرق المثلج، سوف يحكي روايات يعجز عنها لسان شهرزاد نفسها. كما تعلمون زوجتي لبنانية ولا أحد يعدّ التبّولة مثلهم».

في اليوم التالي تذوق العربجي الصامت التبولة الرائعة مع العرق البارد. بالغ سليم كعادته مع الأشياء التي يستمتع بها، فقد شرب تلك الليلة إلى درجة أصبح معها مخموراً وأكل إلى درجة عانى معها طوال الليل من ألم بطنه.

لليال ست واصل الأصدقاء تباعاً دعوة سليم كل يوم للغداء، أخذ وزنه يزداد يوماً بعد يوم لكنه بقي على حاله ولم ينبس ببنت شفة.

باكراً في صباح اليوم السابع، كان فارس، الوزير السابق يشع ابتساماً، ليس بسبب محبته لضيفه بل بقدر ما كان بسبب ثقته بخطته التي حاك خيوطها مع الحلاق. ما أن قدم أصدقاءه حتى بدا الجميع ـ باستثناء موسى الحلاق، صديق فارس المتآمر معه ـ مأخوذين بطبق اللحم المشوي بل كذلك بالعدد الهائل لقناني البيرة الموضوعة في طشت كبير طافح بالثلج. قال الوزير: «في حرارة جهنمية كهذه لا شيء يطفئ العطش أكثر من البيرة الألمانية المثلجة، هذه البيرة الأصلية شيء مختلف تماماً عن المياه الرغوية التي نصنعها والتي يسمونها هنا بيرة».

دمدم علي معترضاً: «أنا لا أشرب الكحول».

مدح توما المغترب الخبير بالمشروبات الأجنبية، ذوق الوزير الراقي الذي لم يوفر جهداً ومالاً في استضافة أصدقائه بتلك البيرة المستوردة الغالية. وللبرهان أضاف قائلاً: «حتى في أميركا يعترف الناس بجودة البيرة الألمانية».

وافق يونس ومهدي وعصام على رأي توما بالرغم من أنهم لا يحبذون البيرة كثيراً. . الضيف في دمشق ملك عند مضيفه لكنه ملك يعرف القانون المقدس وغير المكتوب للضيافة ويعني كذلك أنه حتى

الملك عليه أن يلزم الصمت ويقبل بامتنان كل مأكل ومشرب يقدمه مضيفه الكريم. ابتسم سليم وتناول اللحم المشوي وشرب البيرة، وعلى الرغم من أنه لم يتذوق قبلاً هذا المشروب المرّ إلا أنه سرعان ما استذوقه.

كانت الطاولة عامرة بالكرم والحديث جميل مرح إلى حد أن عليّاً نفسه نسي رفضه للكحول في هذه الأمسية وارتشف عدة جرعات بشيء من الفضول السار. أما بالنسبة إلى سليم فقد أخذ يفرغ الزجاجة تلو الأخرى ولم ينقض منتصف الليل بقليل حتى كان يشخر في كرسيه.

ضحك عليٌّ الحداد عالياً وصاح: «إنه لم يتكلم بعد لكنه بالتأكيد لا يزال قادراً ـ كعادته ـ على الشخير مثل الضبع».

ضحك الآخرون، «والله وكأنه منشرة خشب» أضاف يونس القهوجي.

قام فارس الذي أمضى الأمسية على كأس واحدة من البيرة يرتشفه ببطء بغمز الحلاق الذي تثاءب بشكل مسموع وكأنه ينتظر إشارته وقال: «فلنمض إلى بيوتنا لقد تأخر الوقت».

«وسليم؟ ماذا عن صديقي سليم؟» زأر عليّ بغضب.

قال الوزير: «لا تقلق بشأن صديقك، سيكون بخير وسيقضي ليلته عندي».

كان الوقت قد تأخر جداً حين غادر الرجال الستة حديقة مضيفهم الفسيحة والأنيقة. كان سليم يشخر عالياً في تخت غرفة الضيوف الكبير. وبدا الشخير وكأنه صوت خروف يصارع أمواجاً هائجة مرغية ومزبدة لبحر البيرة التي سقط فيه.

كان فارس متجهم الوجه حين دخل شقة موسى بعيد الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. قال له: «سيغمى عليّ إن لم تسعفني ببعض القهوة».

أسرع موسى باتجاه ابنته الصغرى في المطبخ طالباً منها إعداد ركوة قهوة ثقيلة وهرول عائداً إلى الوزير العجوز القلق.

«لقد أمضيت الليل كله وأنا أربض قرب سريره. كان يشخر بقوة وحين همست له: سليم، سليم، هل أعدّ لك بعض القهوة؟ سليم، هل أنت نائم؟ لم يجب بكلمة. ثمّ حاولت إخافته كما اتفقنا، فأشعلت الضوء فجأة وصرخت بأعلى صوتي، انهض! أنت مُعتقل! انتفض مرتعبا، لكنه ما لبث أن ابتسم لي وعاد للنوم ثانية. كنت أغلي من الغضب. لمَاذا ابتسم؟ هل كشف لعبتي؟ كنت مرهقاً وأحاول جاهداً البقاء صاحياً، كنت منهكاً من التعب ورغم ذلك حاولت البقاء صاحياً، وحتى الفجر تحملت هذا الوضع الشاق ثمّ غلبني النعاس على الكرسيّ. ومن جراء ذلك صارت رقبتي متصلّبة مثل لوح خشب. لكن الأمر ما كان على هذا السوء لو أنه لم يقم بالتبول».

«التبول؟ تعني بجد التبول؟» ردد موسى مذهولاً لكنه لم يتمكن من خنق قهقهته فأضاف: «بال في السرير، أليس كذلك؟».

«لو قام بهذا لما كان الأمر مأسوياً كثيراً. لا، كنت أغطّ في النوم،أحلم بجدول حين سمعت فجأة صوت خرير مياه. فتحت عينيّ ورأيت سليم واقفاً هناك عند الزاوية يتبول داخل حوض شجرة الكاوتشوك الكبير التي تزين غرفة الضيوف، اشرح هذا الآن لزوجتي! إنها تعتني بالشجرة وتدللها منذ سنوات عدة».

شرب الرجلان قهوتهما وهما غارقان في أفكارهما، ثمَّ سارا عشية ذاك اليوم ببطء باتجاه بيت سليم. شعرا بالخزي بعض الشيء حين دخلا الغرفة الصغيرة. كان سليم مبتهجاً لكن ليس إلى درجة يبتهجان معه، شربوا الشاي على مهل وانتظروا وصول باقي الشلّة. كان آخرهم علي الحداد، الذي بدا شاحب الوجه وأخذ يوبّخ الوزير لأنه أغراه بشرب البيرة الألمانية. أجاب الوزير معتذراً بكل لطف بأنه لم يقصد سوى الخير.

«ولِمَ قمت بإخافة سليم في منتصف الليل؟» سأل يونس فارساً.

أصاب سؤال القهوجي فارس بدهشة شلت لسانه، ولما شعر يونس بذلك أردف موضحاً: «لقد أومأ لي سليم أي هراء قمت به في الليل».

رمق الوزير سليماً لكن الأخير ابتسم بهدوء وهزَّ رأسه موافقاً.

قال الحلاق محاولاً إنقاذ صديقه المتآمر: «أجل، كانت هذه خطتنا. لقد فكرنا أن الجنية قد أرعبت سليم إلى درجة عقد معه لسانه. أمي، رحمها الله، ويرحم جميع أمواتكم ـ اعتادت أن تقول لا يفكّ الرعب سوى رعب آخر. أردنا أن نحلّ عقدة لسانه بفعل صدمة قويّة. ذات يوم كان عندنا جارة شابّة وجميلة، مات زوجها فجأة. كان حزن الأرملة شديداً إلى درجة كانت تذهب كل يوم إلى المقبرة وتركع عند قبر زوجها لتخبره بأحداث يومها، ماذا اشترت وماذا طبخت ذاك اليوم. ذهبت بعد ظهر يوم إلى المقبرة ولأنها كانت منهكة من أعمال المنزل الكثيرة سرعان ما سقطت غافية في ظل الشجرة القريبة من القبر. حين أفاقت كان الظلام حالكاً والسكون موحشاً، أصاب المرأة ذعر شديد وأرادت الخروج بسرعة من المقبرة، فجأة تشبثت بها يدّ باردة، ثمَّ سمعت صوتاً أجشّا مروعاً يصيح: «إلى أين أنت ذاهبة؟» صاحت المرأة

وأخذت تركض كالمجنونة إلى أن وصلت بيتها. صدقوا أو لا تصدقوا، لقد أصبحت المرأة في تلك الليلة خرساء، واستحال نصف شعرها أبيض مثل الثلج وكأن سحراً ما أصابها. حاول ثلاثة أطباء طويلاً وبكل الوسائل شفاءها لكن بلا جدوى. لكنَّ أمي اقترحت في النهاية أن ما تحتاجه المرأة للشفاء هو رعب جديد ـ حينها ستصبح قادرة على الكلام ثانية. أقنعت الجيرة الأرملة بزيارة قبر زوجها في الليل لتخبره في سرّها ما حصل معها وتسأله أن يكافئ محبتها وإخلاصها له بكلمة وساطة إلى القديس توما وهو الوحيد القادر على شفائها. كان القديس توما، كما تعرفون، فضوليّاً جداً والناس الفضوليون هم أكثر الناس علماً بأسرار اللسان. ولذلك وما أن غربت الشمس حتّى ذهبت المرأة إلى المقبرة. كان قلبها يرتجف وهي تحدث زوجها في قرارة نفسها بما أوعزته الجيرة. فجأة صرخ صوت مرعب من أعماق القبر: «القديس توما؟ دعيني بسلام ولا تزعجيني بقديسك توما هذا. أنتِ تعلمين جيداً أنني لم أكن أحتمل الأناس الفضوليين حين كنت حياً. وهنا في السماء لا يزعجني أحد مثل هذا الفضولي توما دعيني بحق السماء أتمتع بموتي بسلام! إن لم ترغبي أن تتمتعي بحياتك فلتأتي وتلحقي بي في القبر!». عند هذه الكلمات ظهرت يد من بين التراب ولمست المرأة. صرخت الأرملة كالمجنونة وركضت بأقصى سرعتها. لقد شفيت وعادت لتحيا حياة سعيدة وقانعة».

حين أنهى الحلاق قصته أومأ الوزير برأسه موافقاً وكان في سرّه ممتناً بحديث هذا الحلاّق الكذاب.

«أنا أعلم ما يجب أن نفعل»، قال يونس القهوجي بحماسة، «إنه النبيذ، على صديقنا سليم أن يشرب النبيذ كي يفكّ عقدة لسانه، أنا

أعرف هذا من خلال تجربتي الطويلة في المقهى، فالخمر يفكّ عقدة اللسان، كم وكم أرهق آذاني لسان السكارى الذين شابهوا بصمتهم قبل شربهم حجارة الصحراء».

وكأن الاقتراح قدم من السماء وليس من الرجل الفاني يونس، ابتسم كل من الحلاق وفارس لبعضهما بعضاً: «هذا هو الحل!» صاحا معاً وكأنهما في جوقة.

ليلة بعد ليلة كان الشيوخ يهيمون من حانة إلى أخرى مقتنعين أن النبيذ هو ما يحتاجونه لفكّ عقدة لسان سليم، كانوا يعبّون الخمر حتى الفجر.

بدأ الجيران شيئاً فشيئاً يدمدمون حيال مشاوير الشيوخ الليلية. كانت فاطمة، زوجة الحداد، نشيطة بشكل خاص في تعزيز هذه الثرثرة. لم تعرف مبالغاتها أية حدود، تحولت الحانات العاديّة في مدينة دمشق القديمة إلى أماكن سريّة في الأحياء الحديثة من المدينة بضوء أحمر خافت، حيث ترقص نساء شابات عاريات تماماً. طبيعي أن فاطمة لم تنس أن تطلب من جاراتها أن يقسمن بألا يفشين السرّ أبداً. لكن ـ وهذه أيضاً من طبيعة الجيران في دمشق ـ ألسنتهم كالمناخل لا يمكنها الاحتفاظ بأي سر حتى ولو رغبوا بذلك، والإشاعات مخلوقات غريبة الأطوار، كلما نمت بألوان جديدة زاهية كلما خفتت ألوانها الأصلية.

في نهاية هذا العلاج غير المثمر، شعر سليم وكأن جوفه قد جف داخلياً كورقة خريف وأوجاع رأسه القديمة التي نسيها منذ أن توقف عن الشرب قد عاودته مرة ثانية لتنخر دماغه.

ثمّ اقترح الحلاق أن على سليم استنشاق سبعة عطور مختلفة، من

كل زجاجة عطر سبع نشقات. وأكد الحلاق حقيقة أن اللسان مرتبط بشكل وثيق بالأنف.

عند الزجاجة الأولى، استنشق سليم بسرور رائحة العطر المنعش، فقد صدف أنها كانت تحتوي عطره المفضل، ماء زهر النارنج، من الزجاجة الثانية عبقت رائحة القرنفل اللطيفة لكنه تنشقها بفتور سبع مرات أيضاً. مع الزجاجة الثالثة ـ ماء الورد ـ كان يقوم بواجبه فحسب، وبعد النشقة الخامسة من القارورة الرابعة التي احتوت روح أزهار الياسمين لم يطق سليم بعد الاستمرار. لكن أصدقاءه أجبروه على اجتياز التجربة العلمية بأكملها حتى زجاجة العطر السابعة. النتيجة كان مفادها أن الرجل العجوز كسب ألم رأس جديد ـ لكن ليس صوته.

سبعة قمصان وسبع سراويل جديدة لم تفعل شيئاً لتحرير لسان العربجي العجوز، كذلك كانت رحلة الحج المدهشة عبر مكاتب ثمانية عشر موظفاً في سبع وزارات. لسنوات طويلة حاول سليم جاهداً الحصول على راتب تقاعدي أو أية مساعدة لحوذي فقير لكن طلبه كان يُرفض دوماً. والآن؟ وكأن عجيبة وقعت. حمل عريضته إلى المكاتب الثمانية عشر، ومن دون أن يتفوه بكلمة واحدة ابتسم له الموظفون الثمانية عشر ومهروا أوراقه بأختامهم بخفة ورشاقة غير عاديتين. كان سليم أمياً ولم يستطع قراءة عريضته. لكن الشك بدأ ينهش صدره بعد أن وافق الموظف الثاني بختم جميل على ما أتى في العريضة، لكن الموظف الثالث بدد شكوكه عندما تمنى له وبصوت عال قضاء فترة تقاعد ممتعة.

في تلك الحقبة، لم يكن الموظفون في دمشق يختمون المعاملات بتلك السهولة وإن حدث ولا بد فبدون ابتسام، فالختم جزء من روح

الموظف ولذلك يشعر ابن الدولة بألم نفسي عندما يضغط الختم على الورق، مع أن ورقة نقدية أو ورقتين قد تخففان من حدّة هذا الألم. أما الابتسامات والأكثر من هذا الأمنيات الطيبة من أجل التقاعد التي ستدفعه الدولة ـ فإن هذا بعينه لهو معجزة حقيقية.

حسناً، ليس سهلاً أن تجد في دمشق معجزة يتّفق عليها كلّ السكان وهذا أحد الأشياء المميّزة لهذه المدينة العتيقة. عاشت دمشق آلاف العجائب ـ شهدت أنبياء حقيقيين وآخرين مزيفين، خيميائيين، سحرة وأكثر من هذا ـ لكن الدمشقيين أنفسهم لم يؤمنوا سوى بمعجزة حقيقية واحدة، ما باستطاعة واسطة جيدة تحقيقه في دائرة حكومية.

لقد مهّد الوزير الأسبق الطريق بعناية أمام سليم كي يتمكن من الحصول على موافقة منحه راتباً تقاعدياً، من دون أن ينبس الحوذي ببنت شفة. وسليم نفسه لم يصدّق عينيه حين سلمته السيدة الودودة في مصرف الدولة مئة وخمساً وسبعين ليرة، تأثر إلى درجة البكاء لكنه مع هذا لم يتمكن من التفوه بكلمة واحدة.

احتفل سليم وأصدقاؤه السبعة بفرحة أول راتب وزينت حبّات الفستق الحلبي المالحة الطاولة إلى جانب أكواب الشاي اليومية. تنعّم الوزير السابق بالمديح الذي أمطره به باقي الرجال. وحده توما المغترب ظل شارد النظرة مستغرقاً في تفكير عميق.

«ما بك؟» سأله الحلاق.

«لا شيء. غداً ـ غداً سأخبركم بفكرتي» همس توما باقتضاب. كان صوته متعباً وكأن أفكاره باتت حملاً ثقيلاً عليه.

لماذا فرح سليم باقتراح أدى إلى شجار بين أصدقائه؟

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً بقليل حين غادر الرجال العجائز السبعة غرفة العربجي متوجهين إلى بيوتهم. كانت ساحة الدار التي يقطنها سليم مملوءة في تلك الساعة من الليل بالجيران الذين جلسوا في أرض الديار الفسيحة ضمن مجموعات صغيرة يتنعّمون بأمسية من أمسيات أيلول العليلة. كان بعض الرجال يلعبون الورق بجوار شجرة الرمّان وفي الجهة الأخرى تجمهر آخرون حول طاولة الزهر فيما تحلقت بعض النسوة قرب باب غرفة عفيفة.

حمل سليم الأكواب الفارغة وإبريق الشاي إلى المطبخ، قام بغسلها وأسرع إلى غرفته.

«عمي سليم، تعال وشاركنا الجلسة» نادته عفيفة بصوت تشوبه الشفقة.

«لا، عليه أن يأتي ويعلّم هذا المبتدئ كيف يلعب طاولة الزهر» أجاب أحد اللاعبين وهو رجل ممتلئ الجسم له صوت ناعم كالأطفال.

أجابه خصمه بعنف: «إنه الحظ لا أكثر. وهل تسمّي هذا لعباً؟ لو

ملكتُ واحدة من رمياتك لأسرعتَ راكضاً إلى زوجتك منذ زمن ـ لتبكي على كتفها».

توقف سليم للحظة، أومأ للاعبي الطاولة، ابتسم ثمَّ توجه نحو غرفته.

أطفأ المصباح واستلقى على الأريكة، لم يكن يشعر بالنعاس.

لم يتمكن العربجي العجوز بعد من استيعاب الأمر، كيف تدبّر فارس، الوزير السابق أمر تقاعده، هذه القضية الميؤوس منها. أخرج محفظته، تحسس الأوراق النقدية، تنشقها برضا ثمَّ أعادها ثانية إلى جيبه.

لأول مرة منذ عشرين عاماً سمح لنفسه بأن يشتري الشاي السيلاني الأصلي الغالي الثمن ليكرم أصدقاءه به. أخذ يفكر بكل الفرص التي أضاعها في حياته نتيجة لفقره، فجأة تذكر زوجته الراحلة، وكم كانت ستسعد لو رأته الآن يمشي مرفوع الرأس بمحفظته المكتظة بالليرات.

«تعالي يا غزالتي واشربي الشاي السيلاني الأصلي الذي طالما تمنيتيه، و..». وتذكر الآن الأشياء التي كان يود شراءها لها، قطعة من قماش المخمل الأزرق طالما حلمت به سيدة. أجل، وحنّة ليديها ـ كيف له أن ينسى وحبيبة قلبه تمنت ذلك؟ سنة بعد سنة، كان يحمل أوراقه إلى الموظفين لكنه كان يعود دوماً إلى بيته خاوي اليدين. كانت زوجته، على أية حال، تشجعه دوماً على أن يطلب ثانية من الأسقف، وحتى من ابن عم سائق وزير العمل رسالة توصية أخرى قد تفيده في الحصول على معاش تقاعد. أقسمت بأنه حالما يستلم راتبه التقاعدي سوف تصبغ يديها بالحنّة وتقفز فرحاً مثل عروس شابة وترقص ثلاث مرات حول البحرة في أرض الديار. ابتسم سليم على أريكته بمرارة.

في البعيد، كان أحدهم يدير المذياع بصوت عال. كان سليم واثقاً أنه محمود الجزار، الأعزب الذي يستمع بهذه الحماسة لأغاني المطربة المصرية أم كلثوم. وكأنه يريد إشراك سكان ثلاث حارات في لذة الاستماع لمطربته المفضلة.

في أمسية كل خميس، كان راديو القاهرة يذيع أغاني أم كلثوم في ساعات الليل الأولى. كان الجزار متيّماً بصوتها إلى درجة أنه كان يبكي أحياناً ويرقص في غرفته الصغيرة، وشريكه الوحيد آنذاك هو وسادة يعصرها بين ذراعيه. لم يكن وحده من يعبد هذه المطربة، فقد أحبَّها ملايين العرب إلى درجة لم يجرؤ معها رئيس أية دولة بإلقاء أي خطاب في أمسية الخميس ـ لأنه كان يعلم علم الأكيد أن ليس هناك عربيّ واحد يستمع إليه ـ.

تدفق صوت المطربة من غرفة الجزار مثل موجة نهر عالية عابراً فناء بيت الجيران الصغير، قافزاً فوق برج الحمام متجاوزاً الممر الطافح بأحواض الورود والنباتات المتعرشة ليجتاز أخيراً الجدار الفاصل ويصب كشلال داخل فناء البيت الذي يسكن سليم إحدى غرفه محافظاً على وجهته بين موجات الأصوات الباقية المتلاطمة في حوض الدار شاقاً طريقه بإصرار إلى أن انصب أخيراً في أذن العربجي وكأنها المحيط، هدف كل نهر.

كان سليم طيلة عمره مستمعاً مرهف الحس يجيد الصمت والإصغاء لكن الصمت الدائم لم يلائمه. لكنه وبالرغم من ذلك اكتشف الآن في سكون روحه أن لكل صوت مذاقه الفريد. أصبح لأذنه ذوقاً سحرياً. طار من صوت لآخر مثل فراشة. كان لأغنية أم كلثوم جمال حديقة قرنفل مزروعة بعناية حيث لا يمكن لشوكة أن تندس فيها.

مكث سليم بعض الشيء في حديقة المطربة الغنّاء، ثمَّ انجرف بعيداً بفعل براعم الأصوات المألوفة. لكن ضجة مفاجئة جعلته يصيخ السمع باتجاه ثرثرة هامسة مبهرّة بعض الشيء. ابتسم سليم، جارته عفيفة تبالغ مرة أخرى وهذه إحدى عاداتها في تضخيم الأشياء فأي تجشؤ أو ريح بطن عادي يتحول عبر حديثها إلى مرض لا شفاء منه. كانت عفيفة تهمس برقة متملقة لمستمعاتها كي يصدقن بأن ما تقوله خطير وكأنه قضية تخصّ الأمن الوطني.

فجأة تناهى إليه صوت امرأة عجوز مثقل بهموم وخوف «فليحمنا الربّ إن كان صحيحاً ما تنقله الأخبار عن تفشي وباء الكوليرا في الشمال».

تجمدً سليم. كوليرا؟ إذاً الأمر صحيح! كانت الأخبار قد وصلته في ذاك اليوم، بالتحديد من الإذاعة البريطانية، لكنَّ وكالة الأنباء المحلية نفت كل التقارير «كل الإشاعات عن تفشي وباء الكوليرا مُغرضة لا أساس لها من الصحة، وكل من ينشر مثل هذه الإشاعاتً عميل أجنبي».

«من أخبرك بهذا؟» أرادت عفيفة معرفة مصدر الخبر وهو ما يهمها أكثر من وباء الكوليرا نفسه.

أجابت المرأة العجوز: «لا أعلم، سمعت بالصدفة أن مشافي حلب تعج بالمرضى». تبيّن سليم عبر تذوق صوتها حرصها على معلوماتها بحذر على الرغم من كذبتها التي صدّقتها الجارات بمن فيهن عفيفة. كان واثقاً من معرفتها الأكيدة للمصدر، لكن تواجد الكثير من الضيوف الغرباء الذين يلعبون طاولة الزهر مع جارهم طانيوس بالإضافة إلى شخصين آخرين انضما إلى لعبة الورق عند جارهم الياس، كان كافياً

لوحده أن يجعلها حذرة حيال أية جملة تنطقها. فقد تداول الناس فيما بينهم أن الشيء الوحيد الذي تحسن عبر الاتحاد مع مصر بقيادة عبدالناصر هو الشرطة السريّة الجديدة والمتطورة. لم يعد يطلق عليها اسمها المتواضع «المكتب الثاني» بل دُعيت في بعض الأحيان «المخابرات» وفي بعضها الآخر «المباحث» وأياً كان اسمها ولقبها فلقد زرع هذا الجهاز البوليسي الرعب في قلوب السوريين إلى درجة أن الآباء والأمهات لم يعودوا واثقين حتى من أبنائهم وبات الجيران يعيشون في حالة شك دائم بالآخرين.

حاول سليم تصوّر تعابير وجه المتكلمة مقارنة مع نبرة صوتها. بدأ يقف بين الفينة والأخرى وينظر عبر نافذته إلى الفناء ليطابق بينهما، لكن قصر نظره لم يناسب حدّة سمعه، كلّ ما رآه كان أشكالاً ضبابية لا أكثر.

عندما وصل صوت أحد لاعبي الورق إلى أذني سليم حاول العربجي أن يتذوق الكلمات الفظة ليعرف مدى جديتها. كان الرجل ثائرا وهدّد برمي أوراقه ومغادرته المنزل. رغم غضب الصوت الواضح تبين لسليم أن التهديد فارغ طنان كالطبل. حاول بقية اللاعبين أن يهدئوا من خاطر الرجل مؤكدين له بأن أياً منهم لم يقم باختلاس النظر إلى الورقة التي في يده. حتى عفيفة وضيفاتها تهامسن أن الرجل كان معروفاً بمزاجه المتقلب والحاد. هذا وتضرعت عفيفة هامسة برياء أن تحمي العذراء الأمسية من عواقب غضب الرجل. لكن كلما حاول اللاعبون تهدئة الرجل كلما ازداد غضبه. أخيراً قام أحد الرجال المتهمين بالتلصص بأخذ التهديد على محمل الجدّ، فرمى أوراقه أرضاً وقال بصوت هادئ لكنه ناري: «حسناً! فلتذهب! على أية حال أنت لست سوى لاعب مبتدئ لا يتحمل الخسارة. نحن نلعب لنمرح مع بعضنا لا

أكثر، ألا تفهم؟» قال كلماته بهدوء شديد لكنها صمّت الآذان كلها مثل سهم ناري. سرعان ما أخذ اللاعب الذي بدأ الشجار بالاعتذار مدمدماً. ابتسم سليم ابتسامة رضا عن صحة تكهناته.

ظلّ سليم ساهراً طوال الليل، جالساً على أريكته حتّى بعد أن غادر ضيوف جيرانه البيت.

كانت الأصوات الأخيرة التي التقطها في ساعات الصباح الأولى قبل أن يستدير جانباً ويسقط نائماً هي صرصرة جرادة تحت شجرة الرمان وبعض الهمسات الرقيقة القادمة من غرفة نوم عفيفة.

كان توما المغترب أول من ظهر ذاك المساء. أخذ يذرع غرفة سليم جيئة وذهاباً متسائلاً عن سبب تأخر البقية. جلس بعض الشيء ثمَّ نهض فاقد الصبر وبدأ من جديد ينظر عبر النافذة وكأنه يأمل أن يأتي منها الفرج. كانت الساعة قد حلّت الثامنة حين وصل الجميع.

قال المغترب «لقد مضى زمن طويل منذ أن قام سليم برحلته الأخيرة إنه توق روحه لأماكن غريبة ـ وهذا بالضبط سبب خرسه ـ». توقف توما هنيهة، سحب نفساً عميقاً من نارجيلته وأعطى خرطومها لجاره فارس.

«اوكي» كان حديث توما حافلاً بالتعابير الأميركية منذ أيامه في الولايات المتحدة» كلنا نعلم أنه وُلد عربجياً! وهل يخلد العربجي للراحة حتى ولو وصل إلى نهاية رحلته، حتى ولو كان ذلك أجمل واحة في العالم؟ بالطبع لا، لأنه ما أن ينقطع عن الترحال حتى يفقد صنعته كحوذي. هذا الانقطاع عن السفر والتجوال في أركان المعمورة سبَّبا المرض لصديقنا».

عند هذه الكلمات هز سليم رأسه متأملاً.

«يجب أن يقطع سليم سبعة جبال ويعبر سبعة وديان وسبعة سهول. عليه أن ينام تحت سبع سماوات في سبع مدن غريبة وسوف ترون حينها أنه سيجد كلماته الضائعة».

تحمس الوزير السابق للفكرة حتى إنه عرض أن يغطي كل تكاليفها، فيما عرض توما ومهدي تقديم خدماتهما كدليلين ومرافقين سياحيّين.

لأيام طاف الأصدقاء دمشق إلى أن حصلوا على عربة قديمة. ازدادت آمالهم حين شاهدوا سليماً بعينيه المتألقتين وثيابه الفاخرة الجديدة، قافزاً إليها وضارباً بحرفية سوطه في الهواء ليفرقع كما في أيام زمان. كان العربجية الأشرار وحدهم الذين يضربون أحصنتهم فعلياً ـ أما العربجي الجيد فإنه يلوح بسوطه مفرقعاً الهواء به ليلمح لأحصنته ما الذي توفره في حال إطاعتها لأمره. هرولت الأحصنة خبباً، فيما بكى بعض الجيران ما إن لوحوا له بتحية الوداع.

قاد سليم عربته ومرافقيه إلى مدن سبع وفوق سبعة جبال، عبر سبعة سهول ووديان. دامت رحلته أربعين يوماً، عاد منها مرهقاً وبأعصاب متوترة لكنه مع هذا ظلَّ غير قادر على الكلام. كان على توما أن يصغي رغماً عنه لنقد وشكاوى الآخرين حيال الوقت الثمين الضائع بفعل اقتراحه هذا.

ثمَّ جاء دور المعالجين الطبيعيين ـ من كل الأشكال والأصناف وصولاً إلى أم خليل القابلة المتمرسة. وصفوا للعربجي شراب ومراهم من خلاصة أعشاب وجذور برية بطعم كريه يثير الاشمئزاز.. كان سليم يزداد شحوباً يوماً بعد يوم، لكنه ظلَّ غير قادر على الكلام. كانت المياه المقدسة الكاثوليكية غير فعالة مثل منافستها العائدة لطائفة الروم

الأرثوذكس، كذلك لم ينفع رمل مكّة ولا تراب بيت لحم لتحرير لسانه من عقدته.

«لم يتبق سوى ثمانية أيام»، قال الوزير السابق بقلق شديد إلى درجة أرعبت كلماته المجموعة كلها ذاك المساء. جلسوا صامتين في حلقتهم وكأن جنيّاتهم قد قمن كذلك بعقد ألسنتهم. دقّت الساعة الثانية عشرة ليلاً، لكن، وعلى الرغم من تأخر الوقت إلا أن الأصدقاء لم يشعروا بشيء من التعب. «لقد وجدتها» صاح الأستاذ عالياً صافقاً ركبتيه بقوة «أنا واثق من هذا. الأمر واضح كضوء النهار والحل يقبع أمام أنفنا ونحن لا نراه». تحدّث عالياً محاولاً بث البهجة والشجاعة في نفسه بعد كل تلك الخيبات. «إنها سبع قصص ـ على سليم العجوز أن يستمع إلى سبع قصص لاستعادة صوته».

كان موسى الحلاق متحمساً في الحال، لكن ليس عليّ الصموت. وبينما لم يفلح كلٌ من توما وعصام في إيجاد أية ميزة إيجابية مشجعة في هذا الاقتراح، اقتنع يونس به سريعاً. وحده الوزير بقي رافضاً الإدلاء برأيه سريعاً.

«كلام، كلام، كلام، هذا كل ما يستطيعه المعلمون والحلاقون! حسناً بهذا تكسبون عيشكم، لكنكم لا تشفون أخرس» قالها عصام بسخط إزداد ثقله من كلمة لأخرى.

تمتم علي: «ليس بمقدرتي أن أحكي حكاية واحدة، ولا أظن أن هذا العلاك المصدي سيساعد في شفاء سليم».

تشاحن الأصدقاء فيما بينهم إلى وقت طويل، وما أن شارف الفجر على البزوغ حتى قرر فارس التدخل فلقد ثقل همه بشأن صوت العربجي العجوز من يوم لآخر. قام وبكلمات مختارة بتهدئة كل من المغترب

وعصام، حتى علي نفسه وافق ـ لأن فارس أقنعه بتعذر إيجاد أي حل آخر ـ قال: «حسناً فلنباشر بالأمر، إن كان هذا طلب المسكين سليم فأنا لن أقف عقبة في طريقه».

وكانت تلك حقاً رغبة سليم.

سأل الحلاق: «من سيبدأ؟» وسرعان ما عاود الأصدقاء المتصالحون حديثاً الشجار ثانية. لم يرغب أيٌّ منهم أن يكون أول حكواتي في الليالي القادمة.

صاح عصام: «حسناً، كنا في زنزانة السجن نترك الورق وحده يقرر من البادئ عندما كان العمل المفروض مقرفاً»، نظر ناحية سليم وسأله: «هل لديك ورق شدّة؟» أومأ سليم رأسه ثمَّ وقف وأحضر مجموعة من أوراق اللعب القديمة المتجعدة.

قال عصام بهدوء: «انظروا الآن، في يدي ست ورقات وسوف أضع الورقة السابعة، الأس، بينها وأخلطها جيداً، من يقوم بسحب الأس يباشر بسرد القصة. موافقون؟».

أومأ الجميع برؤوسهم صامتين، وحده الحلاق من تكلم حاثاً عصام على خلط الأوراق جيداً.

وضع عصام الأوراق بعد خلطها على الطاولة الصغيرة وبما أن المغترب كان أكبرهم سناً فقد سُمح له بالبدء. سحب ورقة الشاب فيما سحب القهوجي ورقة الاثنين والحلاق ملكاً، ثمَّ سحب المعلم ورقة، نظر إليها خلسة ثم نقفها في الهواء والتقطها بسرور، كانت أس ديناري. تنفس كل من عصام والوزير السابق والحداد الصعداء.

مال سليم على جنبه ضاحكاً بصمت مما دفع الحلاق للشك ثانية إن كان العربجي العجوز أخرس حقاً أم أنه يقوم بخداعهم بمكر.

لِمَ وافق الرجل
على أسر صوته
وكيف حرره آخر الأمر؟

قام مهدي، الرجل الطويل والنحيل بتدريس مادة الجغرافيا طيلة خمسة وثلاثين عاماً. لم يكن بوسعه تقديم رقم دقيق عن عدد الطلاب الذين تعرّفوا عبره على مدن وأنهار وجبال العالم، لكنه كان فخوراً أنَّ من بين طلابه القدامى من أصبح مدير مصرف وجنرالاً وكذلك عدة أطباء. كان يحظى في أحياء دمشق القديمة باحترام خاص ويختال متفاخراً به ـ والنتيجة أن العديد من الناس كانوا يتجنبونه رغم احترامهم له. لأنه كان يصعب النقاش لا بل الحديث معه عموماً، وأن يبقى محدثه شريكاً مساوياً له. حتى ولو بدأ الحديث عن الطقس أو ارتفاع الأسعار الأخير أو حتى عن وباء الكوليرا فإنه عاجلاً أم آجلاً ما سيؤول ثانية إلى الجغرافيا ـ وإلى جهل محدثه. بغموض متعمد قال مهدي يوماً لجار له: «إن لم تعرف تماماً مدى ارتفاع جبال الهملايا، فكيف يمكنك أن تقدّر مدى الانبطاح الذي نعيشه هنا؟». منذ ذاك اليوم أخذ الثرثارون في الشارع حيث يسكن بإعطائه لقب «السيد هملايا». كان مهدي يستغني عن حديثه الجغرافيّ فقط عند العربجي سليم بين أصدقائه السبعة.

في تلك الأمسية من شهر تشرين الثاني احتشدت الغيوم فوق دمشق. أمطرت لنصف ساعة فقط، لكن رائحة الأرض المنعشة سرعان ما لفّت الشوارع والناس معاً. كان الهواء بارداً كالثلج. عدّل مهدي وشاحه ما أن خطا إلى خارج منزله، حيّاً الإسكافي الأرمني الجالس وراء ماكينة الخياطة الضخمة. حدّق الرجل بوجه متجهم من فوق إطار نظارته المنخفضة، رافعاً إصبعيه الوسطى والسبابة إلى الأعلى ملمحاً لمهدي بأن الحذاء الجديد سيكون جاهزاً في غضون يومين.

«هذا جيد» همس مهدي وتابع طريقه.

«متى ابتسم الاسكافي آخر مرة؟» سأل نفسه لكنه لم يعرف الإجابة.

اندفع رتل من المركبات العسكرية عبر الساحة مقابل باب توما، ثم انحرفت باتجاه الشرق. ضحك الأطفال مبتهجين بفعل تناثر الرذاذ الموحل من حفر الشوارع الكثيرة. «دك البارودة ويللا عالحرب!» أخذوا يصيحون بمرح نحو الجنود المكوّمين داخل الشاحنات، والذين كانوا يحدقون بوجوه ملؤها القلق وساهين تماماً عن تهليل الأطفال وهتافهم.

في ربيع تلك السنة هبّت ثورة في مدينة الموصل العراقية وانتهت بإراقة الكثير من الدماء. اتهمت الحكومة العراقية جمال عبدالناصر بتمويل وتحريض المتمردين. لم تكن الأمور تسير بشكل حسن بين البلدين، كان الرئيس العراقي عبدالكريم قاسم الذي نادت به إذاعة دمشق على أنه بطل ثورة تموز العراقية التي أطاحت بالملك قبل سنة، قد سقط فجأة في العار من دون أدنى شرح لم وكيف ولماذا نودي به كبطل الأمة العربية ولا كيف أصبح بين ليلة وضحاها عدو هذه الأمة. منذ أحداث الموصل أخذت محطات الإذاعة في دمشق والقاهرة بوصفه

بالجزار و«سفاح بغداد»، ولم تضنّ الإذاعة على آذان المستمعين بأكثر الأغنيات ابتذالاً: «أللهم، اللهم إبعث للمهداوي حمّى!» ردد مغنٍ بلا اسم شاتماً فاضل المهداوي قاضي المحكمة العسكرية في بغداد وابن خالة الزعيم عبدالكريم قاسم. بدأت تقارير عن المجاعة والثورات وتفشي الكوليرا في العراق تملأ الأجواء بشكل يومي لكن من دون ذكر خبر أي اعتقالات أو قلاقل في سوريا. أطلقت إشاعة أن مجموعة من الضباط السوريين الشباب قد تمردت على الحكومة في شمال شرقي البلاد حيث تداولت الإشاعات بأنهم احتلوا عدة مواقع عسكرية مهمة بدعم من السلطات العراقية. كان راديو دمشق يصدر بيانات تؤكد الهدوء واستتباب الأمن في شرق البلاد على طول الحدود العراقية، لكن الأستاذ المتقاعد مهدي لم يصدق كلمات المذيع المطمئنة. اعتادت الحكومات السورية كلها ومن دون أي استثناء تأكيد سيطرة الهدوء والأمن والنظام حتى اليوم الأخير قبل سقوطها. انتاب مهدي إحساس مرير. أي زمن هذا؟ البارحة تمدح الحكومة دكتاتوراً في البلد المجاور كشقيق وبطل ثمّ تلعنه اليوم كعدو وخائن رعديد من دون أن تهتم برأي شعبي الدولتين، بالرغم من أنهما سيضحيان بأولادهما، في حال نشوب الحرب.

ألقى مهدي نظرة سريعة على كتيبة الجنود، كانت وجوه الجنود اليافعين لامعة ونظيفة في الخارج لكنها بدت في الداخل مشحونة كبنادقهم.

ذاك اليوم، غادر مهدي منزله الواقع قرب المستشفى الفرنسي أبكر من المعتاد. كان الحنين يغالبه لرؤية بيت طفولته في جادة البكري، لم

يستغرق وقتاً طويلاً للوصول إليه. ما أن لمح مهدي البيت الذي لم تطأه قدماه منذ أكثر من أربعين عاماً حتى ملأته الدهشة من حجم الباب الصغير نسبياً والذي بدا له كبوابة ضخمة أثناء طفولته. تسارعت دقات قلبه، كان باب الدار موارباً بعض الشيء وغير موصد على شاكلة بيوت دمشق العتيقة، دفعه برفق ليدخل، لكنه سرعان ما استقبل برائحة الغسيل وزيت المازوت القادمة من أرض الديار لإلقاء التحية عليه.

أسرعت نحوه بنت صغيرة حافية القدمين. ابتسم مهدي وسألها: «ما اسمك، يا صغيرة؟».

«ابتسام» أجابت البنت. سمع مهدي قعقعة القبقاب الخشب، وظهرت امرأة بدينة خارجة من الغرفة التي استخدمها أهله فيما مضى كغرفة نوم. ابتسمت ما إن رأت مهدي وتلعثمت قائلة: «إنها المرة الثالثة التي تهرب مني هذا اليوم! يشهد لي الله أن الشيطان نفسه يفضّل أن يصوم ويصلي ويحجّ من أن يغسل هؤلاء الأولاد. إنهم ستة وكل واحد منهم يهرب مثل الزئبق! وعندما تحاول إمساكه لا تقبض سوى على الهواء!». توقفت المرأة، أحكمت قبضتها على كتف ابنتها «تفضل! هل أحضر لك شيئاً؟» دعت مهدي للدخول.

«لا، أشكرك، أردت أن ألقي نظرة لا أكثر. لقد وُلِدت في هذا البيت. عائلتي سكنت منذ أجيال في هذا المنزل وجدّي سكن هنا أيضاً. محمد رياض الكريم ـ اسمه منقوش على اللوحة الرخام فوق باب البيت ـ إنه اسم جدي» قال مهدي بشيء من الخجل.

«أحقاً هذا! وهل كانت المياه تصل إلى الطابق الثاني في تلك الأيام؟» ومن دون أن تنتظر إجابته، تابعت المرأة حديثها: «منذ سنة بدأ

ضغط المياه يقل فلم تعد تصل إلا للطابق الأرضي، لذا اضطر الجيران في الأعلى إلى جلب المياه من عندنا، وفي كل يوم سبت تقوم مشاجرات كثيرة بما أنه يوم الاستحمام».

«لا، كان عندنا مياه كافية تلك الأيام. كم عدد العائلات القاطنة هنا الآن؟».

«ثلاث عائلات في الطابق العلوي واثنتان في الأرضي بالإضافة إلى طالب جامعي واحد لكنه لا يحتاج إلى الكثير من المياه لأنه يتحمم ويغسل ثيابه دوماً في بيت أهله في عطلة نهاية الأسبوع، إنه من بلدة داريا. هو شاب لطيف جداً، وابنتنا الصغيرة ابتسام تحب دوماً النوم في فراشه. إنه يحب الأطفال لكنّي دوماً أطلب منهم أن يتركوا الشاب المجتهد وشأنه لينال قسطاً من الراحة. وأنت ستشفق عليه لو رأيت تلك الكتب الضخمة التي يقرأها طوال لياليه» أوضحت المرأة ضخامة المجلدات بيديها.

نظر مهدي ناحية الغرفة الصغيرة بجوار الدرج: «من يعيش هنا؟».

«تلك الداكونة؟ أستاذي العزيز، بسلامة نظرك! أتظن أن في مقدور إنسان أن يسكن في هذا الجحر؟ إنها بالكاد تتسع لثلاث مدافئ في الصيف ودراجتين في الشتاء. انظر بنفسك إليها!».

بدت دهشة مهدي واضحة حين حدّق داخل الغرفة الصغيرة. رمى تحية الوداع بهدوء وغادر. وبالرغم من أن زوجته طلبت منه شراء سمك من عند بطبوطة، قرب جادة بكري لغداء اليوم التالي - إلا انه قد نسي أمره تماماً. كان بطبوطة السمّاك يصيح بصوت عال إلى درجة يصل صوته معها إلى تركيا «سللور.. سمك السللور...»، لكن مهدي

تجاوز دكانه بسرعة، حتّى رائحة السمك اللاذعة لم تتمكن من انتزاعه من أفكاره.

كان ستة من الأصدقاء قد اجتمعوا في بيت سليم حين فتح مهدي باب غرفة الحوذي ودخل. لم يعتد أحدهم أن يقرع الباب، كان عصام مقرفصاً عند الزاوية قبالة مدفأة الحطب ينفخ على الجمر لإشعال الحطب فوقه. كانت رائحة الغرفة محببة لمهدي كرائحة الراتنج المحروق. أغلق الباب وراءه في اللحظة ذاتها التي صاح فيها عصام: «أخيراً!»، تراقصت شعلة نار صغيرة متوهجة من قلب كومة الحطب.

«لقد انقطعت أنفاسي، كانت نفخة واحدة مني في شبابي تكفي لشواء خروف بأكمله حتى يصبح مقرمشاً»، تنهد عصام وأخذ يسعل.

«مساء الخير» صافح مهدي الجميع وفرك يديه سعيداً برائحة الشاي المعطّر.

كان الوزير السابق أول من لاحظ أن مهدي يرتدي بدلته البنية مع قميص أبيض وشال بني حرير.

«هل كنت في عرس؟» تساءل مازحاً ثمَّ نهض واقفاً مثل البقية مصافحاً صديقه.

«حسناً، أنا جاهز كي أبدأ» قال مهدي بعد برهة ما أن أخذ جرعة كبيرة من كأس الشاي وكأنه يجهز حباله الصوتية للمهمة الكبيرة الملقاة على عاتقها. كانت كلمة حسناً ماركة الأستاذ مهدي منذ شبابه. وكأنها من فوائض ما ينتجه لسانه تندس أينما سنحت لها الفرصة في مطلع جمله التي يبدأ بها سيرة أو مقطعاً من سيرة.

«حسناً، والآن افتحوا آذانكم وقلوبكم. فليمنحكم الرب الصحة والحياة الطويلة إن أعرتموني انتباهكم لما سأقول» بدأ المعلم حديثه.

«لحظة واحدة، أرجوك» توسل المغترب توما وأخرج نظارته من حقيبته الجلدية ليضعها على عينيه. علت الابتسامات العريضة وجوه الأصدقاء لأن توما دائماً ما يصرّ على تثبيت نظارته كلما أراد الاستماع لقصصهم «أوكي، يمكنني الآن الإصغاء جيداً لما ستقول». أضاف توما مبتسماً برضا.

قال مهدي: «أنا لا أفهم حاجتك للنظارة مطلقاً. اعتاد سقراط القول إن كان أحد طلابه جالساً صامتاً لا يدلي برأيه: «تكلم، كي أتمكن من رؤيتك، وأنت تحتاج لنظارتك وكأنك تريد الاستماع لي بعينيك؟».

«طيب يا رجل، ابدأ» تأوه توما.

«حسناً، قبل أن أبدأ، أحب أن أعترف لكم يا أصدقائي الأعزاء السبب الذي جعلني أحب سرد القصص. أحببت سردها لأن قصة سمعتها وأنا صغير قد سحرتني كلية. دعوني أخبركم أولاً كيف وصلت إلى مسامعي هذه القصة الغريبة.

«كنت ولداً صغيراً حين أحضر أبي، رحمه الله، ذات يوم أجيره الجديد ليسكن لدينا. كان أبي نجاراً وكان صانعه الشاب فقيراً وليس له مأوى في دمشق، لذا قمنا بتنظيف هذه الغرفة الصغيرة قرب الدرج وبدأ شفق، وهذا اسمه، بالعيش في ما يسميه الناس في دمشق «داكونة». كانت هذه الغرفة تبدو لي في طفولتي واسعة بما يكفي لكنها في الواقع كانت صغيرة إلى درجة لا تتسع معها لأكثر من ثلاث مدافئ.

على أية حال ما زلت أتذكر شفق وما زلت حتى اليوم أرى وجهه تماماً ـ المغطى كلياً بالجدوش ـ بالرغم من أنني لا يمكنني تقدير عمره. كان حين يعود إلى منزلنا كلّ مساء، يغتسل، يتناول طعامه، ويشرب

كأس الشاي ثمَّ يجلس على كرسي صغير أمام غرفته، يدخّن ويحدّق في السماء. كان بوسعه الجلوس لساعات طويلة يحدّق بالنجوم ساكناً. وحين تكون السماء ملبّدة بالغيوم لأكثر من يوم وهذا نادراً ما يحدث في فصل الشتاء، كنت ألاحظ قلقه واضطرابه. كان ينسحب إلى داخل غرفته، ويظل صاحياً حتى وقت متأخر من الليل. وبما أن غرفتي كانت مواجهة لغرفته على الجانب الآخر من أرض الديار فقد كان في وسعي رؤية غرفته من سريري. كنت أراقبه كل ليلة، لم تكن غرفته منارة بالكهرباء بعد لذا كان يبقي مصباح الكاز مشتعلاً إلى وقت طويل. أحياناً كان يذرع غرفته جيئة وذهاباً، وكنت أحياناً أستيقظ من نومي بعد منتصف الليل لأذهب إلى المرحاض، وأجده لا يزال صاحياً في غرفته. على الرغم من أنه كان على شفق الاستيقاظ باكراً كل صباح. كان عمل النجارين آنذاك مرهقاً فوالدي مثلاً لم يفلح مرة واحدة في حياته، بالبقاء ساهراً إلى ما بعد الساعة العاشرة.

حسناً، لقد أحب والدي هذا العامل بشكل خاص - غالب الظن لأنه حصل على طلبية كبيرة في اليوم الذي بدأ شفق العمل لديه، «أنا أدين بهذا اليسر لشفق. إن وجهه مبارك بحق. ظلَّ والدي يردد هذه العبارة لسنوات كلما ورد اسم شفق في حديث ما.

كان شفق شديد الحياء ويتكلم دوماً بصوت هادئ. كان يطرق رأسه خجلاً كلما تحدثت إليه أمي أو أختي. كان أولاد الدار يسخرونِ من خجله ولولا خشيتهم من أبي، لكانوا قذفوه بالحجارة. أبي، على أية حال، أحب شفق كأنه ولد من أولاده.

حسناً، بالمختصر المفيد ولكي لا أطيل عليكم، فقد اقتنعت آنذاك

تماماً أن شفق كان ساحراً وبالرغم من كوني ولداً فضولياً إلا أنني لم أجرؤ على الدخول إلى غرفته. كنت أخافه بعض الشيء. ألحت عمتي على أمي واستحلفتها سراً بأن تبقينا نحن الأولاد في منأى عنه «ألم تري عينيه؟ لا لون لهما، وأسنانه؟ أعوذ بالله! ألم تر كيف اصطفت في فمه؟ صفان من الأسنان في الفك الأعلى وإثنان في الأسفل وكأنه أعوذ بالله سمك القرش» تمتمت عمتي والخوف قد تهدج صوتها.

«أجل، أجل» أجابتها أمي ضاحكة: «ليس ذلك فحسب بل لقد رأيت أصابع قدميه كذلك، إنها متصلة ببعضها بغشاء جلدي مثل أرجل البط».

حينها كانت عمتي تغضب فيما كان خوفي يزداد من شفق.

ذات يوم صيفي، كان جالساً على كرسيه الصغير كعادته يراقب السماء. ذهبت إليه وسألته فيما كان يحدق.

«نجمان مغرمان ببعضهما البعض يشعّ إحداهما مثل الألماس فيما لون الآخر أحمر ناري. يلاحق كل منهما الآخر، أحياناً يكون النجم الماسي في المقدمة وأحياناً يتقدمه الآخر. وإن صدف والتقيا معاً فسوف تسقط من السماء ألف لؤلؤة ولؤلؤة وحينها سيفتح محار البحار أفواهه لالتقاط اللآلئ، وإن تمكن أي إنسان من التقاط هذه اللحظة وبسط يده فسوف يتلقى لؤلؤة كذلك، لكن لن يسمح له بالاحتفاظ بها، عليه أن يرقص باسطاً ذراعيه ثلاث مرات حول نفسه ثمَّ ينقف اللؤلؤة ليعيدها إلى السماء ـ حينها سيسعد طيلة حياته.

سألته: «لكن لمَ يلاحق النجمان بعضهما ولماذا يصطدمان؟».

«إنها قصة طويلة» أجاب أجير أبي، «لكن كيف لي أن أخبرك بها؟ سوف أضيّع هذه اللحظة التي أنتظرها منذ سنين! مع هذا، إن وعدتني

بمراقبة السماء فيما أخبرك أنا عن الحب المذهل ووعدتني أن تقوم بإخباري حالما ترى النجمين وقد التقيا معاً كي أتمكن من بسط يدي لالتقاط اللؤلؤة في اللحظة المناسبة فسوف أحدثك عن قصة النجمين».

وعدت شفق بأنني سأواصل مراقبة النجوم، وهذه القصة التي أخبرني بها:

«حدثت هذه القصة في زمن مضى ولم يترك حتى غبارا كأثر. الله وحده الدائم. عاش في ذلك الوقت فلاح يملك صوتاً سحرياً. كان غناؤه يدفع مستمعيه للضحك والبكاء، وكلما روى قصصاً فإن الناس يسمعونه بشغف إلى درجة ينسون معها همومهم وأساهم. لكنه لم يكن معروفاً بصوته الجميل فقط، بل بيديه كذلك، كان بوسعه رسم الرياح والقوافل والزهور بإتقان يجعل الناس يرون ويتنشقون ويتذوقون كلماته.

كان الفلاح فقيراً معدماً، ومع هذا، فقد سحر صوته قلب أجمل شابة في القرية. وقعت سحر، وهذا اسمها، في حبه في اللقاء الأول بعد أن استمعت إلى قصصه ورمت أدراج الرياح كل عروض الزواج من الفلاحين الأثرياء الذين يطلبون ودّها. عرض تاجر طاعن في السن على والديها أن يقدم لهم وزنها ذهباً لكنها رفضته كذلك. «أُفضّل أن أتناول خبزاً يابساً وزيتوناً وأستمع لصوت حبيبي الفقير من أن أحشو فمي بلحم الغزال المشوي الذي يقدمه هذا التاجر وأفسد صباحي بزئيره ومسائي بشخيره». بارك والداها الطيبان لها وسرعان ما احتفلا بزواج سحر وحبيبها. نادراً ما يسعد الحظ إنساناً بتحقيق أمنيات قلبه..

احتمل الفلاح أعباء جسيمة كي يحسّن من وضعه المزري، لكنه وُلد منحوساً، كان يلاقي الفشل في كل ما يعمله، فإن لامست يداه ذهباً

تحول المعدن النبيل إلى تبن. ليحفظكم الرب من نحس كهذا! لكن الناس ظلوا رغم نكده يحسدونه على صوته.

قال له شيخ البلدة ومختارها ذات يوم: «سأكون سعيداً أن أقايض مزارعي كلها للحصول على صوتك».

فيما قال مزارع آخر: «لو منحني الرب فقط أحد حبال صوتك السحرية بدلاً من صوتي الخشن هذا، فإني أقسم بأن أعطيك قطيع الماشية كله».

حسناً، مرت السنوات وفي كل سنة كان الفلاح يزداد فقراً إلى أن أتى فصل صيف تعرض فيه محصول القمح لآفة زراعية، حينها لعن الفلاح السماء، فقد افترس غول الفقر كل ما ادخره، تراكمت ديونه إلى حد اضطر معها إلى بيع خزانته وسريره «الخزانة خاوية على أية حال» قال معزياً زوجته «ويمكننا كذلك النوم على الأرض!».

لكن النقود لم تكفه لأكثر من أسبوعين. تحدثت كل البلدة عن حظه العاثر، وعلى الرغم من مقدرته على الغناء وسرد القصص بشكل جميل، إلا أن أحداً لم يعد يدعوه إلى حفلات الزواج كما كانوا يفعلون في الماضي. أصبحوا يخشون أن تنتقل عدوى بؤسه وسوء طالعه إلى العروسين.

كانت زوجته سحر تتعرض للمضايقات كلما ذهبت إلى نبع القرية لتجلب الماء «هل يدفئك صوته في الشتاء؟ وحين تشعرين بالجوع هل تسلقين صوته أو تقليه؟». كانت النسوة تلاحقنها بكلماتهن. بكت سحر بمرارة لكنها ما إن تصل إلى بيتها حتى تضحك وتحاول بثّ البهجة في نفس زوجها. وعلى الرغم من هذا فقد كان يشعر بحزنها وهذا ما كان يحزّ عميقاً في قلبه.

ذات يوم وعلى الرغم من كون الطقس مثلجاً، حاول الفلاح أن يبيع سترته القديمة كي يشتري بعض الطحين له ولزوجته. لكن أحداً لم يرغب بشرائها. خجل الفلاح من العودة خاوي اليدين إلى بيته، هرع إلى الغابة المجاورة وبدأ بالصراخ ألماً من أعماق روحه. صاح: «لقد كنت صبوراً مثل جمل وتوسلت لكل الملائكة الطيبة من أجل مساعدة لكن قلوبهم استحالت أحجاراً باردةِ وكل ما فعلته هو صمّ آذانها عن دعائي. أخبروني، أنتم أيها الشياطين، ماذا تريدون مني لأنقذ حبيبتي من وحش الجوع؟».

«صوتك!» ردد الصدى الكلمة في الغابة. سرت قشعريرة باردة في جسد الفلاح فارتعش وارتجفت أوصاله. دار حول نفسه فشاهد رجلاً يرتدي عباءة داكنة اللون متلألئة وكأنها سماء ليل بنجومه. «سأعطيك ذهباً لا يفنى مقابل صوتك!» قال الرجل.

أنَّ الفلاح قائلاً: «سأقدمه لك إن أعطيتني طعاماً لي ولزوجتي لأسبوع. صوتي، صوتي، على أية حال لم يعد يرغب أحد بسماعي منذ أكثر من سنة».

«لقد أسأت فهمي. أريد أن أشتري حديثك كله ولغتك، وليس صوتك الجميل فحسب. لن يكون بوسع لسانك ولا يديك ولا حتى عينيك القدرة على الكلام، وفي المقابل سأعطيك هذه الليرة الذهب والتي لن تنفذ منك أبداً، ما أن تغادر يدك حتى تُخلق واحدة أخرى، لن تتمكن من إنفاقها مدى حياتك» قال الرجل وتوهجت عيناه كالجمر.

صاح الفلاح: «ليكن ذلك بحق السماء، لم يعد لي خيار آخر». مشى الرجل الغريب باتجاهه وبلمح البصر رمى عباءته على الفلاح

التعيس وجرّه بعيداً في دوامة الظلمة. ازداد ثقل العباءة على كتفي الفلاح إلى درجة خارت معه ركبتاه فأخذ يتلمّس طريقه بحثاً عن شيء يتشبث به واستطاع أن يلمس الرجل الغريب، لكن يديه انزلقتا على جسد الرجل وكأنه عمود من الرخام. وبنفس الوقت فاحت رائحة تعفن شديدة، اخذ الفلاح يسعل حتى دمت حنجرته وكأنه ابتلع سكيناً ثمَّ وقع على الأرض مغشياً عليه.

حين استعاد وعيه وجد نفسه ملقًى على أرض الغابة الباردة وليرة ذهب توهجت على راحة يده المنبسطة. أسرع إلى البيت، بدت زوجته شديدة القلق. ما أن رأت وجهه الشاحب سألته: «ما الأمر، يا حبيبي؟».

جلس الفلاح على الحصيرة منهكاً ومدَّ يده مناولاً إياها الليرة الذهب. بفرح غامر أمسكت الزوجة الليرة وأسرعت ذاهبة. لكن وقبل أن تغادر الغرفة شعر الفلاح ببرودة معدن في قبضته المحكمة، فتح يده بوجل فاكتشف لدهشته ليرة ذهب أخرى.

في غضون ذلك كانت زوجته المبتهجة قد أسرعت إلى الجزار وبائع الخضراوات والسمّان والخبّاز، كان كل ما دفعت ثمنه لقاء كل هذه المشتريات لا يتعدى بضع قطع من الفضة. بعد ذلك توجهت للنجار وأوصته برأس مرفوع صنع سرير ثمين ـ من خشب الجوز الغالي. كذلك اشترت لزوجها سترة جديدة لينعم بالدفء وثوباً زاهياً طالما رغبت به. حمل أولاد القرية سللها الممتلئة إلى المنزل وكانوا ممتنين للقروش القليلة التي منحتها لهم. اشترت سحر كل هذا بليرة ذهب واحدة. في ذلك الزمن كان شراء بيت لا يكلف أكثر من خمس ليرات ذهب.

انتشرت أخبار الليرة الذهب عبر القرية بسرعة مثل النار في الهشيم. اعتقد بعض الناس بأن الفلاح سحر بصوته جنية أرشدته إلى كنز مخبوء، فيما ظن آخرون أنه قام بسرقة مسافر. لكن لم يكن عند أحد أدنى فكرة ولا حتى الفلاح نفسه كم كان الثمن الذي دفعه غالياً مقابل كنزه.

حسناً، حين عادت سحر إلى بيتها، لاحظت أن زوجها لم يكن غير قادر على الكلام فحسب، بل عاجزاً عن القيام بأدنى إشارة. لم يكن بوسعه حتى التعبير ولو بشكل بسيط عن فرحه بكل هذه الأطعمة الشهية التي أحضرتها إلى المنزل. مضغ طعامه صامتاً محدقاً في الفضاء بعينين ميتتين.

صباح اليوم التالي وجد الفلاح في يده ليرة ذهب أخرى. كان هذا كل ما بوسعه القيام به. جلست زوجته أمامه تحدق بعينين واسعتين، فما أن تناولت الليرة من يدِه ووضعتها على الطاولة حتى حلّت مكانها ليرة أخرى. أخرج الفلاح خلال ساعات مئات الليرات الذهب. لكنه عجز حتى عن الابتسام، لأن البسمة لغة كذلك، ويا لها من لغة سماوية! أما نايه الذي اعتاد أن يعزف عليه أجمل الألحان السحرية فلم يصدر رغم محاولات الرجل اليائسة نغماً واحداً.

أخذ الرجل ورقة ليرسم لزوجته صورة يشرح من خلالها ما حدث معه لكن يده لم تطع رغبته، كل ما استطاع رسمه هو خطوط منكسرة لا معنى لها، لكن سحر الذكية رأت في تلك الخطوط وجه الشيطان.

«لا تقلق يا حبيبي» طمأنته زوجته الطيبة «سوف أكون لسانك، وسأعمل على شفائك حتى ولو اضطررت أن أنخل الكرة الأرضية كلها بحثاً عن طبيب لك».

سخرت سحر المال الوفير لبناء قصر جميل يقارب الأحلام. ولتوظيف فريق من الخدم والمهرجين والموسيقيين ليبثوا الفرح في قلب زوجها. حفلت اسطبلاتها بأجود الأحصنة الأصيلة من الصحراء العربية ولو طارت الملائكة فوق حدائقها بدلاً من الحمائم لظنَّ الناس بأنها جنة عدن».

قاطعه عصام قائلاً: «أفضّل الحمائم في الواقع» ثمَّ ضحك من فكرته «تخيلوا لو أن ملائكة تطنّ على ارتفاع مترين من رأسك. لن تستمع بنارجيلتك لأنها ستتطاير نتيجة هذا الطيران الخارق للصوت على ارتفاع منخفض»، سحب نفساً من النارجيلة ونفخ الدخان بلذة، «هل سمعتم النكتة عن الرجل المؤمن الذي وقع على رأسه سلخ طير فشكر الله لعدم منحه أجنحة للبقر؟».

قال الحلاق مستهجناً: «رجاءً، دعنا نسمع القصة بلا نكاتك» واستدار ناحية مهدي قائلاً بلطف: «أكمل حديثك، أرجوك».

«حسناً، بنت المرأة جنة لزوجها بحبها ومؤونة الذهب التي لا تنضب، لكن كل ما استطاع رجلها عمله هو التجول تعساً بوجه شاحب وكأنه يعيش في عالم آخر.

جاب رسل المرأة العالم بأسره بحثاً عن الأطباء والنساء الحكيمات ليشفوا زوجها. وعدتهم سحر بأنها ستعطيهم وزنهم ذهباً إن أعادوا لزوجها صوته. قصدت أفواج من الأطباء والمشعوذين قصر سحر وزوجها طمعاً بالمكافأة. كانوا يأكلون أياماً ملء بطونهم الشرهة ليغادروا القصر دون أن يصلوا إلى نتيجة.. فاضت خزانة القصر بالقطع الذهب لكنه في أعماقه ظلَّ يشعر بأنه أكثر فقراً من كلب أجرب. لم يستطع التفوه بكلمة، لا شيء، ولا حتى التعبير بعينيه أو الإيماء بيديه.

ذات يوم أفاقت سحر ولم تجد زوجها، بحثت عنه عبثاً. اختفى وكأن الأرض ابتلعته. أخبرها الخادم أن سيده قد امتطى حصانه الأسود ومضى بعيداً.

أرسلت سحر خدامها وعمالها إلى كل محيط المقاطعة شرقاً وغرباً بحثاً عن زوجها، لكن الخدم كانوا يعودون دوماً عند غروب الشمس ولمدة سبعة أيام وهم يهزون رؤوسهم نفياً. مع هذا، لم تستسلم سحر، كانت كلما سمعت من أحدهم عن فارس يمتطي جواداً أسود سواء كان ذلك على ضفة الفرات أو النيل حتى تبعث برسل يحملون طلبها إلى الحكام المحليين وهؤلاء يقومون بدورهم بإرسال فرق بحث في أرجاء المنطقة كلها. كانوا يفتشون كل شيء بحثاً عن زوج هذه الامرأة الغنية التي وعدت بقصر من الرخام لأي حاكم أو محافظ أو وكيل أو أمير أو أي محظوظ يجد زوجها. لكن كل ذلك من دون جدوى.

في هذه الأثناء كان الفلاح يجول الأرض بحثاً عن الساحر الذي اشترى منه صوته وكلماته. كان يطارد أية معلومة أسرع من الريح، لكنه لم يحظ بالساحر في أي مكان. كان يحاول أن يقتفي أثره في المناطق التي يفقد فيها أحدهم صوته فجأة. لكنه ما إن يصل المنطقة ويصادف ذلك الإنسان التعيس حتى يكون الساحر قد رحل مخلفاً وراءه جثة تتنفس وغير قادرة على التعبير بأي من مظاهر الحزن أو الفرح، الألم أو السعادة.

ذات يوم ـ وكان بحثه قد امتد للسنة الثالثة وكان على وشك أن يستسلم ـ كان الفلاح المنهك يرتاح في ساحة قرية ويستمع بإعجاب لغناء عذب لمطرب وما أن قارب الرجل على الانتهاء حتى ظهر تاجر

شاب يرتدي عباءة ثمينة وطلب منه أن يعيد أغنية الحب الأخيرة ورمى إليه ليرة ذهباً. نهض المغني الشاب وأحنى قامته شاكراً هذه الهبة السخية ثم طفق يغني بتأثر أكبر وصوت أروع. كان الفلاح جالساً بالقرب من المنصة، ومن هناك راقب كيف اقترب التاجر من المغني قبل أن تنتهي الأغنية وهمس شيئاً في أذنه ثمَّ مشى باتجاه الأشجار الظليلة خلف المنصة وما أن مرَّ في طريقه بالقرب من الفلاح حتى عبقت رائحة زهور في الجو، لكن الفلاح شمَّ رائحة نتانة تحت غطاء الزهور الرقيق. تجمّد الدم في عروقه. كانت الرائحة النتة ذاتها التي ملأت رئتيه قبل أن يفقد وعيه، رائحة لن ينساها للأبد. مشى على رؤوس أصابعه خلف التاجر وأخذ يراقبه.

حسناً، في أقل من ربع ساعة غادر المغني المنصة متوجهاً نحو التاجر في ظل الأشجار التي حجبته عن الأنظار. تحدث التاجر مع المغني قليلاً وكأنه يحاول إقناعه بشيء ثمَّ رمى عباءته على الرجل الفقير. أخذ الفلاح يحدق فيما كان جسم المغني يرتعش وسرعان ما سقط على الأرض بلا حراك. كل ما حدث لاحقاً كان لا يصدق. عندما سحب التاجر عباءته ليرتديها ظهر رجل آخر من جوف العباءة كان الرجل صورة طبق الأصل عن المغني الملقى على الأرض، مشى كلاهما مبتعدين وهما يتحدثان وكأنهما صديقان قديمان.

وثق الفلاح الآن تماماً من أنه قد وجد الساحر أخيراً وأخذ يركض في إثره. لاحقه ليومين وليلتين. بدا الساحر ورفيقه لا يكلان أبداً، وحين أطل فجر اليوم الثالث كانا نشيطين كما في اليوم الأول. كان الفلاح منهكاً لذا قام ومن أجل المحافظة على يقظته بجرح يده وذرّ

الملح عليها، تسبب الألم بإبقاء الفلاح يقظاً خلال اليوم الثالث. في فجر اليوم الرابع شاهد قلعة تنبثق ببطء من الضباب الذي غمر الوادي. سحر هذا المنظر الآسر الفلاح فأنساه ألم جرحه وسرعان ما سقط نائماً. كم دام نومه؟ لم يعرف الرجل، لربما للحظة أو بضعة أيام. أجفله صوت كالرعد فهبَّ مذعوراً ووثب واقفاً على قدميه. انتصب الساحر أمامه، طويلاً وضخماً كنخلة. صاح بصوت كالزئير: «لمَ تلاحقني؟».

لم يتمكن الرجل من الإجابة. لم يستطع حتى أن يومئ برأسه. صاح الساحر: «لقد تمت مكافأتك بجزالة، وما من مجال للتراجع». وثب الفلاح باتجاهه لكن الساحر لوح به بحركة دائرية وكأنه حجر في مقلاعه، ثم ألقاه أرضاً وهرب بسرعة. ما أن نهض الرجل حتى شاهد القلعة البعيدة تختفي على مهل في الضباب.

لسنوات ظلَّ الفلاح يلاحق الساحر لكنه سرعان ما كان يختفي عن نظره ما أن يصل إليه. ومع هذا رفض الفلاح الاستسلام.

في يوم ربيعي كان الفلاح المسكين يرتاح قرب بحيرة ويفكر في حيلة يوقع فيها الساحر حين لمح امرأة شابة تحاول حمل الماء في منخل، ما أن تمشي بضع خطوات حتى ينساب الماء كلية لتعود ثانية خائبة الأمل باتجاه البحيرة وتبدأ من جديد. كانت المرأة منهكة لكنها لم تستسلم، «يجب أن أكمل مهمتي، يجب أن أقوم بالأمر حتى ولو كلفني هذا حياتي. يجب أن أنجح في حل المعضلة». كانت المرأة تتحدث بصوت عال كي ترفع من معنوياتها وهي تبكي بمرارة طوال الوقت.

أمسك الفلاح بذراع المرأة.

«دعني أذهب، يجب أن أملأ هذا المنخل بالماء وآخذه إلى ملك الجان كي يطلق سراح زوجي». قالت المرأة وأفلتت نفسها من قبضة الفلاح. قامت ثانية بغرف الماء الذي كان المرة تلو المرة يتسرب في الحال عبر المنخل.

أمسك بها الفلاح مرة أخرى لكنه أخذ هذه المرة المنخل بلطف من يدها. صاحت المرأة وأخذت تضرب الفلاح حتى شعرت بالتعب ولم يعد بمقدورها سوى شتمه بصوت خفيض. أما هو، فمشى على مهل باتجاه مغارة مجاورة اعتاد الفلاحون ملئها بالثلج في الشتاء، وهكذا يقوم هذا الخزان الصخري بتزويدهم بالمياه الباردة في فصل الصيف. كانت المغارة طافحة بالثلج المرصوص حتى بابها، غرف الفلاح كمية من الثلج عبأ بها المنخل وأسرع عائداً إلى المرأة الواقفة قرب البحيرة تبكي بيأس. وما أن رأت المنخل مملوءاً بالثلج حتى انفرجت أساريرها. قفزت وأسرعت لتأخذ المنخل وتطير عالياً في الجو. حيث إنها كانت جنية كذلك ـ فليحمكم الرب الإله من غضب الجان وأولاد الحرام!

حسناً، بعد قليل عادت الجنية الشابة برفقة حبيبها. شكرا الفلاح وما أن لاحظا جمود عينيه وعدم قدرته على التعبير حتى أيقنا أن الساحر قد سرق منه صوته وكلماته.

قال الجني بصوت خفيض: «أنت الوحيد القادر على تحرير صوتك، إنه يحجز الأصوات في قلعته ويستخدمها في صنع إكسيره الخاص. لا يمكن لجني على الأرض أن يدخل إلى قلعته، لكن بمساعدتي قد تتمكن من دخولها. سوف أحولك إلى نسر، حينها يصبح بوسعك سبر أغوار الأرض وأعالي الجبال بحثاً عن قلعة هذا الساحر

الخبيث. لكن إن وجدتها إياك أن تلتفت، لأنك ما أن تفعل ذلك حتى تختفي القلعة للأبد. ابحث عن نافذة بزرقة السماء واقتحمها بسرعة. في اللحظة ذاتها التي تندفع فيها عبر زجاج النافذة ستعود إنساناً وما أن تغادر القلعة عن طريق النافذة ذاتها حتى تعود نسراً كما كنت. خذ شظية من الزجاج المكسور وخبئها تحت لسانك فطالما ملكت تلك الشظية ستبقى القلعة تحت ناظريك. ابحث عن صوتك داخل القلعة ـ سيكون على صورتك نفسها. تشبث به وبهذه الطريقة سوف تحرره. إياك أن تنسى أمر الشظية الزجاج ولو للحظة، سيحاول الساحر إصلاح النافذة المكسورة كي يتمكن من إخفاء قلعته في ضباب الأبدية، لكن طالما أن الشظية الصغيرة مفقودة سيبقى عاجزاً عن حماية قلعته ضد سلطة وجبروت الزمن. بعد سبعة أيام سوف تنهار وستتحرر الأصوات من قيودها لكنها ستجوب الأرض تائهة حتى نهاية الزمن إن لم تتحد مع توأمها كما ستتحد أنت مع صوتك. لا تنسَ أمر الشظية! إحرص عليها حرصك على نور عينيك. سيفعل الساحر كل شيء للحصول عليها وحماية قلعته».

حسناً، قبَّل الجني الفلاح بين عينيه وأطلقه نسراً يمخر عباب السماء. راقب الجني وحبيبته ملك الطيور يختفي في اللجّة الزرقاء. كانت الجنية غارقة في أفكارها حين عانقها حبيبها وقبلها على شفتيها. وهناك حين لامست قدماها الأرض انبثق برعمان من شقائق النعمان.

لسنوات جاب النسر الأرض والسماء والجحيم بحثاً عن قلعة الساحر، في أثناء ذلك كانت زوجته تبحث عنه يائسة في أصقاع المعمورة. وفي الوقت الذي كانت على وشك أن تفقد كل آمالها بان في قصرها رجلاً عجوزاً بلحية طويلة بيضاء كالثلج. جفلت الأحصنة وهمهمت الكلاب وكأنها تشعر بهزة أرضية قادمة.

«هل تريدين استرداد زوجك؟ في المقابل أنا لا أريد ذهباً ولا قصوراً أجراً لي» قال العجوز وهو يمشط لحيته بأصابعه مفكراً ويحدّق بسحر بعينين حمراوين كالنار.

«بالتأكيد أرغب في استعادة زوجي، لكن ما الثمن الذي تطلبه إن لم يكن ذهباً أو قصوراً؟».

«صوتك» أجاب الرجل بهدوء، «أعطني صوتك وخلال سبع ليال ستكونين في أحضانه».

«صوتي لا أبيعه! أغرب عن وجهي» صاحت سحر بالرغم من أن قلبها كان يحترق لوعة لرؤية زوجها.

«سأعود ثانية» أجاب الساحر ومشى على مهل خارجاً من حديقة القصر.

بعد ثلاثة أشهر عاد الرجل العجوز ثانية لكن سحر طردته مرة أخرى بقلب حزين.

«ستكون المرة القادمة هي الأخيرة. فكري بالأمر جيداً!» قال الرجل العجوز بغضب صافقاً الباب خلفه.

انتظرت سحر طويلاً فلقد مرّت سنوات ثلاث قبل أن يعود الرجل العجوز.

«حسناً، والآن؟ هل فكرت بعرضي جيداً؟» سألها وابتسامة تلوح على شفتيه.

«خذ صوتي، أريد زوجي مهما كلفني ذلك» أجابت سحر بهدوء.

رمى الساحر بعباءته عليها فسقطت أرضاً وعندما عادت إلى وعيها

لم يعد بوسعها الكلام. أصاب الخدم الذعر لمرأى سيدتهم وهي تخرج من غرفتها شديدة الشحوب، لأنهم كانوا قد لمحوها قبل ذلك بدقائق تغادر القصر على مهل مع الرجل العجوز وتصعد إلى عربته.

حسناً، في هذه الأثناء كان النسر مستمراً في بحثه. حام فوق الأودية والجبال على الأرض، وفي السماء وفي الجحيم ذاته. ذات يوم وأثناء طيرانه حول الأرض لمح قلعة تنبعث من أعماق الوادي. بعدها بقليل لمح الساحر أيضاً يدخل مسرعاً إلى قلعته بصحبة امرأة. كم رغب حينها أن يقتلع عيني الساحر لكنه تذكر أن القلعة سرعان ما ستختفي عن الأنظار، لذا تابع طيرانه حتى شاهدَ قبة ذهباً بأربع نوافذ: حمراء وخضراء وزرقاء وسوداء. لا يعلم سوى الله سبب وجود تلك النوافذ الأخرى»، قال مهدي وهو يسحب نفساً من نارجيلته قبل أن يمررها إلى يونس.

«الزرقاء للسماء والحمراء للخطيئة والسوداء لـ. . . «حاول عصام شرح الأمر.

«لقد سمعت ما قاله. الله وحده يعلم سبب وجود النوافذ الأخرى. هل صرت أنت الربّ الآن أو ماذا؟». نهره موسى بعصبية ثم التفت إلى مهدي وتوسله بلطف أن يتابع حديثه: «أرجوك تابع ولا تنسَ كلمة واحدة».

«حسناً، كما قلت لكم، بعد بحث طويل وجد النسر النافذة الزرقاء، لكن في الوقت ذاته سمع استغاثة زوجته تطلب مساعدته. أراد أن يلتفت لكنه تذكر تحذير الجني الطيب. باندفاع سهم وبكل قوته طار عبر النافذة محطماً الزجاج. التقط النسر شظية بمنقاره وقفز عبر النافذة.

ما أن قام بهذا حتى تحقق وعد الجني، لقد استحال إنساناً مرة أخرى. قام بتمزيق قميصه، لف شظية الزجاج بقطعة القماش ودسها تحت لسانه.

كان صفان من الغرف يمتدان في ممر لا ينتهي. أرهف الفلاح سمعه وسرعان ما تناهت إليه أغنية بلغة غريبة تصدر عن الغرفة الأولى. فتح الباب بحذر ليجد في الداخل أكثر من أربعين شاباً وشابة بثياب غريبة الشكل. كانوا مقيدين إلى الجدار لكنهم بدوا فرحين ووجوههم نضرة وكأنهم وصلوا للتو. لم يعيروه انتباهاً وكأنهم لم يرونه. أسرع الفلاح الآن من باب إلى آخر يفتحه ويبحث عن نفسه بين العديد من المغنين ورواة الحكايات. وعند الغرفة الثالثة والثلاثين سمع صوته. فتح الباب وشاهد صورته مقيدة إلى الجدار. بكل محبته الشديدة لصوته، قام بتحطيم القيود عن الجدار وعانق صورته. «سحر» صاح عالياً وقد فاض قلبه سعادة وخفق بعنف مثل عصفور أطلق سراحه للتو من القفص.

لم يمض وقت طويل حتى سمع صوت الساحر على السقف يجأر غاضباً فقد كان يحاول عبثاً جمع قطع الزجاج المكسور. «أشمُّ رائحة إنسان». تردد صدى صوته في أرجاء ممرات القلعة. لبرهة تجمدت أوصال الفلاح خوفاً، لكنه ركض بأقصى سرعة وقفز من النافذة نحو الفضاء وسرعان ما تحول إلى نسر بجناحين هائلين يشق عباب الفضاء. «سأنال منك!»، أخذ الساحر يتوعده من على سطح قلعته وبسرعة تحول هو الآخر إلى نسر، لكن الفلاح كان أسرع منه ثمَّ تحول الساحر إلى ريح عاتية محاولاً إيقاع النسر أرضاً، لكن النسر كان أقوى من

الريح. ظلّ يطير بقوة لا تخفت لنهارين وليلتين متتاليتين. مزّق الجوع أوصاله. تحول الساحر إلى حمامة ترفرف بوهن واضح بالقرب من النسر لكنه تجاهلها. في اليوم الثالث أصبح النسر عطشاً إلى درجة بات معها مستعداً للتخلي عن أي شيء في العالم مقابل قطرة ماء، لكنه حين لمح بحيرة زرقاء خلف الجبال تذكر الشظية تحت لسانه وخاف أن يفقدها. ما أن تجاوز النسر البحيرة حتى جفت في الحال، لأنها لم تكن سوى الساحر نفسه. بعد ظهر اليوم الثالث وصل النسر إلى قصره، طار عبر باب غرفة النوم المفتوح وهناك شاهد زوجته سحر مستلقية على السرير، ما أن لمح عينيها اللتين فقدتا كل وميض حياة حتى علم أنها قد تخلت عن صوتها لأجله. عرفت سحر أن النسر هو زوجها لأنها تذكرت عينيه، العينين اللتين طالما افتقدتهما طيلة تلك السنوات ـ لكنها لم تستطع أن تنبس بكلمة واحدة.

«تعالي معي لنحرر صوتك!» قال النسر بصوت دافئ لطالما أحبته سحر. قفزت على ظهره وحلّق النسر في السماء.

حسناً، الآن علم الساحر أن النسر سيعود لا محالة، لذا رجع إلى قلعته ومكث منتظراً أمام صورة سحر. مرت أيام بلياليها وفي ظهيرة اليوم السادس طارا عبر النافذة الزرقاء. تمنّت سحر أن تبوح لزوجها ـ الواقف إلى جانبها وبكل ما في العالم من كلمات ـ كم تحبه، لكن كلمة واحدة لم تخرج من بين شفتيها. همس زوجها برقة شديدة: «علينا أن نجد صورتك وما إن تجدينها إياك أن تنظري إلى الخلف مهما استغثت. حرري الصورة من قيودها واركضي بأقصى سرعتك، هل سمعتيني؟ أنقذي نفسك!» أخذ سحر بين ذراعيه معانقاً إياها للمرة الأخيرة ثمّ سارا على رؤوس أصابعهما عبر الممر.

ما أن تناهى إلى سمعهما صوت سحر حتى اندفعا إلى داخل الحجرة. هناك كان الساحر بانتظارهما. بدا طويلاً وقوياً لكن وجهه كان شاحباً وبدت خطوط الشيب واضحة في شعره. قال بصوت متهدج يثير الشفقة: «أعطني الشظية ولتأخذ في المقابل زوجتك وصوتها».

«أبداً، لن تحصل عليها وأنا حيّ» أجاب الفلاح رامياً بنفسه على الساحر الذي استحال بسرعة إلى أفعى ضخمة لفّت نفسها حول صورة سحر. ضرب الفلاح رأس الأفعى فأصبحت سحر قادرة على تحرير صوتها من قيوده. «اهربي» صاح زوجها فيما كان يتصارع مع الأفعى. كان على وشك أن يخنقها حين تحولت إلى عقرب قام بوخز الفلاح وخزتين سامتين. صاح الرجل من ألمه وداس على العقرب الذي سرعان ما استحال نمراً ووثب على الرجل. لم تركض سحر أكثر من خطوتين حين سمعت دوي الضربات الموجعة. قفلت عائدة،أخذت سلسلة القيد الحديد من الأرض وبدأت تضرب النمر حتى تمكنت من تحرير زوجها النازف. رمق الفلاح زوجته باندهاش وأشار إليها بإلحاح أن ترحل وتتركه لكنها ظلت واقفة قرب زوجها تصارع الوحش النازف كذلك. فجأة اختفى النمر عن الأنظار، أحسّ الفلاح بأن الموت يزحف إليه أمسك بسحر وقبلها على شفتيها، وبحذر مرر الشظية الملفوفة بالقماش إلى داخل فمها.

أدركت سحر الآن أن مصير زوجها المحبوب هو الموت. صاحت عالياً ممسكة برأسه وضمته إلى صدرها. أدرك الساحر الذي استحال إلى زوبعة ريح أن الشظية قد أصبحت في فم سحر. لكنه شعر كذلك بأن منيته قد اقتربت فقام بتحويل نفسه إلى عنكبوت سام. أحست سحر

فجأة بشيء يلدغ رقبتها. بدأت تصفع نفسها بكل قوتها. وقعت العنكبوت ميتة على الأرض.

مات العاشقان معانقاً كل منهما الآخر، وفي الليلة ذاتها تحرر ألف صوت وصوت من أنقاض القلعة. وجد البعض صورهم المتممة فيما لا يزال البعض الآخر يبحث حتى يومنا هذا. في منتصف الليل انبعث نجمان من ركام القلعة باتجاه السماء، أحدهما يشع كالألماس فيما يلتهب الآخر بلون أحمر ناري.

منذ ذاك اليوم أخذ النجم الأحمر يتبع نجم سحر المشعّ، وفي اللحظة التي سيلتقيان فيها، تسقط ألف حبة وحبة من اللؤلؤ داخل أفواه الصدفات المفتوحة. وحينئذ ستنشد الطيور أغنياتها الساحرة حتى آخر ساعات الليل».

صمت مهدي لهنيهة ساد السكون فيها، ثم تنحنح قائلاً: «هذا ما أخبرني به صانع أبي وما أن أنهى القصة حتى سألته بفضول طفل: وما اسم النجم الأحمر الناري؟».

أجاب: «شفق».

«فليبارك الربّ فمك لأجل هذه القصة» كان فارس أول المتحدثين فيما أومأ الآخرون برؤوسهم موافقين.

سأل الحلاق: «لكن ماذا حدث للصانع؟».

صمت مهدي لوقت طويل ثمّ قال: «سوف لن تصدقوا ما رأيته بأم عيني. ذات ليلة سمعت صيحة فرح. أفقت من فراشي، سحبت ستارة نافذة غرفتي ورأيت شفق يرقص في ساحة الدار. كان يرقص ويده مبسوطة وحبة لؤلؤ تشع في كفه اليمنى. دار مرة أخرى حول نفسه ثمّ

نقف الحبة باتجاه السماء. في صباح اليوم التالي أخبرت أمي بما حدث لكنها ضحكت عليّ معتقدة أنني كنت أحلم ليس إلا ـ لكن شفق كان قد اختفى في ذاك اليوم بالتحديد».

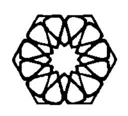
«هل أنت جاد؟» أراد الوزير السابق أن يتأكد، أومأ مهدي بصمت رأسه إيجاباً. كان سليم وحده من ابتسم بغرابة.

«لو أن جنية أحالتني الآن إلى نجم فسوف يدعونني النجم المتثائب»، قال موسى وتثاءب بصوت عال ثم هبَّ واقفاً. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

«قبل أن نذهب» اعترض عصام من دون أن يتحرك من مقعده: «علينا سحب الورق لنعرف من التالي».

«أوه، كدت أنسى ذلك، هذا حق»، تمتم الحداد مثل طفل أُمسك به متلبساً. وضع عصام ست ورقات على الطاولة.

«لا يا سيدي أفضّل أن أسحب الورقة الأخيرة، ابدأ أنت أولاً». تذمر علي في وجه موسى بشكل حادّ حيث حثه هذا على البدء أولاً. لكن يونس القهوجي كان هو من سحب ورقة الأس.



كيف تمكن سليم
من إقناع بائع
من دون قول كلمة واحدة؟
ولماذا لم يتحمل
نظرة واحدة من خروف؟

نام سليم ملء جفنيه تلك الليلة فهو لم ينعم بنوم هانئ كهذا منذ زمن. كنس النوم تعب الأشهر الماضية من عظامه. حين استيقظ لاحظ أن عفيفة تربض أمام نافذة غرفته رغم الطقس البارد وكأنها تسترق السمع. عانقته ابتسامتها المرتبكة، قالت له: «ليحمل يومك هذا الحظ الطيب يا عمي! هل تشرب القهوة معنا؟». هز العربجي العجوز رأسه نافياً مبتسماً وقفز بخفة عن سريره.

بعد الثامنة بقليل مرَّ صبي الخباز لمنزله جالباً الخبز له، ومنذ حصوله على تقاعده اعتاد سليم أن يعطي الولد قرشاً صباح كل يوم.

في ذاك الصباح كان طعم الزيتون لذيذاً مع الخبز الدافئ وكأس الشاي الساخن. أخذ سليم يفكر بقصة مهدي الأستاذ، وبسحر وشفق. ماذا حدث لأجير النجار؟ هل كان حقاً النجم الأحمر الناري، أم أنه نجار يروي القصص لا أكثر؟ بأسئلة كهذه تدور في رأسه، نظّف الطاولة

الصغيرة، أقفل باب غرفته، دسَّ المفتاح في جيب معطفه وأسرع خارجاً من الدار.

كان الشارع لا يزال هادئاً في تلك الساعة المبكرة فالطلاب قد غادروا منذ حين إلى مدارسهم. وعلى عكس الصيف حيث تعلو أصوات بائعي الخضراوات وأصوات الأطفال رأى سليم في هذا النهار البارد بائعاً واحداً يدفع عربته على مهل أمام البيوت. كان كل ما ينادي عليه هو بعض البصل وكوم تعيس من البطاطا الذابلة «يبرودية البطاطا.. ثلاثة كيلو بليرة!» كان أنين ندائه ملحاً، فيما يواصل كلب الحلواني ناصيف نباحه كما في كل يوم. كلب مهجن صغير وذو فم كبير، يبدأ بالنباح منذ شروق الشمس ويستمر على هذه الحال طوال اليوم إلى أن يعود سيده الأرمل الثري إلى البيت. كان للرجل صانعتان تعتنيان ببيته وثيابه وطعامه وكلا المرأتين أوشكتا على الانهيار عصبياً، وكذلك كان النباح مصدر إزعاج متواصل للجيرة في البيوت المجاورة. ذات يوم قام ابن عفيفة الأكبر، وبتوجيه مباشر منها، بتسلق الجدار، فحشر الكلب داخل كيس، ثمَّ أفلته في بستان بعيد من بساتين الغوطة. لكنَّ الكلب اللئيم وجد طريقه عائداً إلى مالكه. حتى ذاك الوقت كان الناس يعتقدون بأن القطط وحدها هي التي تعود إلى أصحابها، فيما يظنون أن الكلب بطبيعته انتهازي يهز ذيله ويركض في إثر أي شخص يرمي له عظمة، لكنهم رأوا وبأمّ أعينهم هذا الهجين العائد، الأشعث تماماً، والذي كاد يتضور جوعاً وهو يثب بين ذراعيّ صاحبه الدامع العينين.

قطع صوت منشار عصمت النجار الصمت الوجيز بين موجات النباح ـ فيما كان سليم يفكر متأملاً بمراقبة عفيفة له من نافذته. عمَ

كانت تبحث؟ هل كانت تتجسس عليه لترى إن كان يتحدث في نومه؟ هزَّ رأسه نفياً ليحرر نفسه من هذه الهواجس.

كان لكل حي من أحياء دمشق القديمة وجهه الخاص، رائحته الخاصة وصوته الخاص، ولحي العبّارة حيث عاش سليم، وجه عتيق بلون الأرض مغطى بالتجاعيد وخربشات الأطفال والقصص. كانت الشبابيك تفيق كل صباح وهي تكاد تنفجر فضولاً بانتظار أية إشاعة جديدة، أية رفة سنونو وحمامة، وأي عطر جديد. كان الحي يعبق حتى في فصل الشتاء برائحة اليانسون، ففي وسط الحي كان هناك مخزن لليانسون يملكه أخوان، ويروي الناس قصصاً كثيرة عن بخلهما الجنوني. من باب المصادفة أن وقع هذان الأخوان في حبّ أختين في الوقت ذاته وطارا فرحاً بأنهما سيكلفان معاً قساً واحداً في العرس. بدت الأمور تسير على شكل حسن حتى مرور ثلاثة أشهر على خطبتهما حين اقترحت إحدى العروستين قائلة: «أنتما تأتيان كل يوم وتمكثان حتى منتصف الليل. لِمَ لا نستأجر عربة، ولو لمرة واحدة، ونقوم بنزهة حول دمشق ثمَّ نأكل بعض البوظة عند بكداش في سوق الحميدية». حدق الأخوان ببعضهما البعض مرعوبين ثمَّ نهضا عن كرسييهما وغادرا مبتعدين بأقدام مترنحة. أمضيا بقية حياتهما وهما يحتفلان بهروبهما في اللحظة الأخيرة من العروستين المبذّرتين، وطبعاً، لم يتزوج أيٌّ منهما. ثرثر الناس حكايات كثيرة عن شحهما. لم تقلل ملايين الليرات التي يملكانها ولا ازدراء الجيران تمسكهما بكل قرش، على العكس تماماً فكلما كبرا في السنّ وزادت ثروتهما كلما ازداد في المقابل بخلهما.

في صباح هذا اليوم بالذات، ظهر الأخ الأصغر على الشرفة وصاح

على بائع البطاطا: «هل هذه البطاطا جيدة؟»، لكن البائع سرعان ما استدار مجيباً إياه بابتسامة صفراء: «أنا لا أبيع بطاطا، أنا هنا للنزهة فقط».

«أمر لا يصدق مع هؤلاء الفقراء كلهم تنابل متخمون، ينادون على البطاطا ولا يريدون بيعها... السيد يريد التجول فقط لا أكثر»، أجاب المليونير مستاء.

تذكر سليم المثل الشعبي: «يلي ما ذاق المغراية ما بيعرف شو الحكاية»، ثمَّ ابتسم بمرارة أيضاً. في الواقع كان البائع يعرف هذين الأخوين جيداً. وحده الوافد الجديد إلى الحارة من يؤخذ بهذا السؤال المهذب، فما أن يمر البائع بعربته أمام باب دارهما حتى يرمي الأخوان نفسيهما على بضاعته وبعد ساعة من الزمن يصبح البائع منهكاً فيما بعض خضرواته قد تمَّ قضمها وقرضها بحجة التذوق. كان للأخوين طرقهما الخبيثة المتضمنة خروجهما من هذه الصفقة ببطون ممتلئة ومن دون أن يدفعا قرشاً واحداً. يقومان أولاً بمضغ شيء ما ثمَّ يصيحان بغضب: «والآن أتظننا مغفلين؟ لا يمكنك أخذ ليرة كاملة ثمناً لنصف الخسّة هذه». لم يكونا ليوفّرا أياً من الخضروات، مغسولة كانت أم وسخة، رأساً من القرنبيط، أوراق الخسّ أو حتى الجزر.

عاش الأخوان الشحيحان مثل النسّاك وكأنهما لا ينتميان للحيّ بأكمله. عمل عندهما رجل عجوز برجلين معقوفتين، يقوم منذ الصباح وحتى المغرب بنخل اليانسون بمناخل معدن ضخمة ثمَّ يملأه في أكياس خيش كبيرة يحزمها ويجهزها للتصدير. كان سليم يعرف الرجل منذ أكثر من خمسين عاماً، لم يكن يتكلم أبداً، لكنه يظهر عند صباح كل

يوم ثمَّ يختفي في غبار اليانسون. انتبه سليم أن الرجل كان يتقلص سنة بعد سنة شيئاً فشيئاً، أصبحت رجلاه معقوفتين أكثر مع انقضاء كل سنة، وأخذ وجهه الشاحب لون اليانسون الأخضر الرمادي.

«سيظل ينخل حتى يصبح صغيراً كحبة اليانسون ويقع في الكيس ولا يدري به أحد» قالت عفيفة في يوم من الأيام وآنذاك ضحك سليم لكنه أيقن هذا الصباح عندما رأى الرجل أن ملاحظتها صحيحة.

كان لشارع سوق الطويل الذي تتفرع منه حارة العبّارة رائحة مختلفة تماماً، حيث تزكم الأنف رائحة العرق ودخان السجائر التي تفوح من الخمارة ما أن يصل المرء إلى تقاطع الطريق. بالإضافة إلى أن الشارع ذاته كان يفوح برائحة الأحصنة والعرق ولولا محل كريم الفاكهاني لكانت رائحة نتانة المجاري غير محتملة.

كان كريم يبيع أفضل الفواكه في العالم كله، لكن سعرها يفوق مثيلاتها في السوق، حيث تبدو رائعة وشهية مثل باقة ملوّنة أخاذة والفواكه كما يقال تؤكل أولاً بالنظر ثمَّ بالشمّ وأخيراً بالتذوق. كثيراً ما بالغ كريم في مدح بضاعته: «فلتأخذ مجاناً كلّ ما لا يمكنك شمّه من على بعد خمسة أمتار!» لكن لم يكن هناك أدنى شك بأن روائح الفواكه العطرة كانت تفوح إلى أبعد من تلك الناصية. اعتاد كريم أن يضع عند مدخل دكانه صفين من صناديق الفواكه حيث تبدو للناظر مثل صفّي الأسنان الملونة في فم جميل كبير.

في الحقيقة كان الشارع المستقيم بأكمله مثل فم هائل بصفوف من الأسنان البهيجة من علب السكاكر المغلّفة ومرطبانات الفستق والحلويات الشهية. لا عجب أن الناس يبدون دوماً متشوقين لدسّ

رؤوسهم في المدخل الكبير لسوق الطويل. ومثلما كان الدمشقيون الأثرياء يزينون أفواههم بأسنان من ذهب، زيّن الشارع المستقيم نفسه ومنذ زمن الرومان بالسجاد، المصابيح الملونة، الأباريق النحاس وعلب الموزاييك المطعّمة بمهارة شديدة.

أغلق سليم عينيه وأخذ يتقدم في سيره على مهل، متذوقاً الشارع بواسطة أذنيه وأنفه. أصبح بوسعه بعد تقاطع الشارع المستقيم مع شارع باب توما تمييز صوت بائع المرطبات اللطيف المنادي «تفضلوا، ادخلوا، يا أهلا وسهلا تفضلوا، إدخلوا». كان يحث المارين على دخول دكانه. تساءل سليم فيما إن كان بوسعه عبر نبرة الصوت وحدها التعرف على ضخامة الرجل الفعلية. خطوة واحدة ويتغير الجو المحيط إلى صمت تام ويشمّ سليم رائحة غريبة تماماً. ابتسم، أجل، إنها الصيدلية. تناهى إليه صوت حسان البويجي: «بويجي بويايايايا نهارك سعيد، بويجي بويايايايا..

أنا هنا يا عنزاتي! بويـتجي!».

فجأة وعيناه لا تزالان مغمضتين رأى سليم، حسان، الفلاح الأعور، الذي كان يقوم منذ ساعات الفجر الأولى ولعدة عقود بقيادة عنزاته الشاميّة العشر ـ والعنزة الشامية نوع لطيف من العنز بشعر أحمر ناعم وضروع ضخمة ـ كان حسان يقودها عند الفجر عبر شوارع وحارات المدينة القديمة ليبيع الحليب الدافئ الطازج. قبل سنة تقريباً منعت الشرطة دخول الماعز إلى المدينة بحجة أن الحليب غير معقم وأن منظر العنزات قبيح ويشوّه منظر المدينة، لكن الفلاح ظلّ عنيداً متشبثاً على أية حال بفكرة النزول إلى المدينة بالرغم من تحذيرات الشرطة إلى أن صودرت العنزات آخر الأمر.

ومنذ ذلك اليوم يحمل حسان في مقدمة موكب كل جنازة في الحارة أكاليل الزهر، أو يساعد في الأعراس نوري، بائع الورد، بحمل باقات الزهور الرائعة للمحتفلين. لكن وفي غياب مناسبات الأفراح والأتراح، يقتل حسان وقته بتلميع الأحذية. كان واثقاً من أنه ذات يوم ستجد عنزاته طريقها إليه حيث اعتاد أن يأخذ استراحة قصيرة كل يوم في هذا الموقع من الشارع بعد تمشيط ثلاثة أحياء كي يطعم حيواناته العزيزة.

وسواء كان حسان يحمل أكاليل الزهر أو يلمع الأحذية فإنه دوماً ما ينادي بصوت عال على عنزاته، لكنه كان يخفض صوته في المآتم فقط حيث يتمتم بأسمائها بهدوء. كان الناس يهزأون منه، لكن حسان ظل واثقاً من عودة عنزاته. كان غالباً ما ينسى تناول طعامه، لكنه أبداً، أبداً ما أخطأ بين اسم عنزة وأخرى. «قطر الندى السعيدة لها نقطة بيضاء دائرية بين عينيها وليس لطخة سوداء على أذنها اليسرى مثل أختها التوأم، نسمة». هكذا كان يجيب الناس الذين يحاولون إغاظته بخلط أسماء عنزاته «بويـّجي بويايايايا، سليم، يا صديقي، تحياتي! قمري الفضي، ها أنذا! بويـّجي بويايايايا!» نادى عالياً من جديد.

مسّ سليم كتف البويجي برفق وابتعد عنه مسافة حسبها لصندوق البويجي والتي ملأت رائحته النفاذة أنفه. بعد خطوة وصل إلى مسامعه ضجيج المنشرة المعروفة بصناعتها للموزاييك الدمشقي الشهير. خشي العربجي العجوز الآن من أن يصطدم بأحد أكوام الصناديق الخشب الموضوعة تحت الشمس لتجف. لذا تابع سيره حذراً مخافة الوقوع، لكنه كان شديد الدهشة حين غطست قدمه فجأة في حفرة عميقة موحلة

وفقد توازنه. فتح ذراعيه كي يستعيد توازنه ولا يسقط فلطم النجار الذي هبَّ مسرعاً لمساعدته على أنفه. تغرغر الدمع في عينيّ الرجل وكل ما فعله سليم هو أن ابتسم محرجاً ومعتذراً.

لكن سليم وبدلاً من إحساسه بالخجل من لعبته الطفولية، فقد أخذ يلعن في سره رئيس الجمهورية الذي حمله شخصياً مسؤولية كل حفرة في البلدة القديمة. ثمّ تابع سيره بعينين مفتوحتين وقدم يمنى موحلة بالكامل.

على امتداد «الشارع المستقيم» تبعثرت عدة محلات وورش لصنع تحف بسيطة للسياح. ومن أحد هذه المحلات استمع سليم لأصوات الأزاميل الصغيرة تثرثر مع أطباق النحاس الشاحبة. وفيما تترك آثارها على الأوعية والأباريق النحاسية، فإن الأزاميل نفسها تبقى غير متأثرة بثرثرة النحاس المنمنمة. توقف سليم أمام أحد المتاجر الصغيرة التي يعرف صاحبها جيداً. ميّز الرجل الخمسيني المربوع، العربجي العجوز فوراً. ترك الطبق الذي يعمل على نقشه وأسرع إلى سليم «عمي سليم، ما هذا الذي سمعته؟ أخبرني يونس القصة بأكملها. بحياة أولادي لقد قلقت عليك كثيراً. تفضل إلى الداخل، شرفني بزيارتك ودعني أسقيك فنجاناً من القهوة».

دخل سليم الدكان مع الرجل، الذي أرسل في الحال أجيره إلى المقهى القريب لإحضار فنجان من القهوة للعربجي العجوز.

كانت تفوح من الدكان رائحة القار والثياب المحروقة. لمح النحّاس معالم القلق مرسومة على وجه العربجي العجوز فقال: «رحمنا الله ونجانا من كارثة، كاد أجيري أن يحرق الدكان وهو يحاول تسخين القار

قليلاً ليحافظ على أطباق النحاس من الحزوز والبعجات وفي الحال هبت النار في الستائر. كنت أدير ظهري للدكان ولم أشمّ رائحة الحريق، كنت مصاباً بالرشح، لكن الربّ حماني وحمى لقمة أطفالي - ربما لأنني اتخذت من هذا اليتيم أجيراً لي. «أمسك النحّاس سليماً من كمه ونظر فيما حوله قائلاً: أي زمان هذا؟» سأله بصوت منخفض، «هل سمعت عن وباء الكوليرا الذي تفشى في شمال البلاد؟ أنا سأخبرك لقد وصلتني الأخبار عن طريق ابن عمي الواصل لتوه من هناك. آه يا عمي، أية حكومة هذه التي لا تخبر مواطنيها عن وباء الكوليرا؟ ولمَ؟ كي لا يفزع السياح ويهربوا. يشهد الله أنني لست جباناً كالأرنب، بالإضافة إلى أنني عشت ما يكفي من حياتي - لكن أطفالي الستة! الأطفال المساكين. لقد مرت أسابيع وهم محرومون من شراء أية بضاعة من الشارع ولا حتى بزر بطيخ أو بوظة، ونحن نغسل كل ما نأكله بالماء الحار وبرمنغنات البوتاسيوم. لربما أبالغ في حرصي قليلاً، هل تظن أن هناك وباء حقاً؟».

رفع سليم كتفيه استهجاناً وتناول القهوة من الأجير الذي قدمها له بمنتهى التهذيب.

ارتشف العربجي العجوز قهوته بصوت مسموع يدل على تلذذه بها، وضع فنجانه على الطاولة الصغيرة ثمَّ أشار إلى صينية نحاس رائعة دائرية الشكل، وفرك سبابته وإبهامه معاً مشيراً إلى النقود محاولاً معرفة ثمنها. صرخ الرجل: «أقدمها لك فلتأخذها هدية».

رفع سليم حاجبيه الكثيفين معاً كعادة الدمشقيين في التعبير عن رفضهم بأقل جهد ممكن. إنهم الدمشقيون - كما يقول الناس الذين

اخترعوا هذا النوع الخاص من الكسل، أن تقول لا من دون أن تحرك رأسك. يقول غالبية العرب كلمة لا عندما ينفون رغبتهم بشيء ما أو كعلامة رفض، أما الراغبون بإراحة أنفسهم إلى حد ما فإنهم يحركون رؤوسهم قليلاً إلى الخلف والأعلى كعكس حركة الرأس إلى الأمام والأسفل والتي تعني نعم ويطقطق بعضهم بألسنتهم لكي تسمع أذن قصيري النظر النفي بتميز، في حين يقوم أكسل الكسالى برفع حواجبهم ببساطة شديدة من دون تحريك رؤوسهم أو إصدار صوت واحد وهذه هي الطريقة التي اتبعها سليم طوال حياته.

ضحك النحّاس فرحاً ثمّ قال: «أنت تحب القصص، أليس كذلك؟». وبما أنه يعرف هوس العربجي فقد بدأ بسردها من دون أن ينتظر إجابته: هل تعرف جارنا الإنكليزي الذي يسكن بجوارنا ويعمل في المتحف؟ اسمه السيد جون، كان هذا الرجل قلقاً جداً بشأن زوجته الجميلة، لذا اعتاد أن يقفل الباب عليها كلما خرج من البيت. أحبتها نساء حارتنا ودعونها لشرب القهوة، لكنها اعتادت المكوث عند نافذتها مبتسمة، حزينة بعزلتها كان زوجها يخشى أن تهجره، وقد اضطر منذ شهر أن يسافر إلى تدمر حيث قاموا بحفريات وعثروا على كنوز الملكة زنوبيا.

اعتاد السيد جون أن يصطحب زوجته في حال السفر الطويل، لكنه لم يرغب هذه المرة أن تسافر معه إلى تدمر حيث يوجد فندق يدعى زنوبيا ـ باسم الملكة الجميلة زنوبيا التي حاربت الرومان. كان السيد جون خائفاً من الأساطير التي تحيط بالفندق. لقد بنته امرأة فرنسية ثرية تدعى مدام داندوريان حيث أغرمت بالصحراء والبدو والجياد العربية.

وهكذا انتقلت السيدة التي انحدرت من عائلة فرنسية نبيلة إلى تدمر وقامت ببناء هذا الفندق. حوت إسطبلاتها جياداً عربية من أفضل السلالات. كانت السيدة سخيّة جداً وغالباً ما تقيم المآدب الخيالية. تناقلت الإشاعات بأنها احتفالات ذات طقوس خلاعية وسرعان ما جذبت القصص عن سحر جمالها وسخائها وحفلاتها الماجنة والحرّة من أية قيود ـ الحكام والسياسيين والقادة والدبلوماسيين إلى تدمر كي يشبعوا رغباتهم عند السيدة داندوريان والتي دعيت بحق ساحرة الصحراء.

ذات يوم وجد زوجها مقتولاً في حظيرة. أنت تعلم أن الفرنسيين والإنكليز كانوا يتنافسون للسيطرة على الشرق الأوسط بثرواته. كانوا في أوروبا علناً حلفاء لكنهم في الخفية وعلى أرض المشرق أعداء، ولذلك اشتعلت حرب سرية بينهما قتل فيها الكثيرون من الجواسيس وسياسيي الشرق، وأحياناً الأبرياء كان ضحايا هذه الحرب يختفون بين الحين والآخر من دون أي أثر لهم. أنا واثق بأنك تتذكر المغنية الفائقة الجمال أسمهان ـ التي قتلت لربما كانت تعرف الكثير أو أنها لم تستطع تنفيذ مهمتها. حسناً، وعلى أية حال، لنعد إلى تدمر فقد تهامس الناس آنذاك بأن الاستخبارات الإنكليزية قتلت زوج السيدة داندوريان لأنه عميل فرنسي خبيث ومهم جداً، لكن الإنكليز نشروا إشاعات بأن المرأة الفرنسية قد أعطت الأمر لعشيقها البدوي أن يقتل زوجها. على كل حال فضّلت الشخصيات المرموقة من الآن فصاعداً الابتعاد عن الفندق وأصبحت السيدة داندوريان بعزلة خانقة. هي، تلك المغامرة المتهورة أضحت وحيدة ومنسية بين الرمال. لم تستطع تحمل العزلة أكثر من ذلك. لذا قررت ذات يوم أن تبيع الفندق وتشتري مركباً حيث أبحرت قاطعة البحار السبعة إلى أن حصل تمرد في طاقم بحارتها. كانت السيدة

قد أصبحت عجوزاً وفقد لسانها سحره القديم ولم يبق من جبروت شخصيتها سوى عناد أحمق فهاجمت العصاة وهي تحمل مسدساً صغيراً. لكن البحارة حملوها ببساطة ورموها من على سطح المركب. سمعوا نداءها وهي تصيح: «زنوبيا، زنوبيا!» إلى أن التهمتها أمواج البحر.

حسناً، السيد جون كان يعرف قصة الملكة زنوبيا والتي قيل عنها إنها قتلت زوجها، الملك أذينة، لتتسلم الحكم بعده وتصبح أشهر ملكة في الشرق ولتعلن فيما بعد عصيانها على روما. وكمواطن إنكليزي مخلص صدق السيد جون أيضاً رواية الاستخبارات الإنكليزية أن عشيق السيدة داندوريان هو الذي قتل زوجها، لذلك خشي أن يأخذ زوجته الجميلة معه إلى الصحراء لكي لا يدفع حياته ثمناً لعشق البدو.

كان خوف السيد جون من البدو أكبر من كل شكوكه بالدمشقيين لذلك قرر اختيار البلاء الأصغر وترك زوجته في دمشق. كذب عليها عندما سألته عن السبب مدعياً أن لا فنادق في تدمر وأنه ومساعديه سيعاني من شظف العيش في خيام البدو الرديئة. وليريح ضميره شترى لزوجته مؤونة أسبوع كامل وهي فترة غيابه. وقد كرر تحذيره لها قبل سفره ألا تتعاطى مع الجيران العرب وألا تتكلم معهم وكانت تجيبه كما يجيب الإنكليز: «يس، يس، نو، نو».

في تلك الأثناء كانت نسوة الجوار قد تآمرن لصنع مفتاح لباب السيد جون. وضعوا المرأة في وسط حلقتهن وأخذن بنزع شعيرات ساقيها، على طريقة نسائنا. ثمّ احتفلن بها وراقصوها حتى أتقنت الرقص الشرقي وعلمنها الحيل والمكر اللذين تخدع بهما أذكى الرجال.

عمّي إن ما يتفوهن به في تلك الحلقات عن الرجال تشيب شعر الأطفال.

بعد أسبوع عاد الرجل الإنكليزي ووجد زوجته ـ كيف أشرح هذا؟ ـ قد تغيرت بعض الشيء. بدت متأنقة ومبتهجة جداً. أرته ساقيها وأخذت تضحك من لون وجهه الشاحب.

امتلأ السيد جون فضولاً واهتماماً، سألها: «هل تحدثت مع العرب؟». لكن زوجته نظرت إليه فحسب ورفعت ببطء من دون أن تقول كلمة... حاجبيها.

ضحك سليم إلى درجة شعر معها الحرفيّ بالذعر من قهقهاته الصامتة.

قال النحّاس: «هكذا» وكأنه فطن الآن لذلك: «فلنقل عشرين ليرة، إنهم يبيعون الصينية ذاتها بخمسين ليرة في سوق الحميدية، فهم يشترونها مني».

رشف سليم رشفة أخرى، وضع الفنجان على الطاولة، وأشار بأصابعه أنه لا يدفع أكثر من عشر ليرات».

«عمي، الله وكيلك، هذا قليل جداً، أنا أفضّل أن أقدمها لك هدية. يستغرق عمل صينية كهذه يوماً بأكمله. انظر إلى وجه السيدة، إنها تكاد تتحدث معك، وهذه الورود الجوريّة، هل تعلم كم استغرقت كل ورقة فيها من عمل؟».

أومأ سليم رأسه ولمح بأصابعه عن إحدى عشرة ليرة.

«عمي، هذا النحاس نشتريه من أميركا، وأنا أدفع ضعف ما يدفعه الآخرون ثمناً للمعدن الرخيص الذي يتحول لونه إلى أزرق ثم إلى أخضر بعد أسبوع واحد. هذه الصينية تخدم عندك العمر كله، خمس عشرة ليرة، إنها كلمتي الأخيرة».

رفع سليم حاجبيه، متشبثاً بعناد بليراته الإحدى عشرة ثمّ هبَّ واقفاً مستعداً للمغادرة.

«لا، أنا لا أريدك أن تغادر خالي اليدين. أعطني ثلاث عشرة ليرة. «ومن دون أن ينتظر إجابة العربجي، استدار منادياً باتجاه الدكان «إسماعيل، تعال إلى هنا، لفَّ هذه الصينية الجميلة للعمّ سليم».

أخرج سليم محفظته وأعطى صاحب المحل اثنتي عشرة ليرة، وهو يفرك كل ليرة بين أصابعه قبل أن يسلمها له، وكأنه يخشى على راتبه الحكومي أن يفارق صحبته بهذه السرعة.

«ألف مبروك! ليُبارك الله الشاي الذي يُقدم على هذه الصينية» قال الأجير وهو يسلّم اللفافة لسليم. ابتسم العربجي وأعطاه عشرة قروش. ثم التفت وأشار إلى فنجانه الفارغ وأومأ رأسه شاكراً إياه على الضيافة. كانت سعادته واضحة بهذه الصفقة، فقد أكل الزمن كل ألوان صينية الشاي القديمة.

أخذ الشارع يضيق أكثر فأكثر فيما تتعالى في المقابل صيحات الإنذار من الحمالين أكثر. «انتبه يا أفندي، أفسح مكاناً! انتبه، أفسح! انتبهي يا خانم!». كانوا يصيحون ويشقون طرقاتهم الملتوية بأحمالهم الثقيلة عبر بحر الناس الذي يزداد كثافة كلما اقترب سليم من سوق البزورية. كان على العربجي العجوز كذلك أن يشق طريقه بجهد وسط رنين الدراجات وزئير العربات وصيحات البائعين والحمالين والشحاذين وبالرغم من برودة الطقس إلا أنه بدأ يتعرق.

ما أن وصل سليم إلى سوق البزورية حتى أخذ استراحة قصيرة في مقهى صغير. كانت الطاولات المعدن بالكاد تتسع لفنجان من القهوة،

كأس ماء ومنفضة سجائر. كان الشخص الوحيد الجالس في الداخل رجل بشعر رمادي ولحية كثة بدا صديقاً لمالكها. مات الحديث الخاص ما أن دخل سليم المقهى. تمكن العربجي العجوز من التقاط كلمة ـ المزّة ـ سجن السياسيين»، «اليوم أبرد من البارحة». ظلّ القهوجي يردد هذه العبارة بين الحين والآخر وهو يمرر بين أصابعه حبّات مسبحته الكهرمان.

شرب سليم قهوته على مهل وأخذ يتفرج من النوافذ النديّة على الناس المسرعين في خطاهم باتجاه السوق. توقف حصان عجوز أمام المقهى، وعلى الرغم من برودة الطقس كان الحصان يقطر عرقاً ويلهث بقوة بسبب حمولة العربة الثقيلة، لقد علق دولاب العربة في حفرة عميقة وبدأ السائق الشاب بالشتم وضرب الحصان بسوطه بلا رحمة. شعر سليم بالتوتر وهزّ رأسه مستاءً إلى أن قام بعض المارة بمساعدة الحوذي بجر العربة الطافحة بالأكياس المنتفخة من الحفرة العميقة، حينها شعر العربجي العجوز بالراحة.

ما أن غادر سليم المقهى حتى لفّته غيمة عطرة آتية من سوق البهارات. كان الكمون، حبّ الهال والكزبرة يسيطرون على الموقف بعطرهم النافذ والذي غطى بقساوة رائحة باقي البهارات لكن الزعتر العنيد القادم من الجبال السورية لم يخمد له همة وكان من المستحيل تجاهل صوته العميق. بين الحين والآخر تهمس القرفة بلطف وإغراء حين يغفل أسياد البهارات إحكام سيطرتهم على أنوف المارة، وحدها براعم الزعفران التي تبقى صامتة مفضلة الاعتماد على لونها الأصفر المشعّ كي تجذب به المشترين.

الأكاذيب والبهارات إخوة. يمكن للكذبة أن تحول حدثاً مملاً باهتاً إلى طبق حرّيف! الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة هو ما ينتظر فقط القضاة سماعه. لكن الكذبة شأنها كالبهارات، لإضافة بعض النكهة وليس لطمس كل الطعم. «ليس قليلاً جداً وليس كثيراً جداً» فكّر سليم «هذه هي الطريقة المثلى لاستخدامها» توقف للحظة أمام مدخل حمّام نور الدين ثم حوّل نظره إلى رفوف الدكاكين الحافلة بأنواع البهارات الكثيرة.

مضت سنوات منذ دخل فيها حمام السوق آخر مرة. كان يستحم كل يوم سبت في مطبخه مستخدماً طشتاً قديماً من التوتياء. ما أن قطع أولى الخطوات إلى الداخل حتى اصطدم بشاب لا يستر بدنه سوى منشفة. صاح الرجل مذعوراً ـ كان يركض هارباً من رجل آخر يجري في أعقابه حاملاً سطلاً من الماء البارد. اكتظ المكان بالجنود الذين حجزوا كل الكراسي والمنصات في صالة الشاي حيث تمكن سليم من تمييزهم بسبب شعرهم القصير. فاحت رائحة عرقهم وهذا صدم العربجي العجوز. بدا الأمر وكأن الرجال لم يدخلوا الحمام قبلاً! كان صراخهم وضجيجهم أعلى من ذاك في مدينة الملاهي. كان حمام السوق في الماضي مكان سلام وسكينة يتوفران لكل زائر خبير. كان الجنود يصرخون طالبين مناشف إضافية. لم يسمع سليم بشيء كهذا طوال حياته، لأن العاملين في الحمام يوفرون دوماً مناشف كافية لنزلائهم منذ اللحظة التي يبدأون فيها بخلع ملابسهم. «لا بدّ وأنهم مجندون أو ضباط صغار السنّ». فكر سليم في أعماقه وأسرع خارجاً في اللحظة ذاتها التي بدأ فيها الشابان اللذان كانا يتراكضان قبلاً بالمصارعة على الأرض مقابل البحرة، وسط هتاف وابتهاج أصدقائهم الشديد.

شعر سليم فجأة بالجوع. ليس بعيداً عن الحمّام كان بائعان يعرضان لحم كباب، نقانق مشوية، لسانات مسلوقة وكبدة مشوية على المارة. كانا يتنافسان في مدح بضاعتهما بصوت عال وعدواني: «تعال وتذوقها قبل أن نبيعها». صاح أحدهما: «أنت لا تحتاج لأسنان كي تأكلها!». فرد عليه الآخر: «تعال لعندي، اللحم طري وسيذوب في فمك!». لبى النداء المغري العديد من المارّين ـ حيث أسال سوق البزورية لعابهم سلفاً. استمع سليم إلى النداءات العالية ثمّ استقر على الشراء من الرجل الذي يعرض الكباب مع البقدونس الطازج. وبما أن سليم رغب في تدليل نفسه فقد اشترى ثلاثة أسياخ بليرة واحدة. لكنه لم يستمتع إلا بالسيخ الأول فقط، ليس لأن البائع كان يبالغ في مدح بضاعته، أبداً فالبقدونس الطازج تجعل طعم الكباب ألذ فعلاً. لكن سليماً رأى ـ ما أن بدأ يأكل ـ رأسيّ خروف مسلوقين ومنضدين بجانب بعض على طاولة بداخل دكان الجزار. كان أحدها على اليمين يعض حزمة من البقدونس ولسانه متدل من فمه بزاوية غريبة وكأنه يرمي إضحاك الناظر إليه، فيما يبتسم الآخر بشماتة مكشراً عن أسنانه باتجاه سليم. قبض سليم على الكباب وأدار رأسه ناظراً نحو الأرض، لكنه رأى أيضاً رأس الغنم الثالث تحت دفة الجزار وسط كومة الفضلات، لم يكن قد سُلق بعد وكان الرأس المقطوع يحدق بسليم بعينيه الواسعتين المؤنبتين ولسانه المتدلي. لفّ سليم سيخي الكباب بالقطعة المتبقية من رغيف الخبز وأسرع في طريقه، شعر بضغط حارق لا يحتمل في معدته. انتظر حتى يُنعش الهواء النقي رأسه. بعد عدة أمتار قرفص بجانب دكان للتوابل ثمّ التهم سريعاً بقية الكباب مع الخبز لكن طعمها لم يعد لذيذاً كما كان.

ما أن أنهى وجبته حتى شقَّ طريقه عبر سوق الصاغة باتجاه الجامع الأموي.

كانت سكينة غريبة تلفّ قاعة الجامع العظيمة حيث يمشي الناس بهدوء على الأرض المغطاة بالسجاد الفارسي السميك، غارقين في أفكارهم أو مستغرقين في صلاة صامتة أو يجلسون ضمن حلقات حول معلم كهل، يتحدثون ويناقشون. كان الآخرون نائمين أو يحدقون بنقطة معينة في قبة المسجد العالية، على زخرفة في الجدار أو على السقف.

بدأت رِجْلا سليم تؤلمانه بالإضافة إلى وجبة اللحم التي أثقلت على معدته. تمدد على سجادة متسائلاً عن سبب هذا الخواء الذي بدأ يشعر به مؤخراً في رأسه، لم يشعر في حياته أبداً بصعوبة التفكير بموضوع ما حتى نهايته كما في الشهور الأخيرة. لقد أصبحت أفكاره ضبابية أكثر فأكثر ـ على الأرجح بسبب عدم قدرته على الكلام مع أحد. استنتج أن اللسان هو بمثابة يديّ الخزّاف، اللتان تحولان الصلصال إلى هذا الإناء النافع أو ذاك الشكل الجميل. ضحك سليم من بصيرته المضحكة أن بوسعه التفكير بوضوح فقط إن استطاع الكلام. ما أن أخذت فكرته هذه شكلاً حتى رأى زوجته آتية من عند المنعطف، فرك عينيه مدهوشاً. أقبلت سيدة نحوه مبتسمة وهي ترتدي ثوباً مخملياً أزرق اللون. كانت أصابعها الرقيقة ملونة بنقش الحناء وشعرها رمادي مصبوغ بخصلات حمر. ضحكت حين لمحته: «ماذا تفعل هنا، يا سليمي، يا فلذة قلبي؟ لمَ تنام هنا؟».

«لقد تعبت قدماي قليلاً، فأنا لم أعد شاباً كما كنت قبلاً. كنت في السابق أقطع الطريق من بيتنا إلى الجامع خلال ساعة، لكنها استغرقت مني الآن ثلاثة أضعاف المدّة».

«لقد أصبحت سلحفاة يا سليمي، ومثل السلحفاة ستعيش حتى تبلغ المائة. ألم أخبرك؟ ذات مرة كنتَ مريضاً جداً قدم ملاك الموت إليّ «حسناً أيتها المرأة العجوز»، قال قابض الأرواح، سوف آتي إليه قريباً وأنتِ ستبحثين عن رجل آخر غيره».

لكنّي ساومته إلى أن وافق آخر الأمر أن يأخذ عشر سنين من عمري ويهديك إياها. لقد دعاني بالمرأة المجنونة وهبَّ مسرعاً إلى عبدالله الصائغ. ألم أخبرك صباح ذاك اليوم بالتحديد، عن وفاة عبدالله في الليل؟ لقد ضحكت عليّ قائلاً: «عبدالله؟ إعقلي يا امرأة. لن يقربه ملاك الموت فللرجل سبعة أرواح مثل القطط. أليس هذا ما قلته؟ لكن ما الذي حدث؟ كان عبدالله ميتاً في سريره وأرملته لا تزال حتى اليوم حية ترزق. السبب في أن الزوجات يعمرن أكثر من أزواجهم لأنهن لسن بحمق هؤلاء كي يأخذن الحياة بهذه الجدّية. لكني رغبت أن أموت قبلك فأنا دائماً ما شعرت بالملل أثناء غيابك وأنا لا أحتمل الملل. هذا كل ما في الأمر. لا تنظر إليّ مرعوباً فأنا أعلم جيداً أنه لم تمض ثانية من دون أن تعشقني. وأنا، من ناحية أخرى، وجدت الحياة معك منهكة، لكنها على أي حال ليست مملة على الإطلاق. أليس هذا حباً كفاية؟ يا لها من صينية جميلة!».

«لقد اشتريتها للتو، إن صينية الشاي القديمة قد بليت تماماً». ما أن تفوه سليم بهذه الكلمات حتى لمح عفيفة وجارتيها تخطوان داخل المسجد.

«أعطني إياها، سأعدّ بعض القهوة للضيوف!» صاحت سيدة لكن سليم جار قائلاً: «ليس لعفيفة!» جذبت سيدة الصينية من يده.

صحا سليم مذعوراً. نظر فيما حوله. لقد اختفت الصينية. تطلع باتجاه الناس المتحلقين حول المعلم، كانوا لا يزالون يتناقشون بهدوء ولكن بانفعال أكثر. آه، نقاش حول الغنيمة! إنهم يجلسون هناك متظاهرين بالوداعة والسلام وينتظرون أن تغمض عينيا المرء نعاساً ثمّ يضربون ضربتهم. المعلم وطلابه، آه يا قدميّ! إنهم أشبه بعلي بابا والأربعين حرامي.

قفز سليم واقفاً وأسرع في مشيه. كم نام؟ وأين الصينية الآن؟ رأى سليم حين خرج إلى فناء الجامع حلقة من الشباب يجلسون في زاوية بعيدة. كان خادمان يكنسان الممر الشديد النظافة بأغصان نخيل ضخمة. مشى سليم على مهل خلفهما لكن لم يكونا يحملان الصينية، حاول أن يسأل الشبان مشيراً بيديه لكنه لم يلق سوى القهقهات جواباً.

بغيظ شديد غادر سليم الجامع الأموي مسرعاً نحو البيت. كان رأسه ينبض بتأنيب الضمير، بالإضافة إلى غضبه العارم من العالم اللصّ كله ـ من بين كل صواني الشاي، لم يختاروا سوى صينيته. سليم ما كان يوماً أكثر الرجال تقى في دمشق لكنه وفي ثورة غضبه صار من المتزمتين واعتبر الأمر معيباً بشكل خاص أن يُسرق في بيت الله. أخذت أفكاره تزداد كآبة أكثر فأكثر إلى أن بدأ يشم رائحة قوية من القار المحروق، بالرغم من أنه لا يزال قرب سوق البزورية.

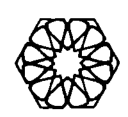
«يا عمّ، أنت يا عمّ» سمع أحدهم يناديه. التفت إلى الوراء فشاهد صبياً يلوح بيده قرب المقهى الصغير، كان يحمل الصينية عالياً ليراها سليم. حدق العربجي العجوز باندهاش شديد.

«يا عمّ، لقد اختفيت فجأة. هذه لك، أليس كذلك؟» سأله الصبي الذي قدم راكضاً يلهث بشدة.

أومأ سليم رأسه إيجاباً. أمسك جيداً بيد الصبي، الذي بدت آثار الجدري واضحة على وجهه، إلى أن أخرج ليرة من محفظته وسلمها له.

«يا الله، ليرة كاملة!» صاح الولد وطفق يرقص فرحاً. كان سليم يعلم جيداً أن أجرة صبي القهوجي هي ليرة واحدة لأسبوع كامل من العمل. شعر العربجي بالخجل لاتهامه المعلم وتلاميذه في الجامع. لكن سليم لم يكن من الناس التي تخجل لمدة طويلة، وسرعان ما أحسّ بالزهو وهو يحمل صينيته الجديدة التي سيقدم عليها الشاي لضيوفه في ذلك المساء. كان الاعتزاز هو الحمّام الأفضل الذي يزيل سريعاً شعوره بالذنب.

أسرع سليم إلى بيته، مخلفاً السوق القديم وراءه، وما أن فتح باب غرفته متأخراً في عصر ذلك اليوم حتى تحولت المدينة القديمة إلى أصوات بدأت بالهمس مبتعدةً ومتشابكة يحفل كل جزء منها بالحياة واللون كسجادة شرقية محبوكة بعناية.



كيف أشبع توق رجل لحلم جوع الآخرين؟

لا يعرف الناس الكثير عن يونس بالرغم من أنه يدير مقهاه قرب باب توما منذ أكثر من ثلاثين عاماً. يشيد الجميع بطيب قهوته اليمنية، عَرقه اللبناني المثلث، فستقه المصري المحمّص وتنباكه اللاذقاني العجمي، لكن لم يعرف أيٌّ منهم مسقط رأسه.

عرف الناس أن يونس اشترى في أواسط الثلاثينات حانة قديمة متهالكة ثم وسعها إلى مقهى - لم يدخر جهداً ولا مالاً في تحويلها إلى أكثر المقاهي جمالاً في الحي المسيحي. لكنه كان عاثر الحظ، فما أن فتح أبوابها حتى التهمت النيران تلك المقهى الرائعة. استنفدت ديونه عشر سنوات من عمره كي يعود إلى نقطة البداية التي انطلق منها آنذاك.

كان يونس في أكثر الأحيان كئيب المزاج وعبوساً على الدوام. تناقل الناس فيما بينهم بأنه كان في الماضي شخصاً سعيداً مرحاً كالكراكوز، لكن ما أن يسأله أحدهم عن رحيل مزاجه الطيب حتى يجيبه بجفاء: «لقد ولى محترقاً».

اشتهر يونس في الحي بالإضافة إلى مزاجه السيئ ونارجيلته الممتازة وقهوته اليمنية بزبادي الفول المدمس، فعلى الرغم من بخله في باقي

الأشياء إلا أنه كان كريماً بشكل ملحوظ فيما يخص صحن الفول حيث يمكن للزبون وبقروش قليلة شراء طبق مملوء بهذه الوجبة اللذيذة والعسيرة الهضم أيضاً. كل ما على المرء أن يفعله إنْ لم تشبعه السكبة الأولى هو أن يتوجه إلى يونس حاملاً الصحن الفارغ وأن يهمس: «صلّح من فضلك». فيسكب هذا مغرفة كاملة تملأ نصف الصحن ويرش الكمون والملح عليها ويمكن للزبون أن يأتي ثالثة من دون أن يبرر جوعه. وحده الفيل من يمكنه طلب «التصليح» الرابع. ما من مطعم آخر في دمشق بل في العالم كله حيث لكلمة «صلّح» هذا المعنى.

يتوقف مطبخ المقهى عن تقديم خدماته ابتداء من بعد الظهر، ليبدأ تقديم النراجيل وأكواب الشاي فيما يأخذ الحكواتي دوره بعد غروب الشمس. ليلة بعد ليلة يصعد هؤلاء الرواة المنصات العالية ليمتّعوا الزبائن بسير الحب والمغامرات. قد يتجاذب الزبائن أطراف الحديث مع بعضهم البعض ويقاطعون الحكايات بتعليقاتهم وشجاراتهم، ويطلبون من الحكواتي لعدة مرات أن يعيد سرد مقطع استمتعوا به بشكل خاص. من جهتهم، كان على الحكواتية التلاؤم مع الضجيج. لكن كلما زادت الإثارة كلما تباطأ الحكواتي في تتمة قصته وأخفض صوته، حينها يحث الزبائن بعضهم بعضاً على الهدوء والسكينة كي يتمكنوا من سماع باقي الأحداث بدقة. وما أن تصل الحكاية إلى ذروتها الدرامية ـ على سبيل المثال حين يتسلق البطل العريشة للوصول إلى حبيبته ويبقى متدلياً من على شرفتها متشبثاً برؤوس أصابعه ـ ليظهر فجأة أحد الحراس أو والدها في المشهد، حتى يتوقف الحكواتي عن سرد القصة ويعد المستمعين بتكملتها في أمسية اليوم التالي. يتعمّد الراوي القيام بقطع سرد قصة ما عند ذروة تشويقها كي يضطر الزبائن إلى العودة ثانية إلى مقهى يونس

وعدم ارتياد إحدى المقاهي المنافسة. في بعض الأحيان يتحمس المستمعون كثيراً فيصعد بعضهم المنصة ويعرضون على الحكواتي نرجيلة أو كوب شاي ويسألونه على انفراد تكملة القصة. لكن ما من حكواتي يجرؤ على البوح سلفاً بالجزء المشوق من الحكاية. لقد منعهم يونس منعاً باتاً من القيام بهذا الشيء «عودوا غداً وستسمعون التتمة» كانت هذه أجوبة الحكواتية الدائمة.

يروي الدمشقيون النوادر العديدة عن المشاجرات الحاصلة بين الزبائن الذين يقفون في صف إحدى شخصيات الحكاية. قد يأخذ بعضهم جانب عائلة العروس فيما يصرّ الآخرون على أحقية عائلة العريس. هناك قصص أخرى عن حالة بعض المستمعين الشديدي الفضول الذين يصل حد التشويق لديهم درجة لا يستطيعون معها النوم. يذهبون في منتصف الليل إلى بيت الحكواتي ويحاولون رشوته كي يسمح للبطل بالدخول إلى غرفة حبيبته أو ليهرب البطل من السجن. يقال إن قلة من الحكواتية كانت تقبل تلك العروض، إلا أنهم لا يقومون بذلك قبل أن يقسم مستمعوهم بعدم إفشاء السر كي يعودوا إلى المقهى في اليوم التالي، وهكذا لا يعرف يونس بأي شكل من الأشكال عن صفقتهم هذه.

حين وصل يونس بيت سليم، كان الأخير قد أنهى للتو إعداد الشاي والنرجيلة. لم يبد العربجي سعيداً فحسب بل أصغر بعشرين سنة.

سأله فارس: «هل كنت في حمام السوق؟».

فيما تساءل عصام قائلاً: «هل ذهبت إلى الحلاق؟».

هزّ سليم رأسه نفياً. أشار لهم بإصبعين من يده اليمنى وكفه اليسرى المبسوطة، بأنه كان في مشوار.

قال المغترب معجباً بالصينية الجديدة: «يا لها من صينية شاي جميلة. كم ثمنها؟».

صرح الوزير السابق: «أكثر من عشرين ليرة، هذا أكيد بالنسبة لعمل يدوي جميل كهذا».

«يمكنني الحصول على صينية مماثلة بخمس عشرة ليرة»، قال عصام أكثرهم مساومة وخبرة في البيع والشراء.

أومأ سليم رأسه موافقاً. كان سعيداً بصفقته التي لن تكون رابحة حتى يظن الجميع أن ثمن الصينية أكثر مما دفعه حقيقة.

قال الوزير ليونس: «إذناً دورك اليوم، لكن لا أظنها مشكلة لديك، لا بدّ وأنك قد سمعت آلاف القصص في مقهاك».

أجاب القهوجي: «أنت مخطئ يا صديقي، لا يروي الزبائن القصص الكثيرة في المقهى ولهذا السبب نحن نأتي بالحكواتي، إنه الشخص المحترف، فليس لمعظم الزبائن في الحقيقة سوى القليل الثمين ليروونه».

تعجب فارس: «إنها أول مرة أسمع فيها شيئاً كهذا، طالما ظننت أن الناس يرتادون المقهى للثرثرة لا أكثر».

«أجل، هذا ما يظنه الجميع، لكنك لو أدرت مقهى لسنوات عدة كما أفعل أنا لأدركت صحة كلامي. في البداية يكون الأمر ممتعاً أن تصغي لجميع الناس لكن سرعان ما يخمد ذاك السحر لأنهم في واقع الأمر يكررون الكلام ذاته مراراً وتكراراً. يثرثر أحدهم دوماً عن حالة

كبده السيئة فيما يستمر آخر بالحديث عن حظ ابنه العاثر، لن يشكل أي فارق قيام أحدهم ببدء الحديث عن الخيار مثلاً، لأنه ما أن يفعل ذلك حتى ينادي مريض الكبد: «الخيار غير صحي للكبد، وكان عليّ معرفة هذا. حين كانت صحتي جيدة..». ثمّ يعاود الحديث عن موضوعه. في هذه الأثناء يكون والد الابن التعس غير مبال بحديثهما هذا لأنه يتربص لأول فرصة أو أية إشارة تسمح له بمعاودة الحديث عن ابنه. بعض الأشخاص لا يتحدثون بتاتاً عن أي شيء - إنهم يرددون العبارة ذاتها من وقت لآخر. كان لي زبون من منطقة الشمال يشرب كل يوم خمس كؤوس من العرق - لا مرة أربع ولا ست. يجرع كأسه الأولى بصمت تام، ثم يبدأ عند الكأس الثانية بتأليف هذه الأبيات السخيفة.

وخزه توما قائلاً: «أنت لا يعجبك العجب ولا الصيام برجب، أليس كذلك؟».

ضحك يونس ضحكة صفراء عبرت عن امتعاضه لذكرى «عليك أن تسمعه يقول: بصحتك، يونس!» هكذا يصرخ وهو يرفع كأسه الثانية «سأشرب كأس تونس».

ضحك عصام قائلاً: «مع الكأس الثالثة، بصحتك نعمان! سأشرب نخب عمان».

«أجل، هذا واقع الحال فهو يستهل كل ليلة بشرب نخبي ثم ينتهي بعاصمة من عواصم العالم وهكذا ترون مقدار ما يتحدث به الزبائن في الحقيقة. لكن حتى هذا يعدّ جنة مقارنة بأيامنا هذه، اليوم لا يفتح أحد فمه في المقهى، لقد صاروا أكثر صمتاً من السمك وهم يستمعون إلى الراديو الملعون. في البداية كنت أظن أن الراديو نعمة بالنسبة للمقاهي، حتى إني

اشتريت واحداً بنفسي، مذياعاً غالي الثمن لأسمع شيئاً من الموسيقى بين الفينة والأخرى ـ لكن منذ أن أنزلت الحكومة الجديدة إلى الأسواق هذه الترانزستورات المحمولة بعشر ليرات بائسة لم يعد أحد يتحدث في المقهى. في الماضي، إن كان عدد الزبائن في المقهى عشرين فسوف يتحولون إلى عشرين نبياً حيث يفضي كل واحد منهم ما في نفسه بصوت جهوري عالٍ من دون خشية أحد. تسأله عن أية مسألة فيعطيك جواباً عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها. أما اليوم فلا يمكنك سرد نكتة من دون أن يرمقك أحدهم شذراً وبعين الشيطان ويسألك بخبث من تعني بكلمة «مغفل» أو «حمار». عليك قبل أن تروي أي خبر أن تحمي نفسك من أي شيء تتفوه به وأن تكون قد أصغيت لآخر الأنباء والمستجدات كي تعرف من هو صديق وحليف أو عدو الحكومة.

كنت البارحة في مطعم ابني وبما أنني كنت مؤخراً شديد القلق على حالة سليم حتى مضت أسابيع لم أستمع فيها للأخبار. حسناً، أحضر لي ابني كوباً من الشاي وأخذت أخبره عن أختي الصغرى المتزوجة لبنانياً والتي تعيش في بيروت منذ أربعين عاماً. فجأة تدخل شخص غريب وصاح بصوت عال: «أنا لن أدع أختي تتزوج أي لبنانيّ كلب!» همس ابني قائلاً إن الرجل من الاستخبارات وقد صرح رئيسنا قبل البارحة أن لبنان صار بلداً عدواً لنا. لم تكن لديّ أدنى فكرة عن الموضوع، لقد غضبت إلى درجة كنت مستعداً معها لضرب هذا الثرثار أكثر من مرة بعكازي كي أعلمه ألا يهين مرة ثانية في حياته من هو أكبر منه سناً ـ لكن ابني رجاني ألا أفعل قائلاً: «سوف يدمرني عملك هذا، سيغلقون المكان خلال ساعات» فقد يلقي أحدهم كمية من الحشيش في زاوية ما أو يدسّ كتاباً للينين. ستقتحم الشرطة المكان بعد ساعة

وسيجد رجالها الحشيش وكتاب لينين في الموضع ذاته حيث خبأها رجل الاستخبارات. سيختم المكان بالشمع الأحمر ويزج مالكه في السجن لعشر أو عشرين سنة.

بحق الجحيم كيف يمكن أن يتحدث الناس مع بعضهم البعض عن كل ما يشغل قلبهم وعقلهم؟ كل ما عرفته عن لبنان بأنه كان هناك أعمال شغب وقتال. هل هذا سبب كاف كي أتبرأ من أختي؟».

أحسَّ فارس، الوزير السابق، بالانزعاج. كان لغرفة العربجي الصغيرة، نافذة تطل على الحارة وعلى الرغم من البرد القارس في الخارج وقلّة المارّة إلا أن انزعاجه كان يزداد كلما علا صوت يونس. وفي تلك الليلة كان يونس ثائراً حانقاً وصوته يرعد عالياً ليصل إلى ثلاث أحياء. غمز فارس توما فأومأ الآخر رأسه مشيراً بأنه فهم قصده.

«لكن الحكواتية كانوا يروون القصص، أليس كذلك؟ أي نوع من القصص؟» قال هذا موجهاً كلامه ليونس.

أجابه: «أوه، إنهم يروون القصص حقاً. لا بد وأنني سمعت الآلاف منها، كما تعلمون جميعكم فقد ارتاد مقهاي خلال هذه السنوات الأربعين العديد من الحكواتية. حسناً، كانت ليلة البارحة هي المرة الأولى التي أفكر فيها بعمل الحكواتية. في الحقيقة كان أكثرهم سيئاً والمهرة كانوا قلّة منهم فقط، فكل من يسبب الملل لمستمعيه لهو حكواتي سيئ.

على القصة أن تكون شهية كوجبة الطعام تماماً، وإلا فإن معظم زبائني سيدفعون تعريفة نراجيلهم ويغادرون المقهى ولا يعودون إليه، يمكثون في بيوتهم فهناك لا يكلفهم إحساسهم بالملل أي مال.

الحكواتي الرديء، هو الذي يجهل متى يشعر مستمعيه بالملل. لكن على فكرة هل تعرفون من هم أفضل المستمعين؟» سأل يونس وأجال نظره وكأنه أستاذ يفتش عن تلميذ نجيب.

«النساء» أجاب الأستاذ مهدي. الوزير السابق قطب حاجبيه وهز رأسه مستنكراً.

«لست أدري»، أكمل يونس حديثه، «فالنساء لم يرتدن مقهاي ولا يدخلن مقاهي دمشق الأخرى. لكني اكتشفت بالصدفة أن الأطفال هم أفضل المستمعين وأكثرهم حساسية. فلقد رأيت بأم عيني كيف يتسامح البالغون بأدب وتربية مع أكثر المحدثين مللاً. وقد راقبت ذلك لسنين كيف أن بعض زوار المقهى تعلم بتربية أهله القاسية ليس فقط بالتظاهر بالاهتمام بما يثرثر به أحدهم بل حتى على التثاؤب بفم مغلق.

وفي أحد الأيام عشت الفرق الرهيب بين الأطفال والبالغين. في عرس ابني الذي دام ثلاثة أيام دعوت أحد الحكواتية ليرفه عن الأطفال الذين زاد عددهم على الخمسين طفلاً. وعندما أخبرتهم بأن حكواتياً سيأتي بعد ظهر اليوم تطايروا فرحاً، وعندما أتى الرجل تحلقوا حوله كالعراضة يتسولونه قصة. وكنت آنذاك قد تعبت من تحضير العرس فجلست مع الأطفال لأروح عن نفسي بقصة مشيقة.

عندما بدأ الحكواتي أصغى الأطفال لكلماته بشغف العاشق لكلمات حبيبته... لكن ما أن مضت دقائق حتى لاحظت كيف بدأ الأطفال واحداً بعد الآخر بمغادرة عالم القصة والرجوع إلى دنياه غاضباً لإحباط أمله، وما أن شعروا بأنهم كثرة حتى بدأوا بمهاجمة الحكواتي بتعليقاتهم التي صوبوها كسهام مسمة إلى صدره: «أليس عندك غير هذه الرواية

النعسانة؟ هات واحدة أخرى!» نادوه وهو يحاول أن يثير مستمعيه بعراك بين تنين وغول له أول وليس له آخر. ضحك الأطفال وعلقوا على التنين والغول بسخرية. وظلوا يهاجمونه حتى توقف مرغماً عن الحديث. لقد كان سيئاً للغاية. هكذا هم الأطفال يدفعون كل شيء سواء شعورهم بالرضا أو الرفض نقداً مثلما يدفعون ثمن البوظة عند البائع.

لكن هل تعلمون ما يحيرني ويثير دهشتي كثيراً، هو أن الحكواتية المهرة لا يحتاجون في رواياتهم لبساط ريح ليطير في الأرجاء، أو لتنين ينفث النار أو حتى لساحرات تمزجن إكسيرات مجنونة. إنهم يبقون مستمعيهم مأخوذين بحديثهم حتى عندما يروون حكايات عن أبسط الأشياء والأمور.

لكن على كل حكواتي، حتى السيئ منهم، أن يتمتع بذاكرة قوية، حينها لن يضيع خيط روايته سواء كان حزيناً أو قلقاً لأمر شخصي. لكن ليس ضرورياً أن يمتلك ذاكرة مذهلة كذاكرة سليم، لكن أن تكون قوية كفاية وإلا سيضيع الحكواتي تماماً».

أيّد الحلاق قوله: «يا الله، إن كان هذا كل ما تحتاجه فهذا سهل».

اعترض الحداد ضاحكاً: «أما ذاكرتي فعلى روحها السلام. الآن وفي هذه اللحظة لا يمكنني تذكر ما أكلته قبل يومين».

قال المغترب: «لا، موسى على حق، العالم بأسره يعرف أن العرب يملكون ذاكرة قوية. إنهم لا ينسون أبداً، ولهذا السبب يحبون الجمل. الجمل لا ينسى شيئاً كذلك. لكن الذاكرة الجيدة ليست نعمة على الدوام، بل يمكن أن تصبح لعنة أحياناً، هل تعرفون قصة حمد؟».

احتج المعلم: «لا، لكن اليوم ليس دورك».

اقترح عصام قائلاً: «دعه يخبرنا بالقصة، أحب أن أعرف كيف تتحول الذاكرة القوية أحياناً إلى لعنة، طبعاً في حال موافقة يونس ـ إنها ليلته برغم كل شيء».

ابتسم يونس: «هيا ابدأ، نحن لسنا تلاميذ مدرسة».

باشر توما حديثه قائلاً: «اوكي، عاش فلاح يدعى حمد في إحدى القرى وذات يوم أراد مختار القرية الاحتفال بزفاف ابنته الوحيدة. كانت احتفالات العرس آنذاك تستمر لسبعة أيام بلياليها. دعا والد العروس سكان القرية أجمعين، فلم يكن لكرمه حدود. كان عشاء الليلة الأولى فاخراً: خروف مشوي، أرز مطبوخ بالسمن البلدي، فاصوليا وسلطة بالبصل والثوم. كان الطعام شهياً ولذيذاً حيث تمتع الضيوف بالاحتفال السخي، وحمد الذي عاش معظم حياته جائعاً بالغ بالاحتفال فالتهم خلال ساعتين فخذ خروف بأكمله، وقدراً كبيراً من الأرز وقدراً أكبر من السلطة.

أوكي، ـ حسناً شعر حمد وفي وقت متأخر من الليل بمغص وضغط غازات شديدة في بطنه، كان يجلس على أرضية القاعة، وحين أصبح الوضع لا يحتمل، حاول النهوض والتوجه خارجاً، لكن ما أن وصل نهوضاً إلى القرفصاء حتى أفلتت من مؤخرته «ضرطة» مدوية بموجات مفرقعة وكأنها تفجير في وادٍ سحيق يرافقه رعد غيمة سوداء قريبة. حدث هذا في اللحظة التي أخذ شاعر القرية فيها يمدح جمال العروس وسحرها، وبالذات أثناء قوله: «يا نفسك عطر ياسمين!» ضحك الناس عالياً لكن المضيف رمى حمد بنظرة قصفت عمره. أنتم

تعلمون أنه من الأفضل للضيف أن يطعن مضيفه بسكين من أن «يضرط» أو يتجشأ على مائدته، في مناطق أخرى من العالم يعدّ المضيف نفسه محظوظاً عندما يتجشأ ضيفه.

عقب يونس قائلاً: «لا بد وأن هؤلاء الناس مجانين، لا يمكن ولا في أي حال من الأحوال أن يجرؤ أحد في مقهاي على عمل شيء كهذا».

«أوكي، كما تعلمون، بلاد أخرى وعادات أخرى» قال المغترب مدافعاً عن المتجشئين في كل أنحاء العالم.

احتج عليّ قائلاً: «لا، بلا عادات بلا بطيخ، هذا ليس لائقاً، لم يعد ينقصنا سوى أن يقول أحدهم لمن «يضرط»: صحة أو نعيماً».

صاح فارس: «هيا، دعوا توما يكمل قصته وإلا لن يصل دور يونس».

«أوكي، كما كنت أقول، شعر حمد بالخجل الشديد فأسرع هارباً من الحفل. لأيام والناس صغاراً وكباراً يهزأون منه في قريته وينادوه «أبو ضراط»، حتى لم يعد بوسعه التحمل. حزم أمتعته وسافر إلى البرازيل. في ذاك الوقت كان الكثير من العرب يهاجرون إلى أميركا اللاتينية، بعضهم بسبب الفاقة وآخرون مثلي بسبب ملاحقتهم، أما حمد فكان بسبب «ضرطه».

لأربعين سنة عمل حمد في المهجر، كانت حياته شاقة كما يمكنني من تجربتي إخباركم. مع هذا، فقد سعى حمد لتأمين مستقبل مقبول وصار ثرياً. ذات يوم غلبه الشوق لمرأى قريته، فدفع مبلغاً كبيراً ليسافر من البرازيل إلى سورية. ما أن وقعت عيناه على حقول قريته حتى طلب

من السائق الوقوف. أوكي، رغب حمد أن يشمّ تراب أرضه ـ وأن يعود إلى القرية مشياً على الأقدام كما غادرها. مشى على مهل باتجاه القرية مستمتعاً بالهواء النقي وجثا مرات ليلمس ترابها. فور وصوله مقبرة القرية في مدخل القرية غلبه الفضول لمعرفة أسماء من رحلوا أثناء اغترابه الطويل. دخل المقبرة وأخذ يتجول من قبر إلى آخر قارئاً أسماء الراحلين ومصلياً على أرواحهم. فجأة رأى قبر أحد رفاق طفولته، بدا شديد الدهشة لأن صديقه هذا كان مثالاً للصحة. لم يكن هناك تاريخ على القبر، حينها شاهد سيدة مسنة تعتني بقبر في الجوار. ذهب نحوها وحياها قائلاً: «السلام عليك يا خالة، لقد وصلت الآن من البرازيل وعلمت أن إسماعيل قد مات. يبدو قبره قديماً ومتهالكاً، هل تخبريني متى توفي؟».

أجابت السيدة العجوز: «يمكنني إخبارك بالضبط. لقد مات إسماعيل بعد سنتين على ضرطة حمد، وماتت زوجته بعد ثلاث سنوات.

صاح حمد مثل المجنون وأسرع عائداً إلى البرازيل».

قال المعلم مقترحاً: «قصة جميلة، ولكن ألا تظنون أن الوقت قد حان لسماع قصة يونس».

قال القهوجي: «لقد نسيت أين وصلت».

«كنت تتحدث عن وجوب امتلاك الحكواتية لذاكرة قوية» قال عصام مذكراً إياه.

«هذا صحيح، كما قلت، على كل حكواتي امتلاك ذاكرة قوية، لكن أريد القول أيضاً إن مهنتهم هذه شاقة جداً. كنت أراقبهم ليلة بعد

ليلة، ينزل الحكواتية من منصتهم كل ليلة منهكين وكأنهم عمال كادحون. وهم لا يكسبون سوى القليل. كنت أسألهم أحياناً وأنا أدفع لهم أجرهم: لمَ تقومون بسرد الحكايات كل ليلة مقابل هذا المبلغ الزهيد؟ فيجيب البعض: نحن لا نجيد مهنة أخرى، آباؤنا وأجدادنا كانوا حكواتية. لكن ذات يوم أجابني أحد أفضل الرواة على هذا الشكل: إن مستمعيّ يدفعون لي جيداً، وذهب العالم كله لا يعادل سعادتي في رؤية هذه المعجزة التي تحدث في الصالة كل ليلة. حيث تتحول قصصي أسوداً ضارية متوحشة إلى أطفال وديعين ومتلهفين لمتابعة القصة.

حسناً، فكرت طويلاً وجاهداً بمَ أخبر سليم وأخبركم هذه الليلة، طبيعي أن أتذكر بعض قصص الحكواتية، لكن تملكتني الرغبة أن أحكي لكم قصتي. نحن أصدقاء منذ أكثر من عشر سنين وأنتم بالكاد تعرفون شيئاً عن حياتي. إنها قصة غريبة بما يكفي.

حسناً، أنا لا أعلم متى ولدت، قالت أمي إنه كان يوماً حاراً جداً. «كنت أصغر إخوتي العشرة».

اعترض فارس قائلاً: «أرجوك انتظر لحظة» وأسرع خارجاً إلى المرحاض. اغتنم علي الفرصة ليرمي قطعتين كبيرتين من الحطب داخل المدفأة فيما بثّت توما نظارته.

ما أن عاد فارس حتى وقف أمام المدفأة ليبث الدفء في يديه المتجمدتين فيما أخرج يونس علبة العطوس من جيب صدريته، وضع باحتراس كمية من التبغ المعطر في فجوة إبهام يده اليسرى وتنشقها بعمق محركاً رأسه إلى الأمام والخلف ثم نظف انفه بمنديله الكبير واتكأ إلى الخلف.

«حسناً» بدأ يونس حكايته حين اتخذ فارس مكانه ثانية «كنا نعيش في بلدة حرستا، التي كانت آنذاك قرية صغيرة. كان أبي نحاتاً فقيراً، حيث تشاركت مع اخوتي التسعة الغرفة الصغيرة، ستة صبيان وثلاث بنات، وكانت هناك غرفة أخرى تستخدم كمطبخ أثناء النهار وغرفة نوم لوالديّ في الليل. لم أعش طفولة سعيدة، لكني طبعاً، أعيشها الآن مع أحفادي...

حسناً، اعتدنا الاستيقاظ كل يوم عند الساعة الرابعة صباحاً. كان ثلاثة من اخوتي الأكبر سناً يذهبون مع أبي كل صباح إلى ورشة البناء كي يتعلموا حرفته. أما الباقون، فيعمل أحدهم عند قصاب والآخر عند خبّاز فيما وجد الثالث عملاً عند مجلّخ سكاكين ـ كانوا لا يكسبون شيئاً يذكر. وكانت البنات تساعدن في أعمال المنزل ما أن تصبحن قادرات على المشي.

كانت المدرسة آنذاك غرفة مظلمة في جامع القرية. هناك كان السيد القهار، شيخ شبه أمي لديه عصي متنوعة يضعها بجانبه، منها الطويلة ليصل من مكانه لرأس كل تلميذ ومنها القصيرة من عود الرمان أو السفرجل للضرب عن مسافة قصيرة، ومنها خاص للفلقة يساعده على ذلك طالبان يمسكان بالمحكوم عليه ليجلده على رجليه وظهره حتى يسيل دمه، وهو الحاكم القاهر الذي كان أهل الأطفال يعطونه الحرية الكاملة في تعذيب أبنائهم. كانوا يقولون له أينما قابلوه: «لك اللحم ولنا العظم» مما يزيد جنون عنفه.

وكنا نجبر على حفظ القرآن بصماً ونتعلم حروف الأبجدية على طريقة غناء أهبل: الألف لا شيء عليها. الباء نقطة واحدة من تحتها.

والتاء اثنتان من فوقها والثاء ثلاثة من فوقها وكل ذلك بعامية عريضة بحيث إذا سأل أحدهم أحد التلاميذ ما هو حرف الألف أسرع هذا بالإنشاد: «اليف لا شن عليها». والذي لا يفهم بسرعة ما هو الشن تفهمه العصى التي تهوى على رأسه.

كان الأطفال يصدحون بالأبجدية كل صباح ولأكثر من ساعة وهم يعيدون: أليف لا شن عليها. بي وحدة من تحتها. جيم واحدة من تحتها، حا لا شن عليها، خا وحدة من فوئها، دال لا شن عليها. وكلما علا صوت التلاميذ كلما انفرجت أسارير الشيخ. كانت العصا ترفرف كالغراب فوق رؤوسنا لتهوي على كتف ورأس كل من يسكت أو لا يصيح فيبدأ بالصياح. وما أن انتهينا من الأحرف حتى بدأت المرحلة الأقسى وهي حفظ القرآن آية فآية وسورة فسورة بصماً ومن دون فهم أي جملة، كان علينا تحت التعذيب والركل والصفعات إعادة سور بكاملها من دون خطأ في التشكيل ويا ويل من نصب فاعلاً وجر مفعولاً به. هذه المدرسة كانت بالنسبة لي مصدر الرعب اليومي حيث يقوم الشيخ العجوز بتعليمنا كل أنواع الرفس والتعذيب أكثر من تعليمه إيانا القرآن. ومع هذا، لم يفقد أبي أمله في أن يصبح أحد أبنائه شيخاً. لم يكن متديناً كثيراً، لكن أية عائلة كانت تحظى باحترام كبير في القرية إن صار أحد أفرادها شيخاً. قام بإرسالي إلى هذا الشيخ السادي المرعب، لكني كنت كأخوتي فلم أحتمل أكثر من سنتين. كانت هزيمة مؤلمة لوالدي، وبما أنني ابنه الأصغر فقد كنت أيضاً خيبة أمله الأخيرة. لم يعد يكلمني منذ ذلك اليوم، توقف عن الأمر كلية. مرت سنوات وهو لا يرد تحيتي، عاملني وكأنني هواء، كأنني غير موجود بالأصل حتى أنه لم يعد يضربني. بهذا القدر أثرت فيه خيبة الأمل الأخيرة هذه.

في الحقيقة، أنا لم أهتم كثيراً بمستقبلي ـ كل ما عرفته آنذاك هو عدم رغبتي في العودة إلى شيخ الكتّاب، كنت أفضّل الموت على الذهاب لعنده. بدا الشيخ الخرفان وكأنه سيعيش إلى الأبد، لم يرغب في تقدم أي من طلابه إلى مرتبة ينافسه فيها على مرتبة شيخ القرية. وحين آتاه أخيراً قابض الأرواح، كان مستحيلاً إيجاد من بين ثلاثة آلاف نسمة من سكان قريتنا، شاباً واحداً يمكنه تلاوة وفهم القرآن بشكل مقبول. على هذه الدرجة من السوء كان هذا الإمام. اضطروا إلى استدعاء شيخ آخر من بلدة دوما، من أجل المحافظة على وجود المسجد. كان الإمام الجديد لطيف المعشر لكنه في المقابل شديد النهم للطعام بحيث تمنت كل دجاجات القرية لو كان بوسعهم الهجرة إلى أميركا. . . لكن هذه قصة أخرى.

حسناً، استأجر والدي حقلاً بمبلغ ضئيل كي يزرعه قمحاً وخضراوات لتأمين لقمة العيش للعائلة. كنت أقوم أنا وأمي وأخواتي الثلاث بكل الأعمال الضرورية ولا نرتاح إلا في فصل الشتاء. نقوم منذ بداية الربيع بالاستيقاظ قبيل طلوع الشمس كي نعمل في الحقل ونبقى طوال اليوم ونحن نعزق الأعشاب الضارة، نزرع الأرض ونسقيها مراراً وتكراراً حتى تنضج الخضراوات ثم نقطف الباذنجان، الكوسا، البندورة والخيار.

كانت سلة من الخضراوات هي أقصى ما يمكن أن نجنيه كل يوم. كنت أذهب إلى السوق بنفسي فوالدي لم يرغب بذهاب البنات إلى هناك، بالرغم من أن العديد من النسوة والفتيات الصغيرات قد اعتدن البيع في السوق. في البداية كنت أحمل السحارة الثقيلة على رأسي

لكني قمت فيما بعد بتركيب عربة بدائية من دولابين وقضيب معدني قمت بتثبيتها مع بعضها وهكذا تمكنت من جرّ السحارة بسهولة ورائي. منذ ذاك اليوم أصبح الذهاب إلى السوق متعة. كنت أستمتع ببيع الخضراوات. كان السوق يعج بالحياة إلى درجة ساعدني على نسيان تعبي في أعمال الحقل. في الصيف، إن كان البيع جيداً، كنت أدلل نفسي بقطعة بوظة. كانت تلك وجبة احتفالية بالنسبة لي. كنت أقوم أولاً بغسل يديّ ووجهي عند عين الفيجة، ثم أمشي باتجاه بائع البوظة وأقوم بطلبها بصوت عال قائلاً: «سيدي، هل تتكرم بيديك الكريمتين وبتوصية من قلبك الطيب، أن تقدم ليّ بوظة بنصف القرش الحلال هذا!» هنا يضحك بائع البوظة سعيداً ويقدم لي ملعقة بوظة زيادة.

على الرغم من إنهاكي الشديد بسبب العمل والاستيقاظ باكراً أكثر الأحيان، إلا أنني كنت أبقى صاحياً أمام بضاعتي لكنني غفوت ذات مرة فقام أحدهم بسرقة باذنجانة.

حسناً، كان هناك ما هو أسوأ من الطاعون بالنسبة لي، إنه وقت حصاد القمح. كان العمل بالمنجل مثل جهنم لما يسببه من آلام في الظهر واليدين. كنا، أنا وأمي وأخواتي، نحمل القمح المحصود إلى بيادر القرية لنقوم بدرسه. لم نملك أية مناجل حادة أو حبال متينة، لم نملك حتى حماراً ـ بالرغم من أنني كنت أفضّل أن أكون حماراً كي لا أشعر بكل ذلك الألم في جلدي. كان التبن الملعون يحرق عينيّ وحنجرتي، والشمس تحرق جلدنا من دون رحمة. كنت لأتخلى عن العالم كله مقابل ظل صغير وقطرة ماء باردة.

كانت أمي مريضة معظم الوقت، كانت كذلك منذ أن وعيت أنا

على الدنيا، لكنها لم تكن تسمح لنا بالذهاب وحدنا إلى الحقل. وبالرغم من عدم قدرتها على المشي كثيراً، إلا أنها كانت ترافقنا وتظل جالسة وسط الحقل تغني كي تبث فينا بعض البهجة. كانت أغنياتها مرحة، أذكر أننا ضحكنا ذات يوم إلى درجة انهالت معها دموعنا. كنا قلقين حيال صحتها ونتوسل لها دوماً البقاء في البيت لكنها لم ترغب أبداً في تركنا وحيدين، «طالما أنا حيّة أريد أن أمتع عينيّ بمرآكم» كان هذا قولها الدائم.

كانت ترافقنا بعد الحصاد إلى البيادر، وتمكث هناك رغم الحرارة الشديدة. كانت الأرض في هضبة البيادر جرداء غبراء لا حياة فيها لشجرة واحدة.

كان العمل في البيدر شاقاً وحين نتعب كنا نهرع إليها، نلقي برأسنا على حضنها قليلاً فيما تنحني فوقنا لنتفيأ بظلها. كانت أمي ظل الحياة في جحيم تلك الهضبة.

ماتت أمي في يوم ربيعي. كنت آنذاك في سنتي الثانية عشرة. ركضت بين الحقول مثل المجنون وأنا أصرخ منادياً عليها. صحت عالياً، بكيت ولعنت السماء وبقيت طوال الليل في البساتين وحدي. أنا واثق اليوم أن الألم الذي شعرت به تلك الليلة قد أصابني بمسّ من الجنون. في صباح اليوم التالي أخذت أركض وأركض عبر قرى لم أرتدها قبلاً. أوقف أشخاصاً في الشارع وأسألهم: «أتظنون حقاً أن أمي قد ماتت؟». كان معظم الناس يدفعون بي جانباً لكن آخر الأمر اصطحبني أحدهم معه، بالرغم من أنني لا أملك أدنى فكرة عن هويته حتى الآن. كل ما أذكره هو خوفي الشديد من منظر الغرفة، مصباح

الكاز الضعيف المتوهج بين الفينة والأخرى. كانت الغرفة خالية باستثناء ـ حصيرة وكرسي بلا مسند ـ وفي أعلى السقف جسر خشب ثخين وملتوٍ بشكلٍ غريب في منتصفه. جثمت عند الزاوية وأخذت أحدق بالجسر لوقت طويل قبل أن أسقط نائماً. لا أذكر متى عدت إلى القرية وأنا أكاد أموت جوعاً ومنظري أشعث تماماً، أخبرتني أخواتي أنه قد مضى شهر على رحيل أمنا.

حين قدم موسم الحصاد تلك السنة، قمت ببناء عرزال صغير من الأغصان اللدنة وأوراق الشجر على أرض البيدر ودعوته مع أخوتي «أمي».

حسناً، تزوجت أختي الكبرى في سن السادسة عشرة بعيد وفاة أمي بوقت قصير، فيما توجب على أختي الثانية ذات الخمسة عشر ربيعاً الاهتمام بشؤون المنزل وحدها، وهكذا اضطررت مع أختي الصغرى التي تزيدني بسنة واحدة القيام وحدنا بأعمال الحقل. وأما عمل البيدر فكان من نصيبي لوحدي. كان علي تقليب القمح والقيام بحراسته حتى مغيب الشمس، ثم يأتي دور أبي ويريحني من العمل من دون أن يحدثني بكلمة واحدة ويقضي الليل في البيادر. أمر لا يصدق! كان يأتي، يجلس أرضاً ويحدق في الأفق البعيد. كنت أقبّل يده باستمرار لكنه كان يدفعني جانباً ويمسح ظاهر يده من أثر القبلة. كنت كل يوم أخشى هذا اللقاء، وكل يوم أقبّل يده وكل يوم يدفعني بعيداً عنه.

كان القمح يأخذ وقتاً ليجف، وزخة مطر واحدة تعني قضاء عدّة أيام إضافية في أرض البيادر. كنا نحرس القمح على مدار الساعة إلى أن يعبأ بأكياس ويصل بأمان إلى منزلنا. كانت تلك الفترة صعبة للغاية

والناس تكاد تموت جوعاً. سمعنا أكثر القصص غرابة عن اللصوص الذين يسرقون بوقاحة القمح في وضح النهار أثناء قيلولة الفلاح عند الظهر.

كنت أضطر للمكوث في البيادر طيلة اليوم. كان قلة من صبية القرية الأفضل حالاً مني يلتقون يومياً ويتنزهون عند الجدول ذهاباً وإياباً حتى نبع القرية. كنت أراقبهم وأكاد أموت غيظاً وحسداً لعدم مقدرتي على مشاركتهم اللعب.

حسناً، ذات يوم رأيت الصبية متجمعين عند نبع القرية. كانت أختي في مزاج حسن وسمحت لي باللعب معهم لساعة واحدة. حين وصلت إليهم، كانوا يجلسون ضمن حلقة ويشربون الشاي الذي أعدّوه على نار صغيرة أضرموها ويسردون القصص كل بدوره.

جلست أرضاً بالقرب منهم، عندما أتى دوري بدأت أروي قصة جميلة، لكنهم ضحكوا وقالوا: «نحن لا نريد أن نسمع قصصاً، نريد أن نعرف ماذا حلمت الليلة الماضية؟». شعرت بالذعر ـ لم أكن قد سمعت قبلاً بكلمة «حلم». استغرق الأمر بعض الوقت كي أفهم لمَ بدأ كل قصته بجملة: «حلمت أني كنت. . .» أخبرت الأطفال بأنني لم أحلم قبلاً.

«لا عجب في هذا» قال ابن المختار، «وكيف تحلم أيها الشيطان المسكين! أنتم تنامون عشرة أشخاص في غرفة واحدة كالسردين في علبته، وتستيقظون عند انبلاج الفجر. يحتاج الحلم إلى وقت طويل ومساحة كافية!» لن أنسى ما حييت هذه الكلمات. لم أستطع النوم تلك الليلة. أخذت لحافي وتسللت خارجاً من الغرفة. مضيت نحو البيادر

واستلقيت بجوار أبي. لم يلحظ وجودي، لكني حلمت تلك الليلة للمرة الأولى في حياتي. حين استيقظت كان أبي قد مضى إلى عمله لكني أحسست بشعور مختلف طوال ذاك اليوم، ومنذ ذاك الوقت وأنا أشعر بالسعادة لأنني تمكنت من الحلم مثل بقية الصبية. ليلة بعد ليلة كنت أتسلل إلى جوار أبي إلى أن أفقت ذات صباح على ملمس ذقنه الخشنة وهو يقبلني، ضمّني بقوة إلى صدره وطفق يبكي.

أصبح العالم ذاك اليوم قطعة من السماء، كنت قبيل الظهر قد قلبت القمح ثلاث مرات مع العلم أن مرة واحدة بعد الظهر تفي بالغرض. كانت قوة جديدة تنبض في عروقي، ثم حلّت الكارثة.

قدم الأولاد ليلهوا كعادتهم عند نبع القرية ولوحوا لي كي أشرب الشاي معهم. كنت أخشى ترك القمح من دون حراسة، توجب على أختي الصغرى ذاك اليوم المساعدة في أمور الغسيل لذا بقيت لوحدي. لجمني الخوف، لكن سعادتي بالأحلام التي بوسعي أن أرويها للصبية ظلت تجذبني نحوهم. شعرت بأنني ممزق بينهما. حسناً، آخر الأمر، ما أن رأيتهم يجلسون في حلقتهم حتى انتصرت رغبتي على خوفي. مضيت نحوهم، جلست أرضاً وأخبرتهم بعدة أحلام رأيتها. كان الأطفال مأخوذين، قالوا بأن أحلامي وحشية أكثر من أي شيء آخر حلموا به.

حسناً، بعد أن استمعت إلى أحلام باقي الصبية، ودّعتهم ومشيت على مهل عائداً إلى البيدر. كان عليّ اجتياز كرم للعنب ثمّ الالتفاف بشكل حلزوني حول الهضبة الجرداء. حينها تذكرت أمر القمح، نظرت إلى الأعلى لكني لم أرَ الكومة الضخمة الجاثمة وسط أرضنا. ظننت

أولاً أنني أخطأت بين بيدرنا وبيدر آخر، لكنني انتبهت للعرزال الذي بنيته ودعوناه «أمي» وهو ينتصب وسط الأرض الخالية. أخذ قلبي يدق بعنف ورجلاي ارتعشتا وخارت قواهما. أسرعت قدر إمكاني، ما أن وصلت إلى البيادر حتى كدت أموت رعباً. لم تتبق ولا سنبلة قمح واحدة. أخبرني الجيران بأنهم لم يلحظوا شيئاً. أسرعوا معي إلى بيدرنا ولم يصدقوا أعينهم. أخذنا نبحث هنا وهناك لكننا لم نرَ أثراً لأي دواب محملة بالقمح أو خيالة. جلست لوقت طويل وأنا أبكي. أخيراً، قبيل غروب الشمس، هربت. لم أجرؤ على رؤية وجه والدي.

لم تكن لديّ فكرة إلى أين أتوجه. بدأت أمشي باتجاه دمشق إلى أن حلّ الظلام أخيراً. ثمّ التقيت بعربجي متوجهاً إلى هناك بالرغم من تأخر الوقت. كان ينخر جياده بقوة لتسابق الريح. أسرعت خلف العربة وبقفزة واحدة كبيرة تمكنت من التعلق بالقضيب الخلفي. شعر العربجي أن شخصاً تعلق بعربته لكن لم يكن لديه الوقت كي يقف ويستطلع الأمر، لذا قام بضرب سوطه إلى الوراء. كان سوطه اللعين شديد الطول فأصاب يديّ ورجليّ مثل ألسنة اللهب. لم أرَ منذ ذاك الوقت سوطاً على هذا القدر من الطول. ظلّ طوال الوقت يجلد جياده ويجلدني. كم رغبت أن أقفز هارباً لكن الأرض تحتي تحولت إلى حجر رحى يئز. كلما حاولت أن أطأ الأرض بقدمي، مزّق الطريق أصابعي العارية. فالسوط يجلدني من الأعلى والطريق من الأسفل. إنها جهنم بعينها. حين وصل العربجي دمشق، كانت ذراعاي تنزفان. نزلت إلى الأرض وأنا أترنح بقدمين مرتعشتين ولعنت عظام أسلاف هذا العربجي.

حسناً، سأختصر القصة، كي لا تشعروا بالملل، قال يونس متطلعاً إلى أصدقائه.

«لا، بالله عليك، تابع وأسهب قدر الإمكان!» أجاب فارس متحدثاً بلسان الجميع، أومأ الكل برؤوسهم وتمتموا موافقين.

«كلماتك مثل قطرات مياه ثمينة ونحن كالأرض العطشى» قال مهدي مبالغاً وأخذ يضحك من كلماته.

«حسناً، سرعان ما وجدت في تلك الليلة مكاناً لأمكث فيه. رجل أعمى، كان يجلس في تلك الساعة قرب باب بيته، حييته أثناء مروري به. ردَّ الرجل على سلامي، يشهد الله - أنه سألني عن سبب جراحاتي. أخبرته عن محنتي فشتم العربجي الظالم وقدم لي طاسة ماء ومرهماً من علبة صغيرة خفف به من حدّة الألم. سمح لي الرجل بقضاء الليل على حصيرة صغيرة في غرفته.

كان الرجل الأعمى يحمل صندوقاً معلقاً بحزام حول رقبته، يحوي كل شيء ابتداء من الكشتبان وانتهاءً بالسكاكر. كان عجوزاً جداً وحين أفقت صباح اليوم التالي أخبرته بأني سأكون سعيداً إن حملت له صندوقه إلا أنه رفض عرضي، قال بأن كسب النقود لا يسعده بقدر مساعدة الناس المحتاجين. كان العجوز الأعمى شخصاً غريب الأطوار. مكثت عنده ثلاثة أيام. كان يغادر كل يوم عند الفجر ولا يعود إلا في آخر الليل، كان مبتهجاً للغاية حين أخبرني أن امرأة من إحدى حارات دمشق البعيدة كانت سعيدة حين وجدت لديه الزر نفسه الذي ظلت تبحث عنه لسنين طويلة. كان لديه علبة كبيرة من التنك مليئةً بالأزرار التي كان ينزعها من أية قطعة ملابس رثة يجدها في الشارع. حوى صندوقه ألف زر وزر بألوان وأشكال مختلفة، كان الأعمى يعتز بها وكأنها كنز سليمان.

حسناً، بعد ثلاثة أيام شكرت الرجل الطيب ومضيت في طريقي.
لأسابيع وأنا أتسكع في طرقات المدينة. أقسمت ألا أعود إلى البيت، لذا فقد أخذت عهداً على نفسي، إما أن أشق دربي بتعبي وجهدي أو أنتهي مثل كلب ـ لكنني أبداً لا أريد أن أرى الحزن وخيبة الأمل المريرة في عينيّ والدي ثانية.

أخذت أتجول في سوق الحميدية باحثاً عن عمل، عن أية خدمة لقاء قروش قليلة، لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فعشرات الأطفال والشبان كانوا يتسكّعون مثلي باحثين عن لقمة تسد جوعهم، ناهيك عن طابور من الشحاذين الصادقين والكاذبين منهم الذين ملأوا زوايا السوق. كانت معركة حقيقية تشنّ لأجل كل شبر من السوق. من الطبيعي، وكوافد جديد، لم يبق لي سوى أن أستلم المكان الأسوأ مقابل دكان الخياط. كانت الدكاكين المجاورة الأخرى تبيع أشياء صغيرة الحجم والوزن، مثل إبر خياطة، قرطاسيه، ومثلجات... أشياء من النادر على أية حال، أن تتطلب حمالاً. كان الصبية الأقوى يحجزون أفضل الأماكن مقابل متاجر بيع المفروشات، الأمتعة والقدور.

لكن ذات يوم، كنت محظوظاً بمقابلة عمر، كان الرجل خارجاً من دكان الخياط وهو يحمل رزمة ضخمة. كانت ثيابه أنيقة وعليه سيماء الرجل الثري. أسرعت خلفه وعرضت خدماتي قائلاً: «سأريحك من أحمالك بنصف ليرة يا سيدي!» كما تعلمت من بقية الأطفال الذين يتسكّعون مثلي في السوق.

حسناً، حدث هذا قبل ستين عاماً، لكنني إلى اليوم، لا أعلم إن كنت قد التقيت بملاك أو شيطان، أو كليهما في الشخص ذاته. صحبني

الرجل إلى بيته. كان يقطن في شارع العازارية، قرب باب توما ـ في بيت صغير. حملت الرزمة إلى البيت وحين وصلت سألني كم أريد. كانت نصف ليرة تفي بالغرض، لكن طلب أجر محدد كان ينم عن غباء. تعلمت هذا من الأطفال، لذا رددت عليه قائلاً: «أنت وكرمك» أحبَّ الجواب وسألني من أين قدمت. مزحت قائلاً بأنني أمير منفي من الصحراء ويعمل الآن حمالاً ليكسب نقوداً كي يشتري جياداً ويجند محاربين. ضحك وقدم لي طعاماً وكأساً من شراب الورد لأشربه. ثم سألني إن كنت أجيد القراءة وبما أنني استمتعت بممازحته فقد أجبته «أجل، لكني أخجل أن أريك خطي يا سيدي».

قال: «ولِمَ تخجل؟ لا يخجل المرء أبداً من مقدرته على الكتابة يا صبي. الكتابة فن نبيل هيا، فلترني كيف تكتب».

أجبته «سيدي، سوف يؤذيك هذا».

«لا يهم، أرني إياه».

طلبت منه أولاً أن يدفع لي أجرتي، بما أنني لا أضمن ردّة فعله. أعطاني أربع ليرات في وقت كان هذا المبلغ يعادل أجرة عامل ليوم بأكمله. ثم قال وهو يضحك: «حسناً، أنا أشعر بالفضول الآن لمعرفة كيف ستؤذيني كتابتك».

رفسته من الخلف قائلاً له: «هذا حرف الألف» ثمّ ضربته على معدته وأضفت: «وهذا حرف الباء».

قال مرعوباً: «ما هذا؟».

«ألم أخبرك، يا سيدي، هذه هي اللغة التي تعلمتها من الإمام

العجوز. أعلم تماماً الضرب المرافق لكل حرف، لكن ليس بوسعي كتابة حرف واحد».

بدلاً من أن يغضب مني، حدق بي بعينين حزينتين ثمّ أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً يتفحصني بنظره من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، ثمّ يهزّ رأسه بأسى. شربت عصير الورد صامتاً وأنا أشعر بالخجل بعض الشيء من ثيابي البالية وقدميّ العاريتين، ثمّ سمعت صوته ولم أستطع تصديق أذنيّ: «وهل ترغب أيها الأمير أن تمكث في بيتي المتواضع حتى تجمع نقوداً تكفي لشراء أحصنتك وفرسانك؟ حتى اليوم ينتابني البكاء كلما تذكرت هذه اللحظة...». تهدج صوت يونس بفعل الدموع.

نهض سليم بسرعة وناوله إبريق الماء. شرب يونس جرعة واحدة وهدأ بعض الشيء ليتابع: «ما يقتلني حزناً هو أنني، ومن بين كل الأشخاص في العالم، سلمت بيديّ هاتين، هذا الرجل إلى الجلاّد».

«احكِ ولترح قلبك» قال مهدي ممسكاً يونس بذراعه «فلتخبرنا» ألحّ عليه في حين ربت علي على كتف القهوجي بلطف.

منذ ذلك اليوم عشت مع عمر. قدم لي ثياباً جديدة وأرسلني إلى المدرسة. في البداية لم أعلم عن أمره شيئاً. كانت مدبرة المنزل تأتي كل يوم لتطبخ وتنظف وتغسل وكان عمر يدفع لها بالمقابل أجراً جيداً. عاش وحيداً ولم يرغب بالزواج. سمح لي أن أتجول في أرجاء المنزل كله باستثناء القبو. بعد أسابيع قليلة سألته عن مصدر النقود فأجاب: «من منجم الذهب خاصتي» وضحك كالشيطان.

أفقت مرة في منتصف الليل، وبما أن الطقس كان حاراً فقد خرجت إلى الفناء الصغير كي أنعم ببعض الهواء المنعش. رأيت نوراً

ينبعث من القبو، نزلت الدرج متسللاً واختلست النظر من ثقب الباب. هناك شاهدته، جالساً عند طاولة، صبّ سائلاً معدنياً من إناء متوهج في قالب، برد القالب بالماء وأخرج قطعة معدنية لامعة، كانت دائرية وذهبية اللون مثل ليرة الذهب، أخذ يبردها ويلمّعها لوقت طويل.

في صباح اليوم التالي، أخبرته بأنني أعرف أمر منجمه الذهبي. بدا مصدوماً، لكنني أكّدت له بأنني بئر عميقة وسألته لمَ يقوم بصبّ ليرة واحدة لا غير.

أجاب: «ليرة ذهب تكفي لأسبوع كامل، ولن يكتشف أحد الأمر» كانت ليرة الذهب بالنسبة لشخص آخر، باستثناء عمر، تكفي لشهر كامل آنذاك. حدثني عمر أنه حصل على القالب المصنوع بمهارة فائقة وعلى الوصفة السرية للخليط الذي يشبه الذهب من مزوّر محترف طاعن في السنّ. عاش طوال حياته من وراء هذه المهنة، كان يصبّ كل أسبوع ليرة ذهب واحدة وينفقها في مكان آخر. دأب عمر كذلك، على السفر شمالاً وجنوباً ليبادل ليراته الذهب المزيّفة بنقود حقيقية، ومثل معلمه لم يصبّ في حياته أبداً قطعتين ذهبيتين في أسبوع.

فكرت أن الأمر ينم عن غباء، لذا أخبرته بأن عليه صبّ المئات منها، يتاجر بها ثم يتقاعد. لكنه أجاب: «لو فعلت ذلك، يا بني، لما تنعمت بلحظة هدوء واحدة بعد ذلك».

حسناً، كانت السنوات التي قضيتها مع عمر من أجمل سنيّ عمري. كان أباً وصديقاً لي، إلى أن جاء اليوم الذي أفشيت بالسر إلى زميلي في المدرسة. أخبرني هذا الصبي أن علينا صبّ ليرة ذهب لأنفسنا كل يوم ونبيعها بدورنا أيضاً في مكان آخر. سورية كبيرة بما

يكفي لاستيعاب ليرتي ذهب مزيفتين، وعمر لن يشك بشيء. رفضت بادئ الأمر، لكن هذا الشيطان الملعون ظلَّ يحرضني كل يوم أكثر فأكثر، إلى أن وافقت أخيراً على تجربة صبّ ليرة واحدة. وهكذا قمنا ذات يوم، وأثناء غياب عمر، بالتسلل أنا وصديقي إلى داخل القبو. صهرنا المعدن الخسيس الأصفر وصببناه داخل القالب. كانت ليرة الذهب سيئة الصنع، كنت خائفاً لكن صديقي أخبرني بأنه يعرف تاجراً جشعاً يشتري كل ما هو رخيص.

حسناً، لم يمض يومان حتى أحاطت الشرطة ليس البيت فحسب، بل بالشارع كله. اعتقلوا عمر وحجزوا كل معداته من القبو، وحين سأله الشرطي أي ابن عاهرة قد علّمه فعل هذا، أجاب عمر بابتسامة: «إنه السلطان».

أسرعت في اليوم التالي إلى سجن القلعة لزيارته، لكن بما أنه حوكم كخائن فقد مُنع من التحدث مع أحد قبل محاكمته التي أُجريت بعد ستة أشهر. كان بحوزتي أوراق ثبوتية مزيّفة تدّعي بأنني ابن أخيه ومنذ ذاك الوقت دُعيت باسم يونس. كقريب له، كنت أول من سُمِحَ له بزيارته، أخذت أرتعش من فكرة لقائه، لكنه ابتسم حين رآني. أخبرته بأنني أشعر بالخجل حتى الموت لأنني وبغباء لا مثيل له خنت الرجل الوحيد الذي غمرني بحبه في دمشق، وبأنني أفضّل الموت على رؤيته يهان ويعذب في السجن. ضحك عمر وقال: «بدلاً من الموت أو شعورك بالخزي طوال حياتك، عليك أن تستخدم عقلك وتتعلم: لا تبح لأحد بكل ما تعلم».

كنت أزوره كل يوم وأحضر له الفواكه والعطوس، وأقوم برشوة

العديد من الحراس كي أدخل له كل ما يشتهيه من دون تفتيش. أعطاني سراً مجموعة رسائل إلى عناوين مختلفة في دمشق. كانت كل البيوت أنيقة، ومن أصحابها تسلمت الأجوبة التي كنت أهرّبها ثانية إلى السجن. أصبت حينها بالإرهاق، فقد كنت أعمل في مقهى كبير وأقف طوال اليوم عند طاولات الزبائن ولا أكسب سوى القليل. وفّرت كل قرش من أجري ومن البقشيش، وبدأت أسرق صاحب المقهى كلما سنحت لي الفرصة لأشتري لعمر الفواكه والعطوس.

بعد شهر سألني عمر عما أنوي فعله في حياتي. أجبته: «أنا لن أفكر بنفسي حتى تخرج من السجن».

أجاب ضاحكاً: «سوف أخرج من هذا الجحر بعد عشرة أيام، إذناً ماذا ستفعل بعد أحد عشر يوماً من الآن؟».

«أحب أن أفتح مقهى».

«اسمعني الآن جيداً. انزل إلى القبو وستجد بلاطة رخامية كبيرة تحت مدفأة الحطب. ارفعها وستجد صندوقاً، في داخله كيسان، أحدهما كبير مليء بالقش وهو لي، والآخر صغير ستجد فيه مئتي ليرة ذهباً من النوع الممتاز. لا يمكن لمخلوق على وجه الأرض أن يميزها عن النقود الأصلية. ستكون في أمان ولن ينتاب أحد الشك تجاهك. إنها لك، إن وعدتني بأنك لن تدع أي زبون يغادر مقهاك جائعاً أو غير راض. موعدنا بعد عشرة أيام من الآن، يوم الخميس، فهمت؟ في ليلة الخميس، أحضر كيس القش إلى مقهى النوفرة المجاور للجامع الأموي. اجلس في الصف الأول وأصغ لقصة الحكواتي، ثم غادر. الله يرحمك... إن أفشيت هذا السر لأحد، وويل لك إن فتحت كيس القش. سوف أقتلك، هل فهمت؟ سأقتلك».

أسرعت إلى البيت وأزحت البلاطة الرخامية جانباً، وهناك كان الكيسان، لكن الكيس الكبير كان ثقيلاً جداً إلى درجة بالكاد استطعت حمله حين جاء يوم الخميس. وصلت المقهى، وبعد قليل بدأ الحكواتي بسرد قصة عنترة وعبلة، وفي تلك اللحظة دخل عمر. كان يرتدي ثوباً أبيض ومعطفاً رائعاً أسود اللون وصدرية حرير مزخرفة لا يلبسها سوى أكابر دمشق. جلس بجواري من دون أن يحييني وحين أنهى الحكواتي قصته وقفت واستعديت للمغادرة كما أمرني، أمسكني من كم سترتي وسألني: «ماذا في الكيس؟».

أجبته «قش ثقيل». ضحك، رفع الكيس ومشى خارجاً من المقهى. قفز على حصانه المربوط قرب المقهى وقاده بمحاذاتي. مشيت على مهل عبر الشارع.

سألني: «ستقوم الشرطة بمداهمة البيت هذه الليلة، أين تنوي قضاء ليلتك؟».

أجبته: «لقد وجدت مكاناً أحتمي فيه لعدة سنوات».

همس قائلاً: «أجل، ولكن أين يمكنني ملاقاتك؟ أخبرني أين ستكون؟».

أجبته: «آه يا سيدي، جبلان لا يلتقيان، لكن يمكن لشخصين أن يلتقيا إن شاء القدر».

صاح مبتهجاً: «الآن تعلمت درسك، أرى أن فترة السجن كانت ثمناً عادلاً دفعته لقاء هذا الدرس. احفظ سرّك وكلمتك ولا تدع أحداً يغادر طاولتك جائعاً أو غير راض». ضحك ومضى بحصانه مبتعداً تحت جنح الظلام.

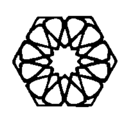
بالنسبة لي، فقد قدمت إلى منطقتكم واشتريت هذه الحانة المحطمة. أعانتني النقود على تحويلها إلى المقهى التي تعرفونها جيداً، لكني وجدت أن الطعام وحده لن يكون كافياً لإرضاء زبائني وبأنهم سيرجعون إلى بيوتهم حاملين همومهم ومخاوفهم. وصدف ذات يوم أن قام أحدهم بسرد قصة جميلة، فمكث الجميع فترة أطول وعادوا إلى بيوتهم أكثر سعادة، لذا وظفت منذ ذاك اليوم حكواتياً ليسلّي زوار المقهى كل ليلة.

سأل موسى: «يا الهي، ألم تلتق بعمر ثانية؟».

«لا» أجاب يونس وابتسامة تلوح على شفتيه.

قال عصام: «لقد سمعت حديثه، ألم تفهم ما قال أخبره معلمه ألا يخبر الآخرين بكل ما يعرف».

أومأ يونس برأسه موافقاً. حمل عصام الورقات الخمس، ومثل الليلة الفائتة رغب الحداد أن يكون آخر من يسحب الورق، إلا أن توما المغترب كان هو من سحب ورقة الأس.



كيف صدّق الرجال أكبر الكذبات واستهجنوا قصة توما الحقيقية؟

كان توما المغترب رجلاً مربوع القامة قوي البنيان، تبدو مشيته أقرب إلى الوثب بالرغم من الخمس وسبعين سنة التي يحملها على كاهله. كان يثب على الدرج مثل عاشق في الرابعة عشرة من عمره يهرع لملاقاة حبيبته. لم يكن أيٌّ من السادة الآخرين، فتياً وقوياً مثل توما، الذي تكمن فلسفته الكاملة عن الصحة بأخذ حمّام بارد صباح كل يوم، في الشتاء كما في الصيف. كان قوله الدائم إنه يشعر وكأنه وُلِد لتوه بعد كل حمّام.

ينحدر توما من قرية على الساحل السوري، لا تبعد كثيراً عن مدينة اللاذقية. حين عاد من أميركا لم يجد أحداً من أفراد عائلته فيها، مات بعضهم فيما انتقل البعض الآخر إلى مدن مختلفة أو غادروا البلد. قرر توما مع زوجته، جانيت، الاستقرار في دمشق. كانت من الجيل المهاجر الثاني، ولدت في كاليفورنيا من أم مكسيكية الأصل وأب من إحدى قرى جبل لبنان. ولدٌ وحيدٌ فقد أبويه في مجازر سنة ١٨٦٠. استحلف بعد ستين عاماً وقبيل موته بوقت قصير ابنته الوحيدة، بألا

تعود إلى البلاد العربية، براً أو بحراً، لذا أصرّت عند عودتها أن تستقر في مدينة تمتلك مطاراً، ودمشق بالفعل كانت تزهو بمطارها.

استأجر توما بيتاً صغيراً جداً في حارة العازارية، ولو لم تكن زوجته جانيت على قدر من النحافة وصغر الجسم لما استطاعا التحرك معاً داخل حجرات بيت الدمى ذاك. ومع ذلك لم يتوان توما، بالرغم من مساحة فنائه التي لا تتجاوز الخمسة أمتار مربعة، عن بناء مفخرة أي قصر عربي وسبب بهجته: الحلم الذي ظلّ يتكلم عنه بحماسة لزوجته طيلة ثلاثين عاماً ـ إنها بحرة الماء... وفي حالتهم هذه لم تكن أكبر من زبدية شورباء. كانت تحيط بهذه التحفة غابة مصغرة من النباتات تنمو ضمن عشرات من أصص الورد الصغيرة، حيث حرصت أنامل توما البارعة على تحويل علب الكونسروة التنك بتزيينها وترتيبها بمهارة شديدة إلى أحواض جميلة، جعلت النباتات تُظهر أرض الديار بمساحة أكبر مما هي عليه في الواقع. الشيء الوحيد الذي أزعج أصدقاءه هو بطريق بلاستيك يبصق الماء في زبدية الشوربة باستمرار وبدفق رتيب مزعج، ولولا جلبه توما من أميركا لاقترح كل من سليم ومهدي أو يونس رميه في سلة الزبالة، عصام كان بالتأكيد سيبيع الطير البلاستيك بالقليل أو الكثير ليتخلص منه. فيما اتفق فارس وموسى، على أن نظرة إلى هذا الساكن الثلجي وسط البيت الدمشقي له تأثير لطيف ومنعش للروح.

كانت جانيت تتحدث العربية المكسّرة لكنها تعبّر عن أفكارها بشكل مباشر ومن دون مواربة. لم يكن سليم يشبع من حديثها كلما زارهما، لقد أحبَّ عذوبة لغتها. كان الجيران يقدّرون ـ بل ربما يحسدون ـ هذه المرأة الصغيرة اللطيفة، التي وعلى الرغم من كلامها الناعم

وصوتها الذي بالكاد يُسمع، لم تكن تضطر لتكرار أية كلمة من حديثها. لم تتلهف جانيت لمغادرة أميركا، على الأقل كي لا تضطر وتوما لترك أولادهما الشباب في الغربة. لكن توما وعد أن يهديها الجنة بما فيها إن قدمت معه إلى سورية، ستكون ملكته المتوّجة وهو عبدها المأمور. كان هذا أقل ما ثرثر به الجيران. لم يكن توما القوي يوماً عبداً لأحد في حياته، لكنه كان يبدي احتراماً كبيراً لزوجته أمام الناس فهو الرجل الوحيد في الحارة الذي يمشي ويده في يد زوجته.

مثل الكثير من الناس القادمين من أميركا، ارتدى توما بدلة أوروبية وقبعة من بين العديد من القبعات التي يملكها. كانت كلها جميلة وأنيقة كالتي يعتمرها رؤساء العصابات في الأفلام الأميركية. وفي الشتاء حين يلبس توما معطفه المطري ذا اللون الخاكي الفاتح والياقة المرفوعة فإن فارساً غالباً ما يحييه بهذه الكلمات «مرحباً، سيد همفري بوغارت».

حين وصل توما تلك الأمسية وجد أصدقاءه بانتظاره.

«أرى أن توما يخطط الليلة لتسلية بطوننا أيضاً» مزح عصام مفسحاً المجال على الطرابيزة لصينية الحلوى التي أحضرها توما معه. رمق سليم توما المغترب بنظرة لا تنم كثيراً عن الرضا: فالضيف العربي لا يحضر معه ضيافته. ابتسم توما، محرجاً بعض الشيء وقال: «في أميركا، يحضر الضيوف دوماً معهم هدية، وقد أصرّت جانيت على هذا، إنها ترسل لك تحياتها وتقول إنها متلهفة لمعرفة رأيك في حلوياتها. لقد أعدّتها وفق وصفة مكسيكية».

ابتسم سليم متناولاً قطعة، وحذا حذوه الآخرون. قال مهدي ضاحكاً: «يمكنك أن تبدأ الآن بأية قصة تريدها، فقد رشوتنا مسبقاً».

«اوكي، أنتم تعلمون بأنني قضيت أكثر من ثلاثين عاماً في أميركا، لكن لم يسألني أحدكم عن سبب سفري»، أخذ توما رشفة من كوب الشاي وبدأ المغترب قصته «كنت في الثامنة عشرة من عمري، حين اندلعت الحرب العالمية الأولى...».

قاطعه موسى: «الثامنة عشرة، كنتَ على الأقل في الثامنة والعشرين يا عزيزي».

قال المغترب كتسوية: «فلنقل في العشرين».

وافقه موسى الرأي وتابع توما حكايته.

«كنا نعيش في ضواحي اللاذقية حين استدعتني القوات العثمانية، هربت ولكن لم تكن لدّي فكرة أين أتوجه. كانت اللاذقية كل عالمي حتى ذاك الوقت. كانت عائلتي فقيرة تقتات من صنع السلال، فيما يعيش عم وعمة لي في مدينة طرطوس، لكنني لم أستطع المكوث عندهما لأن ابنهما كان فاراً من العسكرية كذلك، ويتعرض بيتهما للمراقبة ولحملات تفتيش مستمرة من الدرك.

كنت أتسكع نهاراً في شوارع المدينة فيما أقضي الليل على الشاطئ برفقة الصيادين البؤساء حيث يختبئ كذلك أكثر من عشرين شاباً مثلي. وكان الصيادون قليلي الكلام كالأسماك التي يسحبونها من البحر، لكنهم بروح عميقة وواسعة وسع محيطات الأرض. لم يسألوني من أين أتيت، وما الذي أريده. وكنت أساعدهم صامتاً مثلهم. وقلة ما كان يقول لي أحدهم، احمل هذه السحارة معي، أو اسحب الشبكة قليلاً. تقاسموا معي لقمتهم بصمت وكانت أعينهم وأخاديد وجوههم تحكي ألف قصة.

ذات يوم في صيف عام ١٩١٦ ـ كان قد مضى على فراري سنتان ـ

أفقنا عند الفجر، كانت ثلّة من الجنود يمشّطون الشاطئ ويبحثون عن أمثالي فقد أبلغهم أحد المخبرين عن مخبأنا. سمعت أنهم يدفعون قرشاً لكل من يخبرهم عن أي منا! كانوا كملاك الموت يطلقون النار على كل من يحاول الفرار. تمكّنت من رؤية مشاعل الدرك وسماع صراخ المعتقلين.

كانت ترسو على الشاطئ سفينة شحن إيطالية محمّلة بتبغ اللاذقية وتنتظر إكمال بقية أوراقها كي تغادر مبحرة من جديد. ركضت وركضت لكن الجنود كانوا يقتربون أكثر فأكثر مني. لم تكن هناك أية شجرة أو غصن يمكن الاختباء خلفه. كنت خائفاً بشدة، وجدت صخرة عالية تسلقتها، زلة رجل واحدة ويسقط المرء ميتاً. تمكنت من مخبأي رؤية الشاطئ الفسيح يمتد على يميني. كان الجنود يسوقون أسراهم وسط المياه ويضربونهم بأعقاب بنادقهم ثمّ يقيّدون المعتقلين مع بعضهم البعض مثل الجمال الجامحة. انبطحت قدر استطاعتي على حافة الصخرة، سرعان ما بزغت الشمس فتابع الجنود بحثهم. أضرموا النار في العديد من أكواخ الصيادين جزاءً لهم على إيوائنا. ومع هذا، اعتقدت أن مخبأي آمنٌ إلى أن قام جندي يحمل منظاراً بالصياح من الشاطئ دالاً بيده على مخبأي: «اشحطوا ذاك الكلب إلى هنا!» بدأ ثلاثة جنود بتسلق الصخرة نحوي. بدت نهايتي وشيكة ـ أدركت هذا، فالحرب من ورائي والبحر من أمامي: وحشان مرعبان! لم أكن أجيد السباحة ـ أمر مضحك، أليس كذلك؟ كنا نعيش بجوار البحر، لكن غالبية أصدقائي كانوا مثلي يخشون المياه كلية».

قال فارس: «يقول المثل: الإسكافي حافي والحائك عريان».

ضحك عصام قائلاً «يمكنك القول أيضاً: والصياد غرقان».

تابع توما حديثه: «اوكي، كان الجنود يطلقون الشتائم بصوت عال وهم يتسلقون الصخرة للامساك بي، فيما أحذيتهم السيئة الصنع تنزلق على الصخرة الملساء ورقيبهم يواصل تهديده إياهم بالعقاب في حال تمكّني من الفرار. ما أن أصبحوا على مسافة خمسة أمتار مني، حتى هببت واقفاً. حاول الجنود إقناعي بلطف كي أسلّمهم نفسي وأوفر الخطر عليهم. قالوا إنهم مساكين مثلي، ولا خيار أمامهم سوى تنفيذ أوامر الضباط. خطوت باتجاههم خطوة واحدة ثمّ صحت عالياً وقفزت إلى البحر. لم تكن لديّ فكرة عن مدى ارتفاع الصخرة آنذاك.

اوكي، قبل سنة تقريباً ذهبت مع جانيت إلى الشاطئ لأريها الصخرة، فكما تعلمون لم تر زوجتي من بلدنا سوى دمشق فهي لا تحب مغادرة هذه المدينة، ليس فقط لأنها عشقتها وكأنها دمشقية، بل لأنها تخشى إن غادرتها ألا يصلها هاتف من أحد أبنائنا فهم يحبون إلى اليوم الكلام معها مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع. تصوروا! المهم، سافرت معي بشرط أن نعود في اليوم التالي فور رؤيتها الصخرة التي قفزت منها إلى أميركا، كما تقول جانيت. أوكي، سافرنا ووجدت الصخرة بسهولة كما وأكواخ الصيادين التي لم تتبدل في فقرها. وكان أبناء أو أحفاد الصيادين يعملون كما كان آباؤهم وأجدادهم من قبلهم وبنفس الزوارق العتيقة. وعندما رأت جانيت الصخرة بعلوها الشاهق لم تصدق أني رميت نفسي من هذا المكان إلى البحر. صدقوني، إنها الصخرة بذاتها، لكن حتى أنا داخلني الشك عندما رأيتها. ومما زاد شكي أن الصيادين حلفوا الأيامين أنه لا يمكن لأي إنسان أن يقفز من هذه الصخرة إلى

البحر وينجو بحياته، ورووا لي قصصا عن الصخرة كمكان مفضل لانتحار العشاق ولكن هذه قصة ثانية... أعود لساعة قفزي من الصخرة، فما أن ارتطم جسدي بالمياه حتى أخذت أخبّط بذراعيّ بقوة. كان الماء هو كل ما يمكنني سماعه أو رؤيته. لم تكن سفينة الشحن بعيدة عني لكن البحر كان يجذبني للأسفل. ناضلت مثل رجل مجنون، لا أذكر المدّة التي قضيتها في الماء. كنت أواصل الصياح: «أريد أن أعيش!» وأواصل ضرب المياه بيديّ حتى استنفدت كل قواي. حين استعدت وعيي وجدت نفسي محاطاً بوجوه ودودة. نهضت بسرعة وأردت الهرب بعيداً لكن البحارة هدأوا من روعي، كانوا يراقبون المشهد كله فما أن لمحوني أقفز حتى قاموا سراً بإنزال قارب إلى المياه، من دون أن يعلم قبطانهم بذلك، لأنه ساعتها سيقع في مشاكل مع الدرك والجيش العثمانيين، ويضطر حينها إلى تسليمي للسلطات. لكن السفينة أبحرت بنا إلى فينيسيا في اليوم التالي.

اوكي، تمكنت في فينيسيا من إيجاد عمل كعتّال في المرفأ. كان العديد من العرب يشتغلون هناك، لكني رغبت بالسفر إلى أميركا، حيث يعيش ابن عم لي في فلوريدا. مع مرور الوقت أخذت أفكر: حسناً، لمَ لا؟ سوف أجده. أميركا كبيرة، هذا أكيد، لكنها ليست أكبر من اللاذقية - في اللاذقية ما أن تذكر اسم شخص حتى تجده قبل أن ينقضي اليوم». ضحك توما، أخذ نفساً من نارجيلته، مررها إلى سليم، وتابع حديثه.

«طيب أيها الأعزاء، كانت أميركا كما تعلمون أكبر من اللاذقية! أخبرتكم مراراً عن الجحيم الذي ألقتنا فيه سلطات الهجرة. اوكي، حدث أثناء ذلك أن سافر ابن عمي إلى الأرجنتين باحثاً عن عمل.

الأرجنتين تعني «أرض الفضة» وأمِل ابن عمي أن يجد بعضاً منها في ذاك البلد. تعلمون أنه حين يحتاج المغترب شيئاً يعينه على فقره، يبدو له حينها خيط العنكبوت وكأنه حبل إنقاذ متين. أعزائي، لم يهاجر أيٌّ منكم، فدعوني أخبركم، إنها حياة قاسية حيث يصبح رغيف الخبز فارساً يطارد الريح على ظهر حصانه ونحن المغتربين نركض في إثره على أقدامنا العارية، ألسنتنا متدلية، نلهث محاولين التقاطه. إنها لعنة، كما أقول لكم.

حسناً، لقد رويتم بعض قصصكم العجائبية المثيرة، لكنني خَبرت الكثير في أميركا ولن أخبركم سوى الحقيقة. كثيراً ما آلمني وهم الناس هنا في دمشق بأن النقود هناك في أميركا منثورة في الشوارع. ما عليك سوى أن تنحني وتلتقط أوراق الدولارات بشكل أسهل من قطف البندورة من حقول الغوطة. وإن أخبرت هؤلاء الناس أنها ليست الحقيقة، فقد لا يخبرونك وجهاً لوجه بأنك مغفل. لا، أبداً، لكنهم سيبتسمون بشكل يجبرك أن تشعر بهكذا شعور. سيقولون: «انظر إلى هذا الرجل، أو إلى ذاك، لقد أمضى سنتين في أميركا وعاد مليونيراً!»، من المؤلم أن ترى الازدراء في عيون الناس. أخبرني جاري ذات مرة وهو سكران: «كل من يسافر إلى أميركا ويصبح من الأكابر لا يفكر ثانية بالعودة» لكن دعوني أخبركم شيئاً، ربما كانت هذه حالة الكثيرين من الناس، لكنها ليست حالتي أنا. كلما كبرت سناً في أميركا كلما زاد اشتياقي إلى لاذقيتي. لم أشعر بالحنين إلى وطن، أو أرض آباء وأجداد، أو أي هراء آخر ـ لكنني كنت مسكوناً بلاذقيتي. يبدو الأمر وكأنك تثأر من شعورك بالخزي بسبب هروبك. أنت تعود كي تثبت لنفسك بأنك جدير بلقب إنسان، لتظهر للغير بأنك أقوى من الحرب،

أقوى من الجوع وأقوى من البحر. وهنا يتربص لك الناس بسؤالهم «تعال، سيد أميركا، لمَ لا تبتاع لنفسكَ قصراً؟ أين سيارة الكاديلاك؟» لا يسألك أحد: «ما الذي أعطتك إياه الغربة؟» تأملت البارحة ولوقت طويل، بما أعطتني إياه الغربة وما أخذته مني. هذا ما قررت إخباركم به الليلة. لذا اسمعوني رجاءً وكأنها قصة، اوكي؟

بالفعل، أصبحت غنياً في المغترب لكن ليس بالمال على قدر ما كان بفعل حياة ثانية جديدة. أنا أعتقد أن توما القديم مات حين قفز إلى البحر، وتوما الجديد قد وُلد على متن السفينة. في حياتي الأولى كنت أخاف كالأرنب من ظلي، لكني حين رست تلك السفينة في الميناء الأميركي واجهت العالم الجديد مثل أسد. ماذا لديّ بعد لأخسره؟ منذ ذاك الوقت أصبح الخطر الأعظم ليس أكثر من قوقأة دجاجة وهكذا مدّني سفري إلى الخارج بشجاعة لم أعهدها قبلاً.

كنا نعيش في اللاذقية مثل خلية النحل - الفرد وحده لا قيمة له، العشيرة هي كل شيء. إنها تمنحك حسّ الأمان، لكنها تقوم كذلك بتقييد يديك ورجليك. في أميركا، يعيش الناس مثل الغزلان، كل واحد لنفسه، حتى وإن عاشوا جماعات. أنت تعيش في عزلة، لكنك حرّ كذلك في خوض كل شيء جديد. هناك يمكنك ركوب قارب وقطع النهر وحدك. هنا إن أردت قطع النهر إلى شاطئ آخر عليك أخذ جدك وجدتك، أمك وأبوك، أخوتك وأخواتك، عماتك وأعمامك وأولادهم وبناتهم، خالاتك وأخوالك وأحفادهم، حماك وحماتك وجيرانهم لئلا يغضب أحدهم، صهرك وكنتك وأولاد عمهم لكي لا يحردوا. وما أن تنهتي، هذا إذا انتهيت، فإن الزورق سيغرق بحمولته».

«لقد نسيت الخوري والشيخ» أضاف فارس وهو يهزّ رأسه ضاحكاً وموافقاً.

عقّب عصام بشكل جديّ: «وكذلك إن لم أتمكن من أخذ نارجيلتي وركوة قهوتي العربية أيضاً، فلن أبالي أبداً بقطع النهر إلى شواطئ جديدة».

«حسناً، إنها ليست بالفكرة السيئة ولكنها مستحيلة لسوء الحظ. لكن دعوني أعود إلى أميركا! التقيت في اللاذقية ببعض الأجانب العاملين على السفن، لكني عشت في أميركا مع اليونانيين، الصينيين، الأفارقة، البولنديين، اليهود، الطليان ـ ناس من كل بلدان العالم. تلتقون هناك بأناس عاشوا حيوات مختلفة تماماً، وليس أشخاصاً تعساء فحسب. عملت أولاً في مرفأ المدينة وتعرفت هناك على بؤساء ورجال ينحدرون من أرفع وأغنى العائلات رمت بهم الغربة ليصبحوا عتالين في المرفأ. حتى إنني التقيت بجبران خليل جبران.

سأل فارس بدهشة وكأنه لم يصدق ما سمع: «هل تعني جبران، الشاعر المشهور؟».

«أجل، جبران فقد عاش كلانا في مدينة نيويورك. التقيته سنة ١٩٢١ في لقاء أدبي. كان رجلاً صالحاً، تغلغلت كلماته وصوته في قلبي منذ الوهلة الأولى وملأته سلاماً. لكن حياته كانت محاطة بالعديد من الحسّاد الذين هاجموه وحاولوا تشويه سمعته، حتى إنهم اقتحموا حياته الشخصية. لكن أي أذى يسبب وسخ ذبابة على فيل؟ كان جبران بالروح عملاقاً مثل فيل. ذات يوم كنا في بار صغير، وكان الحزن الشديد بادياً عليه، سألني كيف يمكن أن يدافع عن نفسه ضد أعدائه، فهم لم يدعونه

ينعم بيوم سلام واحد. تصوروا، جبران، هذا المفكر الكبير يسألني أنا، العتّال البسيط، ما عليه أن يفعل. أخبرته أن عليه القيام بما قام به جدي: لقد بلبل وحير أعداءه لأنه لم يلتفت إليهم إطلاقاً وواصل سيره على خط مستقيم نحو هدفه.

اشتريت كل مؤلفات جبران وقد دوّن عليها إهداء جميلاً: «إلى أصدقائي، جانيت وتوما» أحبته زوجتي كحبي له تماماً، وحين مات عام ١٩٣١ بمرض السرطان وهو لم يبلغ الخمسين بعد، نعى العرب والأميركيون رحيله. حتى يومنا هذا تعرض زوجتي كتبه على كل ضيف يزورنا وأنا أوافقها الرأي حين تخبرهم بأنها أثمن ممتلكاتنا.

حسناً، ماذا كسبت من عيشي في الغربة وماذا خسرت؟ حسناً، قبيل ذهابي إلى أميركا كنت أحب التحدث كثيراً. ما زلت أذكر خسارتي لعملي مرتين في اللاذقية بسبب كلامي وغنائي الكثيرين. لم أعرف قيمة الكلمة حتى سافرت خارجاً وأصبت بالخرس لأني لم أكن أعرف كلمة واحدة إنكليزية. . الكلمات جواهر غير مرئية، الأشخاص الوحيدون الذين يرونها هم وحدهم فاقدوها. يعي سليم هذا الأمر أكثر من أي شخص آخر».

أومأ العربجي العجوز برأسه إيجاباً.

«لكن فقدان المرء لصوته في بلد غريب هو أسوأ من عدم امتلاكه له في الأصل، يفهم سليم تماماً ما أعني. إنه نموذج مرير من الخَرَس، لأن الخُرس بالولادة يمكنهم التحدث بأيديهم وأعينهم ورؤوسهم. في الحقيقة، إنهم يتحدثون بكل شيء باستثناء ألسنتهم. لكننا نحن الأجانب، نعاني منه بشكل سيئ مثل بطل قصة مهدي. ماذا كان اسمه ثانية؟ شفيق؟».

صحح مهدي: «لا، شفق».

«في البداية يكون كل شيء ميتاً، كما حدث مع شفق. لم أتعلم أن أتحدث بيديّ أكثر مما تعلم سليم. وفجأة وجدت نفسي في أميركا، لكنني مكثت بلا كلمات إلى وقت طويل، حتى بعد ما تعلمت الإنكليزية».

«لمَ كان هذا؟» أراد مهدي معرفة الجواب.

«كيف يمكنك التحدث مع أناس لا يملكون أدنى فكرة عن الأشياء التي تكوّن شخصيتك؟ مضيت إلى أميركا بقلب أسد وصبر جمل، لكن الشجاعة والصبر ليسا علاجاً للصمت. أهدتني الغربة لسان طفل، وسرعان ما مُني لساني بقلب طفل ليتلاءم معه. تعلمون أن القلب واللسان قد خلقا من طينة واحدة. كنت أتحدث بقلب ولسان طفل وصبر جمل. لكن أياً كان حديثي معهم فقد تعاملوا معه وكأنه قصة سحرية. يقطن الأميركيون بلداً كبيراً لكنهم لا يعرفون سوى القليل عن بقية العالم. لقد دعوني بالرجل التركي، مع أنني شرحت لهم ألف مرة أن سورية جارة تركيا وأن ما يربطها بها هو الحدود لا أكثر. ما الفرق، يقول غالبيتهم، أنتم كلكم أتراك. لكنهم يصرّون من ناحية أخرى، على معرفتي الدقيقة بمنشأهم، بل في أي جانب من الطريق وفي أي جزء من الحارة قد ولدوا. في نيويورك تسكن مجموعات تنحدر من بلدان مختلفة مثل المكسيك، الصين أو أفريقيا وتناصب العداء لمجموعات أخرى تسكن أحياناً بجوارها أو على بعد أمتار من حيها وويل لك إن خلطت بين اسم شارع هارلم واسم شارع آخر. أو فلتحاول أن تشرح لأميركي بأنك عربي ومسيحي بآن واحد، الأمر أصعب عندهم أن يبلعوا مصباح علاء الدين.

ذات مرة، كنت أستقل قطاراً في طريقي لزيارة صديق يدعى محمد الحاج، كان يعمل مهندساً في مصنع لتوليد الكهرباء».

«عائلة الحاج من معلولا؟».

«لا، أصل محمد من جنوب لبنان، اوكي، استغرقت الرحلة ثلاثين ساعة بالقطار، بعد فترة قدم رجل أميركي إلى مقصورتي، أومأ لي بتودد فأملت بمحادثة معه تجعل الرحلة أقصر. لكن أملي كان سابقاً لأوانه، سألني: «هل أنتَ تركي؟».

أجبته: «لا، أنا عربي».

«هذا لا يهم، طالما أنتَ مسلم. لقد اعتنقتُ الإسلام مؤخراً، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» تلا الأميركي مبدأ عقيدته الجديدة. لكن هذه العبارة كانت كل ما يعرفه بالعربية.

«اوكي، هذا حسن بالنسبة لك، لكني لست مسلماً، أنا مسيحي، أتفهني؟ مسيحي!».

همهم الأميركي الشاب مرتبكاً وتأمل إلى وقت طويل. رمقني بنظرة ملؤها الشك وقال: «أنتَ إذاً لست عربياً، أنتَ على ما أظن مكسيكي!».

«لا، لستُ كذلك، أنا عربي أصلي كباقي العرب تماماً. وفي كل جيل تنجب عشيرتنا شاعراً».

همهم الرجل ثانية وهو يتنهد وصمتَ لفترة طويلة ثم قال: «لكن إن كنتَ عربياً، يجب أن تكون مسلماً، هذا مؤكد».

«لا، لا يا سيدي، لا شيء مؤكداً. العرب مزيج من يهود،

مسيحيين، مسلمين، دروز، شيعة، يزيديين وطوائف ثانية برؤوس وطوائف بلا رؤوس» أجبته بسخرية.

همهم الرجل محتاراً ولاحظت من نظرة عينيه أنه بدأ حينها يفقد أعصابه كلية: «لا، كل العرب مسلمون»، قال لي بصوتٍ عالٍ: «هم اخترعوا الإسلام!». بدا خائب الأمل وكأن العرب قد تركوه لوحده مع إسلامه.

قال عصام مستغرباً: «هل الأميركيون أغبياء، أم أن الشيطان ركب رأس هذا الرجل؟».

«لا، أنت تعلم، ليس الأميركيون أكثر أو أقل ذكاءً من العرب. وأنتم لن تصدقوا ما سأخبركم به عن ناطحات السحاب في نيويورك!».

اعترض يونس على ذلك: «ولِمَ لا، أصدقك لأني رأيت صورها في الجرائد!».

«اوكي، تصدق ذلك، لكن أنا واثق من أنكم لن تصدقوني إن أخبرتكم أن الأميركيين لا يجادلون في سعر مشترياتهم».

صاح عصام باستياء: «وماذا يفعلون إذناً أثناء البيع والشراء؟ يكشّون الذباب؟».

«لا، لكن ما أن يدخل المرء متجراً، حتى يلقي بنظرة على الأسعار الملصقة على المبيعات، يدفع ثمنها، يأخذها ويغادر المحل ببساطة».

اعترض عصام قائلاً: «لا، أنت تهزأ بنا».

«لا، والله، وأنا كذلك لم أصدق بادئ الأمر، لكن بعد أن تعلمت اللغة ذهبت إلى متجر كبير مكون من عدّة طوابق، حيث يجد المرء كل ما يحتاجه من ثياب، طعام، ألعاب، قماش، دهان وأجهزة الراديو».

سأل موسى باندهاش: «إذناً فهو سوق كامل مثل سوق الحميدية، كل هذا في بناء واحد؟».

«نعم، هذا صحيح، سوق في بناء واحد، باستثناء أنه لا يمكنك المساومة! أعلم أنكم لن تصدقوني، حتى عينا صديقي العزيز سليم تتهمني بالكذب».

شعر سليم وكأنه قد قُبض عليه متلبساً فابتسم.

«اوكي، وهكذا دخلت إلى المبنى، رغبت في شراء سترة، وجدت واحدة مناسبة فأخذتها إلى البائعة وسألتها: «كم ثمن هذه السترة؟».

نظرت المرأة نحوي مندهشة وأجابت بطريقة ودودة: «يمكنك قراءة السعر هنا، يا سيدي، إنه مدّون على اللصاقة، خمسون دولاراً».

«هذا صحيح تماماً، إنه مدوّن على اللصاقة، لكن الحياة محادثة، سيدتي العزيزة ـ سؤال وجواب، أخذ وعطاء! سأدفع عشرين» قلت لها كأي واحد هنا يبدأ بالمساومة.

«أخذ وعطاء؟ سؤال وجواب؟» كانت مرتبكة لدرجة أخذت تتلعثم. لكنها استعادت هدوءها وقالت بصوت عال، لا بد وأنها ظنت بأنني لم أسمع: «سعر السترة خمسون دولاراً، نصف مائة دولار!» اوكي، ولكي تجعل الأشياء واضحة تماماً، أشارت إلى السعر المدوّن على اللصاقة ثانية.

«هل هذه كلمتك الأخيرة؟ حسناً، سأدفع خمسة وعشرين دولاراً، الآن يمكنك القول بأنها صفقة جيدة».

«ماذا تعني، كلمتك الأخيرة؟ خمسة وعشرين؟ سعرها خمسون، ألا يمكنك القراءة؟ خمسة وبجانبها صفر!» صاحت السيدة وكتبت الرقم خمسين على قطعة ورق بجانب صندوق النقود.

«اوكي، اوكي، أنا لا أريد أن أخيب ظن شابة جميلة مثلك، لتظنّ بأنني شخص بخيل وما شابه، لذا سأدفع ثلاثين دولاراً»، أخبرتها بسبب رغبتي في مساعدتي إياها، «أنا زبون جديد هنا، وإن اتفقنا اليوم فسوف أصبح زبوناً دائماً» أضفت هذه الكلمات ـ التي تضمن أن تكسر المقاومة الأخيرة لأي تاجر في دمشق.

لكن المرأة أصبحت الآن مشدوهة تماماً «زبون دائم؟ عمَ تتحدث؟ اسمع يا سيد، أنا أقوم بواجبي لا أكثر، السترة بخمسين دولاراً، خذها أو أتركها». صاحت السيدة وقد فقدت صبرها.

أغضبني كلامها، لكني أخذت بنصيحة سمعتها ذات مرة من والدي: إن كان البائع غبياً لدرجة لم يُخفض معها السعر، فعليك رفع عرضك بعض الشيء وتهدده بأنك ستغادر متجره. فإذا كان غبياً إلى درجة لم يعِ معها نواقيس الخطر، ما عليك حينها سوى مغادرة المتجر ببطء وعدم الالتفات إلى الوراء. لا تدعه يلحظ ولعك بهذا الشيء، هذا مكتوب في الإنجيل: لا تلتفت إلى الوراء! حينها سيضطر أن يناديك ويُخفض السعر قليلاً. آه، يا حسرتي على أبي المسكين، لم يرَ أميركا أبداً! وهكذا رفعت في ذلك النهار عرضي إلى أربعين دولاراً وقلت للمرأة: «إن كنتِ غير مهتمة أن تبيعي اليوم أي شيء، فسوف أذهب إلى بائع آخر وأشتري السترة ذاتها بعشرين دولاراً». وضعت السترة جانباً ومشيت على مهل من دون أن ألتفت إلى الوراء. أي بائع في اللاذقية أو دمشق كان سيقوم بمناداتي حينها ومحاولة إتمام الصفقة، لكنها لم تنبس بكلمة.. خلال ثلاثين عاماً لم يناديني أي تاجر لأعود، لذا تخليت تماماً عن المساومة».

أنَّ عصام قائلاً: «لا توجد قوة على الأرض تجعلني أعيش في أميركا».

«وأنتم كذلك لن تصدقوني إن أخبرتكم أن الأميركيين يحافظون على مقابرهم نظيفة ومرتبة ويقومون بتزيينها، وكلما كان الطقس جميلاً يذهبون إلى المقابر للتنزه».

«أوه، دعك من هذا، أنت الآن تحنث بقسمك الذي قطعته على نفسك بأن تخبرنا الحقيقة ـ إنها قصص خيالية تماماً! نزهة في المقابر؟». كان يونس ساخطاً وهزّ البقية برؤوسهم شاعرين بالأسف على المغترب. كان علي يلقي قطعة حطب كبيرة في المدفأة وحين سمع بكلمة مقبرة قال داعياً: «فليحمنا الربّ من كل مكروه!». وحده فارس كان يعلم من أيام دراسته في باريس أن توما لم يكذب، لأن الفرنسيين كانوا أيضاً يذهبون للمقابر للنزهة، لكن الوزير السابق فضّل الصمت وترك توما يتحمل غيظ الآخرين وحده.

فكر سليم أن المغترب كان يكذب، لكنه ابتسم ساخراً من توما اليائس الذي أصرّ على تمرير كذبته هذه كحقيقة.

«اقسم بمار. . .» بدأ توما حلفانه ليضمن تأييد قوله عن حقيقة التنزه في المقابر.

صاح يونس «من أجل الربّ، لا تقسم! لا نريد أن يصيبك أي مكروه».

«يا الله» أنّ توما يائساً فيما أخذ الآخرون بالضحك عالياً.

قال يونس غاضباً: «المقبرة مكان الخراب والدمار، وليس مكاناً للنزهة. انظر وتأمل مقابرنا! لقد تهتكت مع الوقت، تماماً مثل العظام

المدفونة تحت الأرض. من التراب وإلى التراب نعود كما يقول الإنجيل المقدس، وليس من التراب إلى متنزه. أية روح مجنونة تبني مقبرة وتقوم بصيانتها لتدوم؟ يتمنى العرب نسيان الموت اليوم قبل غد».

صاح توما عالياً: «والأميركيون أيضاً، ولكن بطريقة مختلفة. إنهم يتصرفون وكأن الموت لا يعنيهم، وهم يتمشون بين الموتى وكأنهم نسوا الموت تماماً».

قال موسى مقطباً بفعل المعركة الحامية: «أنا لن أرتادها سوى مرة واحدة، محمولاً على الأيادي. هل سمعتم بقصة امتحان الشجاعة في المقبرة؟».

«أيّها؟» سأل عصام العارف بالعديد من القصص المشابهة التي تُروى غالبيتها في أمسيات دمشق الشتوية الباردة.

«قصة أكل الدجاجة في المقبرة!».

قال عصام وهو يربت على كتف المغترب: «لا، أنا لا أعرف قصة الدجاجة هذه. أرجوك أخبرنا بها! لربما تُلهم توما أكثر».

بدأ موسى قصته: «حدث ذات مرة أن اختلف بعض الشباب في قرية في رأيهم من هو أشجع الرجال، وأقروا أن البطل هو من يذهب عند الغسق إلى المقبرة ويجلس على قبر ويتناول بهدوء دجاجة محشوة بالأرز والزبيب والصنوبر. اتهم المتحدي القرية بأكملها بالجُبن وعرض كيساً كبيراً من النقود كمكافأة للبطل الذي يعود ثانية مع عظام الدجاجة. خسر الرهان كل الرجال المحترمين في القرية، حيث فقد حتى هؤلاء الذين لبثوا عند القبر شجاعتهم ما أن لمحوا يداً شاحبة تظهر من التراب وتُمسك بالطعام، ورافق اليد صوت يزأر من القبر: «دعنا نتذوق

معك». طبيعي، لم يعرف أحد بأن شريك المتحدي قد اختبأ سلفاً في قبر فارغ قرب المكان المحدد.

ذات يوم قَدِمَ فلاح هرمٌ ونحيل يكاد يتضور جوعاً مدعياً أن بوسعه القيام بهذه المهمة. أغرق القرويون في الضحك حين سألهم: «هل الدجاجة طازجة؟».

أجابوه: «أجل، تُقدم كل ليلة دجاجة طازجة».

هكذا مضى الرجل من دون أدنى تردد إلى المكان المحدد في المقبرة. جلس أرضاً، قسّم الدجاجة إلى نصفين وشرع في التهامها. كان كل ما فعله حين خرجت اليد من التراب وزأر الصوت عالياً، هو أن أدار وجهه وصاح: «الأحياء يأكلون أولاً ومن ثمّ الأموات». لكن اليد أمسكت بالدجاجة مرة ثانية حينها نهض الرجل وأخذ يدوس عليها بقوة إلى أن صاح المتآمر من القبر طالباً الرحمة.

عاد الرجل إلى القرية حاملاً عظام الدجاجة. حمله الناس عالياً على أكتافهم وارتجل مختار الضيعة خطاباً على شرفه وشجاعته، لكن الرجل ظلَّ يدمدم ويشتكي بأن الدجاجة ليست طازجة أبداً.

ضحك توما: «حسناً، أنتم لا يمكن إصلاحكم أبداً. لكن الأميركيين على أية حال، يعيشون حياة مختلفة ـ وهم أيضاً لم يصدقوا كلامي مثلكم، حين أخبرتهم عن حياتنا. كانوا يتهمونني كذلك بسرد قصص خيالية، إنهم لا يصدقون مثلاً بأننا نمتطي الجمال ونأكل التين وبأننا نحتفل بمناسبة الزواج لعدة أيام ونحدّ على الميت لمدّة أطول، لكننا لا نحتفل أبداً بأعياد ميلادنا».

قاطع عصام كلامه: «ولمَ يحتفل المرء بعيد ميلاده؟ بالإضافة إلى هذا فإنك إن عرفت يوم ميلادك الحقيقي يعني أنك ستكبر بالعمر كل

يوم وكل سنة أكثر فأكثر. أنا، من ناحية أخرى، أشعر بأنني اليوم أصغر عشرين سنة عما كنت عليه قبل عشر سنوات».

«لكن بالنسبة للأميركيين فإن أعياد ميلادهم أكثر أهمية من عيد الفصح ذاته»، أمسك توما ثانية بخيط الحكاية: «وهم يحتفلون بعيد ميلادهم في الطابق الرابع مثلاً بالرغم من أن جارهم قد توفي للتو في الطابق الثالث. لم يصدقوا كلامي حين أخبرتهم عن الحكواتية المحترفين في مقاهينا، كل ما فعلوه أنهم أخذوا بالضحك عليّ حتى أنهم لم يرغبوا بسماع شيء عن حمّام السوق».

تساءل علي: «ما بهم؟ هل الأميركيون برابرة؟».

«لا، لكن الناس لا يصدقون أي جديد بالنسبة لهم. وأية معجزة تتحول إلى مسألة عادية إن دامت أكثر من يومين. وكذلك أنتم لن تصدقوني إن أخبرتكم بأن الأميركيين يعاملون الكلاب أفضل من معاملتهم للإنسان».

قال يونس هازئاً: «اسمع، لمَ لا تبدأ بإخبارنا قصة حقيقية بدلاً من حشو أدمغتنا بهذه الأكاذيب عن الأميركيين؟ أنا صبرت عليك حتى الآن فقط لأن حلويات زوجتك لذيذة للغاية».

قال الوزير السابق الذي رمقه توما مستعطفاً: «لا، ما قاله عن الكلاب صحيح تماماً، أنا أعلم هذا من حياتي في فرنسا. الفرنسيون لا يعاملون الكلاب أفضل من البشر، لكنهم يدللون بالفعل هذه الكلاب اللعينة خاصة منها الهجينة الصغيرة!».

لكن دفاع فارس عن توما لم يقم سوى بصبّ الزيت على النار، سرعان ما أخذ سليم يصفق بيديه ويضحك.

قال يونس: «لا تحاول أن تموه الموضوع بحديثك عن فرنسا وأميركا، يعني بلا مؤاخذة تريدون أن نخبل بين فرنسا وأميركا ستقول لاحقاً إن الكلاب ترتاد المطاعم. ينحني خادم المطعم احتراماً للكلب الجربان ويسأله: ماذا يحب السيد كلب كطبق رئيسي؟ أقترح عليكم يا سيدي اليوم الطبق الخاص المكوّن من فخذتي اليمنى متبلةً بالزعتر مع صلصة البندورة!». ضحك الرجال كلهم فيما رمى سليم نفسه على سريره ممسكاً بمعدته من كثرة الضحك. كانت الدموع تسيل على وجنتيه الحمراويتين.

أجاب توما منزعجاً: «لم يقل أحد شيئاً عن المطعم، لكن الكلاب في أميركا تحظى بأكثر من عشرين صنفاً من الطعام!».

وبّخه موسى قائلاً: «وأظن أن لديهم حلاقين كذلك؟».

«لا» كذب توما، وكره نفسه من أجل هذا: أثناء طريقه إلى بيت سليم قطع على نفسه وعداً أن يخبرهم بتجاربه الشخصية في أميركا بحرفيتها - وهو الآن قد بدأ بالتراجع عنها وحنث بعهده. حلم لسنوات أن يفتح قلبه لأصدقائه. كان يعلم أن الأمر سيكون صعباً، لكنه لم يتصور أبداً أن هؤلاء الرجال الشيوخ المسنين سيقاومونه بهذه الضراوة.

«وماذا عن مقبرة الكلاب؟» استفسر علي فجأة.

«لا، لا» مرة أخرى كذب توما بفعل تعبه ويأسه. نظر إلى الوجوه المحيطة به وتأمل مفكراً كم كان موسى والمسيح ومحمد محظوظين حقاً لعدم معرفتهم بهكذا رفقة. قرر الآن ببساطة أن يكذب عليهم، «اوكي» قال وتنفس الصعداء «ما زلت أريد أن أخبركم عن رجل غير عادي، عملت في شركته ككاتب حسابات لعشر سنوات. كان في شبابه فقيراً

جداً، لكنه كان خبيثاً من دون أدنى شك. أصبح غني حرب فأخذ يتاجر في أي شيء قابل للبيع والشراء. لم يكن شحيحاً بالمعنى الدقيق للكلمة، لكنه كان يكره الحديث الطويل ويتكلم باختصار برقية باردة. كان يسأل كلما ذُكر اسم أحدهم: «ماذا يبيع؟». وإن أخبرته أن الرجل لا يبيع شيئاً ولكنه شخصية مهمة، فإنه يسأل بعد لحظات: «وما سعره؟»، لا يمكنك أن تسأل غني الحرب هذا شيئاً من دون أن يسألك عن ثمنه.

حسناً، كنا أثناء فرصة الغداء نجلس في الفناء ونتبادل القصص عن بلادنا وعن الصداقة والإخلاص، لكن كل ما كان يفعله هو الضحك علينا، ويهزأ بنا قائلاً: «أنتم لن تحصلوا على نتيجة من هذه القيم البالية، أخلاق، صداقة، حب، البيع والشراء، هو كل ما يحتاجه الناس».

ذات يوم طلب مهاجر من جزيرة كريت أن يسمع قصة حب عربية قديمة. كان هذا الرجل يشبه سليماً ويحب القصص أكثر من أي شيء آخر. رغبت أن أروي له قصة قيس وليلى، لكنه كان يعرفها، وكذلك قصة عنترة وعبلة كان قد سمع بها قبلاً من عرب آخرين. اوكي، أخبرته عن قصة حزينة لشابة لم ترغب بالزواج من ابن عمها لأنها كانت واقعة في غرام حدّاد القرية. أخبرني جدي هذه القصة منذ زمن بعيد وفي الحقيقة، فقد عاشها لأنه كان بذاته حداد القرية.

وهكذا استمع العمال إلى قصتي، بل حتى إن واحداً أو اثنين قد بكيا تأثراً بالرغم من أنهم لم يروا البلاد العربية قبلاً. لكن السيد ولسون ـ وهذا اسم صاحب الشركة ـ ظلَّ واقفاً عند الباب متظاهراً بأنه منشغل بالحسابات. بعد انتهائي من سرد القصة، أخذ يضحك هازئاً من أبطال قصتي ومن أحزانهم «يا توماس العزيز ـ هكذا يُدعى توما بالإنكليزي ـ

ما معنى هذه القصة السخيفة؟». ثمّ تابع كي يصل إلى النتيجة المختصرة بالنسبة له: كل السعادة التي استغرقت منك ساعات كي تصفها في قصتك، يمكنني شراؤها بخمس دقائق: يمكنني شراء تلك المرأة الجميلة ـ وحصان عربي علاوة على هذا. ببضعة دولارات يمكنني استئجار قاتل محترف لقتل والد العروس العنيد الذي رفض إعطاء موافقته. ما هذا الأمر المهم؟ أنتَ لا تحتاج إلى قصة لكل هذا، اعمل بجدّ فقط».

«سيدي، هناك الكثير من الأشياء التي لا يمكن للمرء شراؤها» أجبته بمرارة بما أنه استخف بمعاناة جدتي وشجاعتها.

ضحك وقال: «مثل ماذا؟».

«مقدار لحظة من السعادة حتى وإن كانت بعمر نسمة ريح» أجبته ومضيت مبتعداً. ما زلت إلى هذا الحين أسمع رنين ضحكته تجلجل خلفي.

«يمكنك شراء الريح، كذلك، عزيزي توماس. إن ثمن مروحتي الكهربائية هو عشر دولارات وخمسون سنتاً» ظلّ ولأسابيع يتبجح بهذا القول كلما صادفني.

«حسناً، كان السيد ويلسون إنسانا ناجحاً وعلى قدر اهتمامه بتقارير الشركة وتفاصيل أخبار الحروب والمجاعات كلها فقد كان يمقت القصص. وهكذا مرت السنين إلى أن هجرته زوجته فجأة. كان في قمة يأسه: لم تفلح أية وسيلة في تغيير رأيها، لا التهديد ولا المال. أصبح السيد ويلسون تعيساً لدرجة فقد معها رغبته بالحياة. ظل لأيام وهو يرفض تناول الطعام. حبس نفسه في مكتبه، ميتاً بالنسبة للعالم. رفض

الاغتسال وحلاقة ذقنه. بعد ثلاثة أيام قمنا بإبلاغ زميل مقرب له في التجارة ـ لم يكن لديه أي رفاق آخرين. حسناً كان السيد إيدن رجلاً من هذا العالم يحب الحياة والمرح وصدف أنه كان يكن مودة صادقة للسيد ويلسون. أسرع لرؤيته وأجبره على فتح باب مكتبه، ثم اصطحبه إلى جزيرة للاستجمام. اوكي، كان السيد ويلسون قد تجاوز الخمسين، وعلى قدر مباهاته بمقدرته على شراء السعادة إلا أنه كان عملياً رجلاً تعساً غير قادر على نيل لحظة هدوء.

حسناً، سافر مع صديقه ومكث عنده لمدة شهر. حين عاد كانت بشرته مسمرة بفعل الشمس ووجهه يطفح بالسعادة. قرر منذ ذاك الوقت، آخذاً بنصيحة صديقه أن يتمتع بفطور مترف كل يوم ويسبح لساعة على الأقل بعد الظهيرة ويتلقى تدليكاً طويلاً كل يوم ويصحب امرأة شابة عند كل مساء إلى مطعم أو مسرح أو إلى سينما. بدأ في المكتب بمطالعة صحف نيويورك المصورة، وأخذنا نشتري له أي هراء مطبوع على الورق. كان يقرأ الصفحات الملونة ويضحك.

قرأ ذات يوم أن أثمن الأشياء في الحياة هو الوقت. إنه أثمن من الذهب والجواهر. تذكر السيد ويلسون كلامي فأرسل في طلبي «أنتَ محق، عزيزي توماس، الوقت أثمن من الذهب، هذا مكتوب هنا!» أراني صورة مداوٍ لديه القدرة على إطالة الحياة لسنوات. كان عمر المداوي مئة وخمسين سنة، لكن وجهه بدا فتياً ونضراً كوجه ابن الثامنة عشرة. برقت عينا السيد ويلسون وهو يخبرني عن نيته بتعويض كل ما فاته من لذة العيش. ذهب إلى هذا المداوي ودفع مبلغاً طائلاً من المال كي يطيل حياته سنة واحدة. منذ ذاك الوقت عاش السيد ويلسون حياة

سعيدة جداً وربما لحسن حظه أنه وقع في غرام شابة جلبت له ما هو أكثر من السعادة. لكن لم تنقض سوى شهور تسعة حتى قرر استدعائي للمرة الثانية. كان قلقاً من جديد فقد خشي أن يموت سريعاً، لأنه ذاق طعم السعادة الآن. حاول أن يقنع المداوي كي يشتري منه عشرين سنة لكن الساحر رفض، كان يبيع الزمن بالأشهر فقط لأن هناك زبائن كثيرين ينتظرون دورهم.

بعد بضعة أيام ظهر السيد ويلسون مرتاحاً بعض الشيء. تمكن بعد جهد جهيد ودفع مبلغ باهظ من المال من شراء شهرين ونصف آخرين من المداوي. أكّد له رجل الأعجوبة أن هنري فورد وحده من يسعه شراء مدّة أطول من هذه.

حسناً، مرت أشهر السعادة هذه بسرعة وجعلت شهوة السيد ويلسون تكبر أكثر. قبل يومين من نفاد المدة التي اشتراها أصيب بذات الرئة، لكنه رفض الذهاب إلى الطبيب. بدلاً من هذا قرر الذهاب إلى الرجل ذي اليدين العجائبيتين، لكن المداوي كان قد مات قبل أسبوع.

أسرع سكرتير السيد ويلسون إليه آملاً بإقناعه بالذهاب إلى الطبيب بعد كل ما حدث. ما أن سمع السيد ويلسون خبر موت المداوي حتى أخذ يصرخ مثل حيوان جريح ومات في اليوم التالي.

نظر توما إلى وجوه المستمعين الشاحبة وعلت وجهه شبه ابتسامة.

صاح يونس متحمساً: «هذه قصة حقيقية، حقاً يا صديقي لقد رأيت العالم!».

قال موسى: «هذا حق، لا يمكن لأحد اختلاق قصة كهذه، لقد عشت أحداثها بالفعل!».

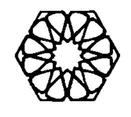
أضاف فارس: «كان نابليون العظيم يعلم ما يقوله تماماً بأنه على المرء أن يقضي ثلاث سنوات في المهجر قبل أن يصير رجلاً حقيقياً».

أجاب توما بجفاء: «سهل على نابليون قول هذا، أنا واثق أنه لم يقل هذا في ميناء نيويورك أو على ضفة نهر هدسون في يوم ممطر بارد لدرجة يلعن فيها المرء الساعة التي ولد فيها».

ظلّ الأصدقاء يتحدثون عن الزمن والسعادة إلى وقت متأخر تلك الليلة. لكن توما لم يصغِ لكلمة واحدة، كان يجتر خيبة أمله حيال رفض أصدقاؤه تصديق حقيقة حياته وتقبلهم للكذبة ليس فقط كحقيقة، بل ومدحها كذلك، وكان كل ما فعله هو تجميع قصة عن إعلان صغير منشور في جريدة نيويورك تايمز عن ساحر مشعوذ قبض عليه وتركيب بعض أسماء أبطالها من أسماء الرئيس الأميركي ويلسون والوزير الأول البريطاني انطوني إيدن.

بعد منتصف الليل بوقت قصير بدأ عصام بتوزيع الورق لكن الحلاق العجوز ربت على كتفه قائلاً: «دع الورق يا صديقي، بعد قصة رائعة كهذه، أنا متشوّق لسرد واحدة بنفسي، سوف أتطوع أن أكون الأس غداً إن لم يمانع أحد».

لم يمانع أيٌّ من الوزير السابق وعصام، وأما علي الحداد، فقد كان مرتاحاً إلى درجة صاح من فرحه: «هذا رائع!».



كيف حفظ الملك صادق
كذبات العالم كلها
وفوَّت الحقيقة الوحيدة نصب عينيه؟

لو سأل أي عابر سبيل في أواخر الخمسينات أحداً من أهالي دمشق القديمة عن موسى الحلاق فإنه سرعان ما يبادره هذا بسؤال: «قصدك، موسى الحميماتي، أم موسى الكحتة؟». وبما أن صديق سليم هذا لم يملك حمامة واحدة في حياته، لذا كانت سمعة موسى السيئة إحدى مسلّمات حارات دمشق القديمة. بيدَ أنها شائعة مجحفة كالعشرات غيرها: فقد فشل العديد من المُفترين الدمشقيين في تمييز الفقر المخفي بمهارة عن الشحّ الحقيقي. والحقيقة أن موسى كان فقيراً، بل فقير جداً وصاحب عائلة كبيرة عليه تأمين لقمة عيشها. كانت معركة عمل تستغرق نصف ساعة مع غابة من الشعر الكثيف لا تكسبه أكثر من نصف ليرة، فيما يتلقى لحلاقة ذقن ربع ليرة بائسة. كان يقضي ساعة كاملة مع الزبون ليكسب ثلاثة أرباع الليرة. وبعد هذا، كنت ترى موسى يسعد رغم إرهاقه لقدوم زبون جديد يدفئ كرسي الحلاق. وفي كل يوم، باستثناء الاثنين، كان موسى يقضي عشر ساعات من العمل في عراكه مع شعر الزبائن، لكن غلّة آخر النهار كانت بالكاد تعينه لدرء الفقر عن عتبة داره.

بطبيعة الحال، كان من الصعب على المرء أن يحزر إن كان أي حلاق في دمشق فقيراً بالفعل. فالمريول الأبيض والوجه الحليق النضر دوماً، والشعر المصفف بأناقة ورائحة الكولونيا الفواحة، كانت من الأشياء التي تجعل أي حلاق يتألق مثل سيد نبيل. وإن كان من الصنف الممتلئ مثل موسى، حينها لا توجد قوة على الأرض تقنع الدمشقيين معها بأنه فقير الحال. أن تكون سميناً عند العرب يعني أن تكون غنياً. لا يثير الدهشة اعتقاد كهذا، حيث إن معظم العرب كانوا آنذاك يجدون بالكاد شيئاً يقتاتونه في صحرائهم ويعيشون في كنف حياة صعبة تحت أشعة الشمس الحارقة، لذا كان مستحيلاً إيجاد أي غرام دهن إضافي يكسو عظامهم. وحدهم أولئك الذين يعيشون حياة الدّعة والراحة في قصورهم كان من الممكن لهم أن يصبحوا بدناء، وقد اتّبع نجوم السينما والراقصات الشرقيات هذا التقليد الارستقراطي فاتخموا أنفسهم وهكذا انعكست على أجسامهم المترهلة مظاهر الصحة والثراء ليغروا بها الغالبية الجائعة ليقينهم أن فنهم لا يغري أحداً.

لم يكن موسى ممتلئ الجسم فحسب، لكن حفاظه على شعره المزيّت والمصبوغ والمفروق عند الوسط، بالإضافة إلى ابتسامته التي تظهر صفين من الأسنان اللؤلؤية البياض والمرئية من مسافة بعيدة. كل هذا أعطى مظهره العام هيئة نجم سينمائي مرفّه. حينها من كان ليصدق أن هذا الحلاق يبدأ نهاره بتقسيم زبائنه؟ أول ثلاثة لدفع إيجار البيت، الاثنان التاليان لتأمين الخضراوات. زبون لشراء الملح والسكر والشاي، واثنان آخران لتأمين ثياب الأولاد والأدوية، وإن ظهر زبون آخر فقد

تنعم عائلة موسى ببعض اللحم، وحين يحالف الحظ موسى بشكل استثنائي ويتكرم عليه سيد سخيّ بربع ليرة إضافية يسرع حينها لشراء بعض الفواكه ويحملها إلى بيته سعيداً وفخوراً بانجازه.

كما أسلفنا، لم يقتر موسى يوماً في تزييت أو صبغ شعره. تناقلت الألسن في دمشق القديمة إشاعات كثيرة عن إغوائه للفتيات الصغيرات، لكن كان في الأمر مبالغة، فقد أغوى ولمرة واحدة في حياته، وقبل أربعين سنة فتاة وهذه أصبحت فيما بعد زوجته.

كل يوم كان موسى يحلق لنوري، بائع الورد، حلاقة مميزة ـ مقابل قرنفلة حمراء يشكّها في عروة سترته. كانت القرنفلة مثار حيرة جيران موسى الفقراء، حيث كان من المعروف أن الأغنياء وحدهم هم الذين يمارسون هذا الطقس ويعلقون كل صباح وردة جورية أو قرنفلة في عروة ياقتهم الأنيقة، ومن هؤلاء القلائل كان فريد الأطرش، المطرب المشهور، وسليل عائلة الأطرش الدرزية الشهيرة، والمليونير الشامي جورج بك صحناوي. لكن موسى كان يتمتع بحيرة الجيران ويتظاهر بالطرش عندما كانت عفيفة، الجارة ذات اللسان الطويل، تهمس بشكل يسمع فيه سكان حوض الفرات رأيها: «الباسه مرقع بس كركوز ما بيمشي بلا قرنفلة».

ذاك المساء بدا الجميع متشوقين لسماع قصة الحلاق. كان معروفاً في دمشق القديمة بأنه حلاق مريع لكنه راوٍ عظيم للقصص القصيرة والطرائف، وأن زبائنه يخرجون من عنده بحلاقة شعر مرعبة مع جرح أو اثنين وهم راضين بمتعة حديثه، أو ليفشونه أسرارهم لأن موسى كان بئراً عميقة بحق.

حين دخل موسى غرفة العربجي، تعجب سليم ورفاقه بعض الشيء من حمله لحقيبته الجلد البنية القديمة، لكنهم سرعان ما عاودوا شجارهم. كان يونس يصيح بالوزير السابق: «أينما ذهبت، يهمس الناس هس، الجدران لها آذان، وبما أن الجدران قد صار لها آذان فإننا فقدنا ألسنتنا».

صاح فارس غاضباً: «لكن ما علاقة هذا الأمر براديو الترانزستور؟».

زأر يونس: «لا أعلم، لكن هذا الزمن الملعون بدأ بهذا الترانزستور التعيس..».

أكّد المعلم كلامه وتابع: «اعتاد الناس قبلاً الجدال مع بعضهم البعض، الندّ للندّ، لكن الترانزستورات اكتسحت البلد هذه الأيام مثل أسراب الجراد. هناك راديو في كل غرفة حتى وإن لم تصلها الكهرباء. في وسع الحكومة أن تسمعك صوتها وأنت في أبعد المناطق كي تخبرك بالحقيقة الوحيدة السارية المفعول. لم يعد هناك ما يفصل الحكومة عن رعيتها بعد الآن لا جدران البيوت ولا الأمية تقف عائقاً بعد دخول الترانزستور. حيث يأخذ الرئيس ورفاقه المقربون بالهمس أو الصراخ بآرائهم مباشرة في أذنيك وكأنهم من أصدقائك القدامى. أليس هذا صحيحاً؟ سابقاً حين كنتَ أنت وزيراً في الحكومة، عزيزي فارس، كنت أنت وزملاؤك مساكين من دون هذا الراديو المحمول. أنظر الآن إلى جمال عبدالناصر، يمكنه الوصول إلى أي شخص، حتى إنه بوسعه إلقاء نكات لإضحاك الناس في الشارع. هذا صحيح، سرد نكات، وكأنه جارك في الحي أو إلى طاولة في حانة، يسأل ناصر ملايين

المستمعين لخطبته إذا كانوا يريدون سماع آخر نكتة، إضحكوا يا أصدقائي، هل سمعتم بنكتة ارتفاع الأسعار؟ آه، لا يوجد من هو أفضل من ناصر، على الأقل فيما يتعلق باستغفال واستغباء أمة بكاملها».

قاطعه فارس: «رجاءً، دعوا موسى يروي قصته!».

هزّ سليم وعلي رأسيهما بشكل واضح تأييداً لرأي الوزير السابق.

«إذناً، هل تدعوني أبدأ أخيراً؟ فهذه الليلة ليلتي، أليس كذلك؟» أكّد موسى موقفه بوضوح وتابع ما أن قام سليم بمناولته كوب الشاي: «عندي شعور أن عضلات الوجه تسترخي ما أن تتصوبن ولهذا السبب يخبرني زبائني بأمور لا يبوحون بها إلى زوجاتهم أو حتى إلى الخوري على كرسي الاعتراف، لكن غالبية ما يقال ممل، حيث يحتاج المرء إلى صبر أيوب كي ينخله كله ليجد درّة ثمينة».

«بالنسبة لي، متى أصبح الحديث مملاً أغلق أذنتي» قاطعه الأستاذ. تابع موسى: «طبعاً، وأنا أيضاً، فكلنا مستمعون سيئون للغاية، لأن سليم أفسدنا بأكثر القصص إمتاعاً. بوسع أي شخص الاستماع إلى قصة مثيرة، لكن المستمع الجيّد مثل منقّب الذهب الدؤوب الذي يحفر بصبر في الطين ليجد ذرة من المعدن النفيس. لكن يكفي الحديث الآن عن فن الإصغاء، أريد أن أخبركم شيئاً عن فن الكلام. حين بدأت بمزاولة حرفتي أخبرني معلمي: «يحكي الحلاق للزبون ما يرغب هذا سماعه» في رأيي أنها نصيحة للحلاقين السيئين، أما أنا فأحكي دوماً ما أرغب بقوله فقط، تحت مقصي تصبح كل الرؤوس متساوية سواء كان رأس قاضٍ أم رأس شحاذ. لم أخش الكلام يوماً، في الواقع، لأني أنا من يمسك الموسى بيده وليس الزبون.

حسناً، أريد أن أخبركم الليلة قصة صغيرة عن الكذب، بما أن صديقي سليم يحب سماع الأكاذيب، وإن لم تمانعوا، بودي أن أحلق شعر صديقي في نفس الوقت. مع كل ضربة مقص، كلمة، ومع كل تمشيطة شعر، جملة ـ بهذه الطريقة أشعر بالارتياح وكأني في دكاني إضافة إلى أن سليماً لم يحلق شعره منذ دهور.

قلّب سليم عينيه مفضلاً البقاء أخرس من إخضاع رأسه إلى موسى الحلاق هذا ومقصه.

قال عليٌّ معزياً إياه: «لا تخف يا سليم، سوف أجلس مقابلك وإن خدشك موسى، فلتغمز بعينك فقط وللتو سأصفعه بقوة يلتصق معها على الحائط بجوار صورة المرحومة زوجتك».

ضحك الرجال وهذا ما شدّد من عزيمة سليم. بسط يونس جريدة تحت الكرسي كي لا تتناثر قصاصات الشعر على السجادة الصغيرة فيما اتخذ العربجي العجوز مكانه وسط الغرفة.

فتح موسى حقيبته الجلدية وبحركة سريعة واحدة ارتدى مريوله الناصع البياض، وضع غطاء الحلاق المصفرّ على كتفي سليم، ثمَّ رتب بعناية مقصاته، فراشي الشعر، وماكينة يدوية قديمة على قطعة قماش فرشها على السرير. لم يشعر موسى بسعادة كهذه منذ زمن طويل. طقطق فخوراً بمقصه الألماني ماركة سولينجن في الهواء لعدة مرات معلناً بدء المعركة ثم أمسك بمشطه جرزة من شعر رأس العربجي وجزها بضربة مقص واحدة.

«حسناً. . . يقال إن دمشق الشام رأت حكاماً أكثر مما في أبنيتها من حجارة ـ وكما تعلمون فإن حفنة من الملاط وبحصة صغيرة يدومان أكثر

من أي إنسان». أمسك موسى بجرزة شعر ثانية لكنه ما أن باشر حتى قحط بمشطه جلدة رأس العربجي.

صاح علي: «انتبه!».

قال عصام مذكراً الحلاق: «ما زال أمام سليم سنوات طوال ليعيشها».

«لم تعد يداي كما كانتا في السابق» تابع موسى منتبهاً أكثر لضربة المقص التالية، «على أية حال، كما كنت أخبركم، هناك حكام أكثر من الحجارة. قلّة من هؤلاء الحكام ماتوا على فراشهم، بالرغم من أن الملك الذي سأخبركم قصته اليوم قد عاش حياة طويلة، وفي يوم من الأيام مرض مرضه الأخير فلزم الفراش. ما أن حضر أمامه ملاك الموت حتى استدعى الملك وريثه الوحيد، الأمير صادق، الذي قدم وجلس بجوار سرير أبيه الملكي، وبصوت هادئ أمر الملك وزراءه وخدمه مغادرة الغرفة الملكية كي يتسنى له البقاء مع وحيده».

أجفل سليم ما أن شعر بضربة مقص أخرى خلف أذنه، لكن علياً لم يلحظ هذه المرة شيئاً لأنه كان يلقي بحطبة داخل المدفأة.

ضحك عصام قائلاً: «اسمع الآن يا موسى، لا يعني أن علياً غير صاحٍ لك، أن تذبح صديقنا سليم».

تابع الحلاق عمله ثم طقطق بمقصه مستعرضاً وقال: «لا غنى عن نخزة في حلاقة. إن شعره كث للغاية ولذلك يعلق المقص بعض الشيء في هذه الغابة»، ومع هذا فقد رش بضع قطرات من ماء الكولونيا المعطر فوق قطعة شاش ومسح بها الجرح.

«هكذا ظلّ الملك مع ابنه وقال له، يا بنيّ، سرعان ما سأغادر هذا العالم وأقرع الباب الذي يُفتح لمرة واحدة فقط. أنت ترث الآن مملكتي الضخمة، فلترحم أصدقاءك حين يتناولون الطعام معك إلى الطاولة نفسها وكذلك أعداءك حين يقعون بين يديك. لتصادق قطّاع الطرق والمهرّبين، لكن احم نفسك من الكَذَبة، لأنهم سيكونون سبب موتك البطيء» هذا ما تحدث به الملك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

«مات الملك! عاش الملك!» أخذ المنادون يصيحون في أرجاء البلاد.

«حسناً، لم يكن الملك صادق قد تجاوز بعد الثامنة عشرة من عمره حين تسلّم زمام الحكم. كان عديم الرحمة مع أصدقائه وأعدائه على السواء. لم يمض سنة على حكمه حتى أصبحت دمشق مدينة البؤس. أضحى شعبه جائعاً، لكن هذا لم يعن شيئاً للملك صادق. أصدر بياناً عن رغبته الملكية في تعلّم كذبات العالم كله. كان منذ الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من المساء يصغي لمعلمي الكذب وهم يلقون بكل ما عرفوه من كذبات في وقتهم، سواء كانت عن الثعالب، البشر، الشياطين، الجان، العفاريت أو الأقزام. لثلاثين عاماً عمل الملك بجدّ لتعلم كذبات العرب واليهود والهنود واليونانيين والصينيين. لثلاثين عاماً وهو ينفق مبالغ طائلة حتى أصبح أستاذاً لألف كذبة وكذبة. حين بدأت سنة ولايته الواحدة والثلاثين أصدر الملك بياناً نصه: «لا يمكن لإنسان على وجه المعمورة أن يتفوه بكذبة جديدة أمامي!.

عارض مهرج القصر رأي الملك قائلاً: «الكذب والجراد أبناء عمومة. كل شخص يأتي إلى هذا العالم ومعه سبع أكاذيب وسبع

جرادات. يستحيل على المرء أن يعيش كفاية كي يحصي أكاذيب وجراد العالم كله».

قال فارس: «هذا المهرج رجل حكيم، يمكنني إخباركم أن حكومتنا بالكامل هي سرب جراد كذاب». ضحك سليم إلى درجة اهتز معها جسمه كله، ولولا أن موسى كان صاحياً تماماً لتسبب بجرح آخر في رأس العربجي العجوز. عليٌّ أيضاً قهقه ضاحكاً.

حذرهم يونس قائلاً: «الأحسن لكم أن تهدأوا. لقد اعتقلوا البارحة ابن أم خليل القابلة لأنه تحدث عن موزة».

تساءل موسى: «موزة؟».

«حدث أنه كان يحمل موزة خضراء اللون ومستقيمة. كانت صغيرة الحجم وغريبة الشكل، وحده إبليس يعلم من أين حصل على موزة كهذه. كان مخموراً وأخذ يصيح عالياً: «أعلم لِمَ أصبح الموز مفقوداً في هذه الأيام، لأنه يتدرب في دورات عند الحكومة ليتخلص من صفاره واعوجاجه. خذوا هذه مثالاً، لها رائحة الموز لكن أنظروا إليها إنها آخذة بالتحول إلى خيارة!» كان يقف قبالة مطعم ابني، يهذي عالياً ويضحك ـ حاول بعض الجيران سحبه إلى الداخل، لكن وقبل أن يتمكنوا من ذلك حضر رجلان من المكتب الثاني ضرباه وأخذاه بعيداً».

أنّ توما قائلاً: «أوغاد. . . .».

«حسناً. . أين وصلت؟» سأل موسى ومن دون أن ينتظر جواباً تابع كلامه: «حسناً. . . صحيح. ظنّ الملك صادق أنه سمع كل الأكاذيب على وجه الأرض وأن لا شيء في العالم يمكن أن يثير دهشته. قال مهرج القصر إن الأكاذيب والجراد أبناء عمومة ولا يوجد إنسان في المعمورة يمكن أن يحصيها. حسناً. . .». هنا توقفت.

حسناً، أمر الملكُ المهرجَ قائلاً: «فلتعلن بأنني سأكافئ كل من يخبرني كذبة جديدة بوزنه ذهباً، لكن إن أخفق فسوف أضرب عنقه!».

سرعان ما تحولت الكلمة إلى فعل، طارت الأخبار أسرع من الريح حتى وصلت الهند والصين، وأسرعَ كل الكذابين والعرّافين كي يحصلوا على وزنهم ذهباً، لكن بدل ذلك قصرت هامتهم بدون رأس، لأن كل قصصهم وأكاذيبهم لم تثر دهشة الملك.

قال فارس ساخراً: «من حسن حظه انه لم يتعرف على حكومتنا ـ كانوا سيسلبونه كل ليرة ذهب يملكها، حيث إن لكذباتهم بداية ولا نهاية لها».

قاطعه توما: «دع موسى، بربك، يكمل قصته».

تابع الحلاق: «كما كنت أقول، تدفق الدجالون والعرافون من كل بقاع الأرض إلى دمشق يحدوهم الأمل. لكن مهما أخبروا بكذبات، إن كانت عن بيضة دجاجة تفقس لتخرج منها بقرة أو مدن ينمو فيها البطيخ بحجم الجِمال، فإن الملك كان يتثاءب قائلاً: «وما العجب في هذا؟ إنها الكذبة الثالثة عشرة! أو هذه الكذبة رقم سبعمائة واثنتين!».

مُنح لكل كذاب ساعة واحدة فقط، لم يكن الملك يصغي أكثر من هذا. ما أن تسقط حبة الرمل الأخيرة عبر عنق الساعة الرملية حتى يرفع يده ويسلّم الكذاب للجلاد.

انتشرت هذه الأخبار أيضاً في أرجاء العالم، وكانت النتيجة أن استدار العديد من الكذابين والعرافين على أعقابهم عائدين ما أن سمعوا أي نوع من الكذبات يعتبرها الملك جدّ عادية، وبأن الرواة كانوا يفقدون رؤوسهم من دونِ أن يتمكن أيٌّ من هؤلاء المساكين حتى من لمح الذهب.

بعد سنين قليلة لم يعد يجرؤ أحد على إخبار الملك أية كذبة، لا وزراؤه ولا حتى زوجته. سرعان ما أصبح الملك صادق يجلس بتفاخر على عرشه ويهزأ بمهرج القصر: «أترى، إن الباب مفتوح، لكن لا أحد يدخل. أين جرادك؟».

قال المهرج متذللاً: «يبدو واضحاً أن جلالتك على معرفة بكل كذبات الأرض».

في هذه اللحظة بالذات دخل قاعة القصر رجل نحيل بثياب رثة، أخذ كل الضيوف، الوزراء، الأمراء، والحكام بالضحك حتى رفع الملك يده وقال آمراً إياه: «تكلم، أيها الغريب».

قال الرجل من دون أدنى خوف: «السلام عليكم، هي الكلمات التي يجب أن ينطق بها المتحدث أولاً ثم يقول ما بنفسه وليأتِ ما يأتي».

أجاب الملك: «وعليكم السلام. والآن أيها الغريب، لقد بدأت ساعتك بالنفاد» أضاف الملك وهو يقلب ساعته الرملية.

«أنا جائع، فأنا لم أتناول أي طعام منذ أكثر من أسبوع، وحين تكون معدتي خاوية لا يمكن لرأسي أن يخترع أية أكاذيب ـ كل ما يفعله هو استحضار الأفكار عن أشهى الأطباق في العالم» أوضح الرجل وكأنه روى نكتة فقد أغرق الملك بالضحك.

قال الملك كي يبهج ضيوفه: «يمكنني إخبارك منذ الآن بأنك إن استمررت على هذا النحو فسرعان ما ترتاح من رأسك إلى الأبد» ثم أمر بإعداد طاولة حافلة بالطعام للرجل.

قال الرجل بهدوء: «أريد أولاً أن أستمتع بوجبتي، ثم سأربح رهاني ضد سموك ـ لكن هل بإمكاني، يا أمير المؤمنين أن أدعو زوجتي

لتشاركني الطعام؟ فهي جائعة كذلك، قد مضى على عدم تناولها الزاد أكثر من أسبوع، لأنها تنازلت عن وجبتها الأخيرة لي».

كان الملك مبتهجاً بشجاعة الرجل ولبى له طلبه. في الحال ظهرت امرأة صغيرة الحجم، كانت أكثر نحولاً من الظل ومن دون أن تتفوه بكلمة جلست بجوار زوجها وبدآ كلاهما بتناول الطعام على مهل.

«آه، أيها الملك العظيم، أنا أشكرك على هذه الوجبة التي لم يشهد مثيلها ملك الصين نفسه. يجب أن تعلم أن الصينية هي إحدى اللغات المائة التي أجيدها. يمكنني التحدث مع البشر والحيوانات. وفي الحقيقة، إن الحمار نفسه يمكن أن يفهمني أكثر منك، يا أمير المؤمنين».

«كاذب صفيق» صاح العديد من الضيوف، لكن الملك ابتسم فحسب وقال: «التحدث مع الحمير، الكذبة الخامسة والثلاثون، إن كنت ستشعرني بالملل هكذا، فسوف تحادث السمك في أقل من ربع ساعة».

تابع الرجل دونما خوف: «كن صبوراً أيها الملك، كل شيء في حينه، فالربيع لا يظهر جماله بهكذا سحر إلا لكونه مسبوقاً بالشتاء. وهكذا حدث، حين كنت أخدم عند إمبراطور الصين وكان يشنّ في ذاك الوقت حروباً كثيرة، وأصيب في إحدى هذه الحروب بثلاثة آلاف سهم، لكن الأسهم لم تصبه بأذى لأنني مسحت جسمه بحليب النملة. كنت أحلب نملاتي كل صباح، لكن حليب النمل لم ينقذه من قشرة موز واحدة، لقد تزحلق ووقع على نافوخه ومات في الحال. طردني الصينيون وكذلك زوجتي فتجولت في بقاع الأرض لا يرافقني سواها

والجوع. أصابني الهزال إلى درجة أخذت الريح تصفر بين ضلوعي. وحين سمع ملاك الموت كآبة عظامي، أيقظت روحي رغبته فقدم لأخذها، لكنه كان عليه أن يبحث عني، لأن ظلي قد تلاشى بسبب نحلي الشديد. أردت أن أعيش، لكن ملاك الموت لم يرغب أن يعود خاوي اليدين، لذا قاتلنا بعضنا البعض بضراوة ـ هو بمنجله وأنا بعشقي للحياة، قاتلنا بعضنا لثلاث ساعات حتى غلبته في النهاية.

قال أحد علماء الدين بغضب: «إنه الكفر بعينه».

كان الحلاق يقص غرّة العربجي بشكل مستقيم ثم قال: «الأفضل أن يكون الشعر أقصر من الأمام، أليس كذلك؟».

أومأ سليم. لم يعر الأمر اهتماماً. كل ما رغب به الآن هو معرفة ما حدث مع الكاذب الوقح.

تابع موسى: «حسناً... كما كنت أقول، ما أن أخبر الرجل الجميع بأنه قتل ملاك الموت حتى صاح أكثر المستشارين تقى: «هذا شيء لم نسمعه قبلاً»، فيما قال باقي الضيوف: «كذاب، منافق!». فكر الملك وفكر لكنه لم يستطع أن يعثر على رقم هذه الكذبة الاستثنائية. كان قد سمع بالعديد من الكذبات عن تفوق الناس بدهائهم على ملاك الموت ليطيلوا أعمارهم بعضاً من الأسابيع أو السنين، لكن لم تخطر على بال أحد قبلاً فكرة قتله. فيما كان الملك يفكر، قال مهرج القصر: «لقد كنتِ هناك أيضاً، أليس كذلك؟» سأل زوجة الرجل وضحك. لم تجب المرأة.

«تكلمي! هل كنتِ معه أم لا؟» صاح الملك بصوت غاضب.

قال الرجل: «جلالة الملك! لا يمكنها الكلام. وكيف يمكنها

ذلك؟ ما أن رأتني أقاتل ملاك الموت حتى استحالت عمياء وخرساء وطرشاء».

قال الملك: «لقد فزت. أنا لم أسمع بكذبة كهذه قبلاً. سوف تتلقى وزنك ذهباً».

«جلالتك، إن وقتي لم ينته بعد وعليّ أن أطلق عنان الكذبة الكبرى من قفصها»، قال الرجل بهدوء تام، حيث انسابت الهمسات والهمهمات وتلاطمت كموجات البحر في أرجاء القاعة.

قال الملك: «حسناً جداً، لكن ما أن تمر حبة الرمل الأخيرة وينتهي وقتك المحدد ولم تنجح في إخباري كذبة أخرى جديدة فسوف تفقد رأسك».

«أنا أعلم بما أقوم به. فلتصبر يا أمير المؤمنين. حسناً، بعد معركتي مع ملاك الموت، كنت جائعاً، بحثنا طيلة ثلاثة أشهر عن الطعام من دون جدوى، ثم وجدنا زبيباً ذابلاً، استخدمت إحدى الحبات الثلاث كي أقتل بها جوعي وأكلت الثانية زوجتي فيما اشتريت بالحبة الثالثة قبواً للخمر في مكان قرب حلب، ظلت جراره ملأى مهما بعت من الخمر».

صاح الملك: «يعمل من الزبيبة خمارة: كذبة رقم اثنتين وعشرين».

تابع الرجل: «ذات يوم، دعوت ملك حلب إلى بيتي، حين قدم وجدته منزعجاً، طفق يبكي وأخذ يشرح لي أنه واقع في حب سمكة. لكن السمكة لم تبادله حبه وأنها تبكي في بحيرتها كذلك».

«الكذبة رقم ستمائة وأربع عشرة»، صاح الملك بصوت المنتصر ونظر إلى الساعة الرملية، أقل من عشر دقائق تفصل الرجل عن موته.

«وهكذا ذهبت إلى القصر في اليوم التالي. جثوت عند البحيرة وناديت على السمكة، سبحت باتجاهي وهي لا تزال تبكي، سألتها عن سبب بكائها فأجابت: «أريد العودة إلى وطني. لقد سجنني الملك هنا، أنا لست سمكة، أنا أميرة، وماذا يفترض أن أفعل بملك غبي لم يجد ما يفعله في مملكته الضخمة سوى الوقوع في حب سمكة؟ حررني ولن تندم. هيا، قبلني!».

بالرغم من كرهي للسمك، لكنني أخرجتها من الماء وقبلت فمها الزلق - وعوضاً عن أميرة كنت أحمل سلحفاة «لا تبتئس أيها الشاب» قالت الملعونة، «أنا أميرة من جزر الواق الواق ونحن نتحول إلى سلاحف عندما نهاجر. وطننا يعيش فينا ونحن نعيش فيه. خذني إلى موطني وسوف يكافئك أبي بكرم!».

هربنا من القصر تحت جنح الظلام. أخذت إذن زوجتي بما أنها لا تستطيع السباحة، غطسنا في الماء. استلقت السلحفاة على ظهري ودسّت رأسها بقوة داخل شعري وتمسكت به بفمها. لم تتمكن من التحدث - كان وقتاً صعباً حيث كلمة واحدة تكفي للتسبب بالموت. عبرت البحور السبعة ولم تتفوه السلحفاة بكلمة، لكني سمعت خفقات قلبها في سكون المحيطات، وفي يوم الأحد السابع لمحت جزر الواق الواق، كان الوقت صيفاً هناك فيما نحن نقضي هنا فصل الشتاء.

صاح الملك باستهزاء: «الكذبة رقم مئة وسبع وأربعين».

حين بلغنا مياه الخليج الدافئة، قالت لي السلحفاة بصوت أنثوي رخيم. «أشكرك أيها الرجل الطيب!» ذُعرت والتفت حولي، كانت امرأة برأس وجناحي عصفور تنبثق من قوقعة السلحفاة، انطلقت في الهواء

وطارت تسبقني باتجاه الشاطئ. شعب الواقواقيون هم «طيوبشر» لهم رأس وجناحيا طير لكن بجسد إنسان. لقد استُقبلت مثل بطل، كانوا مضيافين جداً للغرباء خاصة أولئك أمثالي الذين يصلون عراة من دون منزل من القواقع أو العظم.

في الوقت ذاته، ملأت جزر الواق الواق قلبي بالرعب، كانت عصافير الدوري عندهم كبيرة مثل الفيلة عندنا، وكل واحد فيها يأكل أسدين في وجبة الفطور أما التماسيح عندهم فهي تغرد مثل الكناري وتعزف حميرهم على القيثارة.

قال الملك بشكل فظ: «الكذبة أربعمائة وثلاثة».

«والطريقة التي يأكل فيها شعب الواق الواق، أيها الملك، أنا واثق أنك لم تسمع بها قبلاً، خراف، دجاج، معز وخنازير تركض هنا وهناك وهي تصيح «أرجوك، فلتأكلني! أرجوك تمتع بي!». وحين يختار المرء ما يأكله وبعد أن يستمتع بوجبة اللحم الطرية، فإن كل ما يحتاج قوله للعظام المتبقية هو «اذهبي! لقد انتهيت منك»، وحينها تتجمع العظام بعضها إلى بعض لتعود من جديد لخروف طازج، معزاة، أو دجاجة، أو خنزير ويصيح «أرجوك، فلتأكلني!».

«ستمائة واثنتين وعشرين» قال الملك وكأنه لم يعر القصة أي اهتمام.

«حسناً، منحني ملك جزر الواق الواق كل شرف يمكن منحه، وأظهر لي حفاوة هائلة، وكمكافأة لي على إنقاذي الأميرة قدم لي تلسكوباً لمراقبة الكواكب.عبره، حتى أنه كان بوسعي رؤية الطعام على طاولة الكائنات الفضائية الغريبة».

علق الملك: «كذبة رقم تسعة وسبعين».

«الآن إلى الفصل الأكثر أهمية، يا ملكي، احزر من قابلت على الجزيرة» سأل الرجل من دون أي شعور بالقلق.

قال الملك ساخراً: «لي؟ قابلتني؟».

«لا، إنها أمك، لقد كانت هناك في السجن».

«جلالتك!» صاح أحد المثقفين الحاضرين: «كيف يمكن لصبرك أن يحتمل، هذا الرجل وغد كافر!».

لكن أم الملك، التي كانت حاضرة، اكتفت بالابتسام فقط.

«في حال صدقت أو لم تصدق، أيها الملك، لقد حررتها من السجن بشعرة من خيط العنكبوت وخبأتها في قصري، حيث قام حماري بإبعاد الحزن عنها بالعزف على قيثارته.

قضيت خمسة عشر يوماً كضيف على هذه الجزيرة، قالت زوجتي إنني ابتعدت خمسة عشر عاماً، حسناً، تمر سنة السعادة أسرع من مرور يوم، ويوم حافل بالهموم يعادل دهراً. خلال الليلة الرابعة عشرة، كنت أجلس مع أمك، أيها الملك، كانت حزينة جداً، سألتها عن السبب، تنهدت ونظرت إلى الحمار الذي يعزف من أجلها وقالت: «هل ترى هذا الحمار؟ إنه أذكى من ابني!».

«عار عليك، أيها الكذّاب البائس!» صاحت أم الملك باشمئزاز.

على كل حال لم يقم الملك سوى برفع يده وقول: «الكذبة رقم ثلاثة وثلاثين».

«أنا لم أصدقها كذلك، لكنها أجابت أنت لم تقابل ابني بعد، إن

أصابك سوء الطالع وقابلته فسوف تفهم كلماتي. إنه في الحقيقة أكثر غباءً من الحمار نفسه».

أمسك توما بالفرشاة الكبيرة وأخذ ينفض قصاصات الشعر من على كتف العربجي. استدار ناحية علي وقال: «فلتصب بعض الماء الساخن من الإبريق في هذه الطاسة كي أتمكن من فرك ذقن هذا القنفذ ـ حسناً، دعا هذا الرجل الملك بالحمار ثمّ تابع: بما أنني شديد القلق على بلدي وملكي، فقد قررت العودة، يجب أن أقول إن أمك كانت مخطئة بحقك أيها الملك، لقد حولت مملكتك إلى جنة على الأرض، فعند أبواب دمشق رأيت ملاكين يبكيان ويبدو عليهما الاكتئاب الشديد. سألتهما: «لمَ تبكيان؟».

قالا بصوت حزين وكأنهما نَدّابة ورَدّاحة: «منذ أن حوّل الملك صادق دمشق إلى جنة رائعة لم يعد أحد يرغب بدخول السماء. لقد صرنا عاطلين عن العمل وفقدنا خبزنا اليومي. أيها الغريب، نرجوك ألا تدخل المدينة، فلترحمنا ولتمت قبل دخولك دمشق».

لكن لم تكن لدّي أية رغبة بالموت حينها، لذا خطوت من الباب الشرقي داخلاً إلى جنتك أيها الملك، هناك عند البوابة، أوقفني أحد جنودك، قبلني ورحّب بي بالخبز والعسل. تعجبت أيما عجب لهذه العادة الجديدة. كان الناس في كل مكان يتوهجون سعادة ولم يعد الفقراء يتلقون الصدقات من وزرائك، لا، أيها الملك، لأنهم قد استرجعوا أراضيهم التي وزعتها بين أتباعك فيما مضى.

«هذا كذب» صاح الملك باشمئزاز وسرعان ما انتبه لهزيمته.

«ربح الرجل وزنه ذهباً للمرة الثانية»، صاح المهرج بشعور غامر بالفرح.

«تلقى الفلاحون أحصنة وأدوات تعينهم في عملهم ومعيشتهم. كان كل شيء رائعاً وكل فرد سعيداً إلى درجة بقيت مسمراً في مكاني متأملاً باندهاش. ثمّ وعلى نحو غير متوقع، اندفع رجل سكير نحوي وأخذ يهين أمي وأبي من دون أي سبب. كان هذا ابن الوزير الجالس على يمينك، لكن منشأه النبيل لم يعنه أبداً، حيث أمر القاضي بجلده لكن قبل أن ينفذ الحكم تلا القاضي القانون الذي أصدرته أنت بحكمة، ألا وهو، أيها الملك، المتعلق بضربك بالسياط أنت أيضاً في حال قيامك بأي عمل ظالم تجاه أحد من أفراد شعبك.

«هذه كذبة خالصة! أنا لم أصدر قانوناً بهذا الشكل!» جأر الملك وصاح الضيوف ضاحكين. وقف المهرج على رأسه وأخذ يصيح: «لقد فاز هذا اللعين بوزنه ذهباً للمرة الثالثة. يا لحظ ملكنا السيئ هذا اليوم!».

تابع الغريب كلامه بوجه متجهم: «أيها الملك، يا صانع كل الأشياء الجميلة في دمشق! لقد أمضيت يوماً بطوله أتجول في المدينة وحين سألت المارّين عن مكان السجن، ضحكوا بكل بساطة: ما حاجتنا للسجن في الجنة؟ لا سجن ولا حزن ولا فقر. حتى كلمة جوع سمعها الأطفال للمرة الأولى وهي تخرج من شفتيّ. فلينقطع لساني من جذره لأنني تسببت في خدش آذانهم الرقيقة.

أجل، من دون أدنى شك، قلت لزوجتي بأنني أرغب أن أكون ملكاً لبلد كهذا، حيث كل شيء مسيّراً بأيدي الملائكة. إن أصبحت ملكاً لبلد كهذا البلد الجنة فسوف أتحرر من كل همومي وأقضي وقتي في سماع الأكاذيب وأدع الذهب يتدفق والرؤوس تتدحرج. لمَ لا؟

لكن كلمات أمك لم تدعني أرتاح. كان عليّ أن أعلم السبب الذي جعل والدتك تشتمك، لأنه من النادر أن تتحدث أم بهذا السوء عن ولدها أمام الغرباء، لذا مضيت إلى حراس القصر وسألتهم المثول بين يديك، قال لي الحارس: «لن يستقبل الملك كلباً أجربَ مثلك». ومع هذا خطوت مباشرة عبر البوابة ورأسي مرفوع. لكن الحارس استل سيفه وضربني به، كيف نسي هذا المسكين أنني غفلت في هذا اليوم تحديداً عن دهن جسمي بحليب النمل، وقع السيف على رأسي وسقطت صريعاً.

صاح الملك: «أنت تكذب، أنت ما زلت حياً!».

صاح المهرج: «أربع مرات وزنه ذهباً».

قال الرجل صائحاً: «حياً؟ أتسمي هذه حياةً؟ أرجو معذرتك أيها الملك، فأمك محقة».

نهض الغريب وغادر مع زوجته القاعة.

صاح الملك: «انتظر، لقد ربحت وزنك ذهباً لأربع مرات» لكن الرجل لم يلتفت إلى الوراء ولا لمرة واحدة.

هذه هي قصتي، وأنا أودعتها لديكم، احفظوها وانقلوها للآخرين، وبالنسبة لك عزيزي سليم، فقد حلقت لك ذقنك من دون جرح واحد، أليس هذا مدهشاً؟».

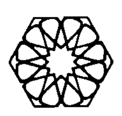
حين نهض سليم، أمسك علي بالجريدة المغطاة ببقايا الشعر المقصوص، لفها مثل الكرة وأسرع خارجاً ليرميها في تنكة الزبالة.

سأل توما: «هل تشعر بالتعب؟» لكن سليماً كان يشعر بالانتعاش

بعد الحلاقة. جلس الأصدقاء لوقت طويل وهم يسلّون أنفسهم بضرب أمثلة عن كذب الحكومات.

حين دقت الساعة الثانية عشرة، تثاءب موسى بصوت عال، وضع عصام الورقات الثلاث على الطاولة وقال: «لم يتبق الكثير منا».

اتكأ علي إلى الوراء وقال: «أنت أكبرنا سناً وإن كان احترام السنّ أمراً واجباً فعلى ورقة الأس الوقوع في يدك»، ابتسم الوزير السابق وأومأ برأسه لأنه كان سعيداً كذلك إن كان دور عصام قبله. تفحص عصام الورقات الثلاث واختار الورقة اليمنى. كانت بالفعل ورقة أس البستوني. وفي البعيد تناهى إلى مسامعهم هدير رعد وكأن فرساناً أشداء يطاردون الريح مسرعين باتجاه دمشق.



كيف عضّ رجل عينه ليغيّر وجهة نظر رجل آخر؟

في الواقع، لم يكن عصام، السجين السابق، مضطراً إلى إشغال نفسه ببيع الخضراوات والصيصان وأفراخ الحسون الرخيصة، فحين أطلق سراحه كان ابناه قد شبّا وأصبحا من أشهر ميكانيكيي السيارات، وباتت ورشتهما معروفة في كل أنحاء دمشق. امتلك الأخوان أيضاً منزلاً واسعاً مع حديقة في حيّ الصالحية الراقي، حيث سكن عصام وزوجته في أحد أجنحة هذا المنزل الفخم. كان الابنان يلبيان كل طلبات والديهما، بالإضافة إلى وجود مدبرة للمنزل كرست كل جهدها للاعتناء بهما وكأنها ابنتهما الحقيقية. رجا الابنان أباهما عصاماً أن يرتاح من همّ الشغل ويمتّع نفسه بعد معاناته المريرة في السجن، لكنه رمى بتوسلاتهما أدراج الرياح ورفض التخلي عن تجارته. وبسبب ولعه الشديد بولديه وكي لا ينتقص أحد من شأنيهما، فقد حدّد عصام تجواله في شوارع الشام البعيدة. في جميع الأحوال كان المطر وحده من يمنعه من الذهاب إلى سوق الجمعة ليبيع العصافير الغرّيدة.

فيما كانت يد عصام الكريمة سبباً في منحه صيتاً طيباً كبائع متجول للخضراوات، فإن سمعته في سوق العصافير لم تكن بتلك الأصالة. لقّبه الخبيرون «بالصبّاغ» لأن عصاماً اعتاد صبغ العصافير الرخيصة كي

يحسّن من مظهرها العام، حيث تأخذ بعض الطيور حماماً بصباغ أصفر أو برتقالي، لتشبه في نهاية العملية أقارب مساكين لعصافير الكناري، في حين يتلقى البعض الآخر مزيجاً غريباً من عدّة أصبغة، حينها لا ينصف ريشها الملوّن هذا سوى ألقابها البديعة. فأمير البرازيل، الملك ذو الرأس الأحمر، وطير قوس القزح، كانت بعض ألقاب عصام الأثيرة.

كان معظم مكسب عصام يأتي من بيع الحساسين، التي يحبها أهل الشام ـ هذا في حال كانت العصافير بالغة. لم تكن الفراخ الصغيرة تساوي شيئاً يذكر، فكل ما تفعله هو الأكل وإنتاج أكوام من الفضلات ولربما تصفرّ ببؤس مرة أو مرتين إن كانت جائعة. لكن ما أن تمضي على الأقل سنة كاملة وتظهر دائرة حمراء حول منقارها، حتى تعتبر عصافيراً بالغة، فتصبح حينها غالية الثمن لأنها تأخذ بالتغريد بشكل مبهج. كان عصام يسرّع هذه العملية الطبيعية بتزيين الفراخ الصغيرة بدائرة حمراء حول منقارها قبل الأوان، ثم يبيعها بأسعار مرتفعة لهواة الحساسين المبتدئين. طبعاً يظن هؤلاء الأغبياء بأنهم ضحكوا على هذا الأحمق العجوز ويهرعون بالعصفور إلى منازلهم، لكنهم ينتظرون وينتظرون أن يبدأ بالتغريد متعجبين من الدائرة الحمراء حول منقاره، فهي تأخذ بالشحوب رويداً رويداً ـ وتحوّل لون الماء في الطاسة الصغيرة إلى الاحمرار تدريجياً.

في هذا اليوم، وصل عصام حاملاً قفصاً مثيراً للإعجاب وما أن دخل غرفة العربجي حتى أثار عاصفة من الضحك.

فهم عصام فوراً وصاح غاضباً: «لا، لا، إنه حسّون بلدي، حسّون

أصلي رائع. أراده ابني لنفسه، لكنني أحببت أن أهديه لسليم، آملاً بأن يعود حديثه جميلاً كتغريد هذا العصفور الرائع، وليحمه الربّ من عيون الحساد!».

تأثر الأصدقاء كثيراً إلى درجة لم يعرفوا معها إن كان عليهم أن يضحكوا أم يبكوا. لكن العصفور الصغير لم يدعهم ينتظرون طويلاً، فما أن علق عصام القفص على الحائط حتى باشر الحسون بالتغريد.

ابتسم سليم فرحاً وناول صديقه كوب الشاي.

جلس عصام على الصوفا وظلّ صامتاً لفترة. كان سليم يفرك يديه متحمساً وبدلاً من أن يتخذ الكرسي الشاغر بالقرب من الصوفا، جثم على الأرض قرب أقدام ضيوفه ثمّ رنا إلى عصام مترقباً.

قال عصام موجهاً حديثه إلى سليم: «كما تعلم لقد قضيت اثنتي عشرة سنة في الانفرادي. كانت الزنزانة مظلمة حتى في وضح النهار. ولمن كان يمكنني أن أروي قصصاً في مكان كهذا؟ لو كان عندي ورقة، لتمكنت على الأقل من نقل القصة إليها، لكن بمَ يخبر المرء أربعة جدران رطبة ووسخة؟ بالإضافة إلى أنني كنت أمياً في ذاك الوقت.

بالكاد استطعت النوم الليلة الماضية، كما تعلم كنت أفكر بالسنوات الطوال التي عشتها. أنا الآن في الثامنة والستين من عمري، لكنني في الحقيقة لم أتجاوز السادسة والخمسين بعد لأني ببساطة لا أعتبر تلك السنوات الاثنتي عشرة حياة على الإطلاق».

تهدج صوت عصام متأثراً، فربت سليم على ركبة صديقه معزياً إياه.

«سليم، أنت إنسان رائع! أنت تعلم، يمكن ليديك أن تتكلما حتى وإن لم يستطع لسانك. كان معنا في السجن رجل أخرس، كنا نفهم حديثه عبر يديه ـ والآن أعود إلى قصتي! أحببت الغناء في صغري وأحبّ الجميع صوتي، وقد سُمح لي دوماً بالإنشاد في المساجد والأعراس، كلما غنيت بكى الناس تأثراً وقالوا بأنني سأصبح يوماً مطرباً مشهوراً. لكن كل هذا انتهى في يوم من الأيام. من كان ليصدقني ـ هناك حيث كنت أقف قرب جثة ابن عمي، حاملاً السكين؟

كنا أعداء لدودين والجيرة تعرف هذا. أنا لم أسامحه أبداً لأنه ذلّني أمام كلّ الناس في السوق والجامع. لكن زوجتي نصحتني بالصلح خاصة وأن عيد الأضحى قد اقترب وبأنه ليس لائقاً لأولاد العمّ الاستمرار بعداء في أيام عيد الأضحى يتآخى فيها حتى الغرباء من المسلمين، وبما أنني كنت الأصغر سناً فقد توجب عليّ المبادرة بالصلح، وتوضيح سوء التفاهم الذي حصل بيننا. كما تعلمون من الإشاعات، أن ابن عمي كان واثقاً من أنني خدعته بشأن ذاك الذهب الذي وجدناه، وأدرك الآن سبب تفكيره بهذه الطريقة أيضاً، لقد كنت آنذاك ثعلباً ماكراً.

مزح موسى معه قائلاً: «وما زلت كذلك!».

«قد يكون هذا صحيحاً، لكن في سوق الجمعة فقط ـ كنت آنذاك محتالاً لئيماً، لكنني لم أخدعه أبداً».

سأل يونس: «ولماذا لم تفعل ذلك؟».

«إحكي لنا بربك ما الذي حدث بالضبط» رجاه موسى.

«كنا نحن ـ أنا وابن عمي ورجل حلبي يدعى إسماعيل ـ قد وجدنا كنزاً. قرأ الرجل في أحد كتبه السريّة أن خابية مملوءة بليرات ذهب مدفونة في أرض ديار ابن عمي. على ما يبدو طمرها ضابط عثماني كبير كان هارباً من وجه جيش العرب بقيادة لورنس الإنكليزي والملك فيصل. ظن العثماني أن بإمكانه ـ ما أن تستقر الأحوال ـ التسلل عائداً ليخرج كنزه. لكن وباء الكوليرا اجتاح المنطقة وقضى عليه مع كلّ عائلته وهم قرب حلب. ادّعى إسماعيل أنه كان خادم الضابط العثماني الخاص، لكني واثق اليوم من أنه كان شيطاناً في هيئة إنسان. ومن غير الشيطان يمكن اختياري من بين آلاف الناس في دمشق؟ هل تعلمون، إن بدني يقشعر كلما ذكرت اسمه. انظروا بأنفسكم إلى شعر ذراعي كيف انتصب رعباً لمجرد ذكر اسم هذا الإبليس. إنه ـ وأقسم برحمة أمي ـ الشيطان بعينه، كما أقول لكم. التقينا أول مرة قرب التكية السليمانية، في المكان ذاته حيث ألقى مهندس المسجد بنفسه من المئذنة ولاقى حتفه. إذناً قابلته على أرض رويت بالدم والحسد والحقد، طبعاً، كان هذا كافياً لإثارة شكوكي حول الأمر كله، لكنني كنت ما أزال فتياً وجاهلاً.

«عمَّ تتكلم؟ أي مهندس؟ وأي حقد» سأل المغترب وقد تشوش بعض الشيء.

«ألا تعرف حكاية المسجد؟» وحين هزّ المغترب رأسه نفياً، تابع عصام حديثه: «أمر سليمان القانوني، السلطان العثماني العظيم، بنّاءً ومهندساً مشهوراً يدعى سنان، ببناء مسجد ونزل للدراويش أثناء الحج. عمل سنان ليلاً ونهاراً ولسنوات طويلة حتى أنهى بناء المسجد الجميل

تماماً. زار السلطان وحاشيته المسجد وسرّ به كثيراً. مدح عمل المهندس العبقري وخاصة المئذنة الرشيقة. حينها أطلع سنان سيده على التجارب والمصاعب التي قاساها لتصميم هذه المئذنة. وهتف الضيوف بعدها بحياة السلطان ومهندسه العظيم. لكنهم سمعوا فجأة صوتاً جهورياً لرجل عجوز يقول: «التجارب والمحن على حذائي! إن بناء مئذنة كهذه ما هي إلا لعبة أطفال!» استدعى السلطان الرجل العجوز - واكتشف بأنه نحات بارع مياوم يعمل عند المعلم سنان.

«لعبة أطفال؟» ردد السلطان «عار عليك! أيها العجوز الأحمق الصفيق! سأمهلك سنة واحدة لبناء مئذنة مماثلة لها وإن أخفقت فسوف أضرب عنقك!».

«شهر واحد هو كل ما أحتاجه» قال البنّاء العجوز «فلتصحب معك المعلم سنان كي لا يرى شيئاً ولتحضره بعد شهر إلى هنا معصوب العينين، إن تمكن من معرفة أية مئذنة بناها، فسأكون سعيداً بدفع حياتي ثمناً لها».

«سيكون المعلم سنان ضيفي لمدة شهر، لكن ويل لك أيها العجوز إن أغواك حسدك فضللت عن الطريق القويم» قال السلطان ثم اصطحب البنّاء إلى قصره في الشمال.

بعد شهر بالتمام والكمال، عاد السلطان مع ضيوفه ومهندسه سنان إلى دمشق. اجتمعت الحشود في الساحة الرئيسية يأكلهم الفضول. وصدقوني، كان الناس يقفون لصق بعضهم بعضاً إلى درجة إن رميتم إبرة صغيرة من قبة المئذنة فإنها لن تصل إلى الأرض بل ستسقط على واحد من ألوف الرؤوس المحتشدة.

كان السلطان سليمان مشهوراً بعدله، نفذ شروط الرهان بحذافيرها وأبقى المعلم سنان معصوب العينين إلى أن اجتمع كل الحشد على الرصيف مقابل المسجد. ثمّ استحال وجه المعلم شاحباً لأنِ المئذنتين كانتا طبق الأصل تماماً. فرك عينيه مدهوشاً لكنه لم يتمكن من تمييز المئذنة التي بناها عن توأمها.

قال سنان: «يجب أن أتسلق إلى الأعلى، من الأسهل معرفة الفرق من هناك» أسرع متسلقاً إحدى المئذنتين. كان واثقاً من إيجاد بعض من علاماته السريّة. كما تعلمون، كان النحاتون يرسمون علامات سرية على الحجارة، قد تكون أحياناً رمزاً هندسياً أو حرفاً وكأنهم يوقعون بأسمائهم على ما أنجزوه من بنيان. حين وصل إلى القمة، وجد علاماته السرية على الحجارة في أماكنها وكان على وشك أن يعلنها مئذنته الخاصة حين ألقى بنظره على المئذنة الأخرى القريبة وشاهد نفس العلامات على الحجارة المقابلة. أسرع نازلاً ثم تسلق المئذنة الأخرى وهناك وجد بصمته أيضاً. وقف سنان في أعلى الدرج، نظر إلى الحشد في الأسفل الذي بدأ يهزأ منه. صاح بصوت عال إلى درجة اهتزت معها الأرض ثم شتم النحات العجوز وقفز إلى حتفه».

قاطعه الوزير السابق قائلاً: «هذا ليس صحيحاً، بعد بناء هذا المسجد في دمشق، غادر المعلم العظيم سنان وبنى العديد من المساجد الرائعة، الصغيرة منها والكبيرة في اسطنبول، أدرنة وغيرها من المدن ومات عن عمر يناهز التسعين سنة معززاً مكرماً في إسطنبول، صحبني والدي إلى هناك ذات مرة، إن كان جامعاً أو حماماً بناه سنان فهو حلم من اللون والحجر، الظل والضوء. وأما الجثة التي وجدها الناس تحت

المئذنتين عقب افتتاح جامع دمشق فلها قصة ثانية، في ذلك النهار كشفت إشاعات طافت المدينة النقاب عن قصة حبٍّ سرية جمعت قلبي درويش وابنة والي دمشق. كان يزورها سراً في الليل ويلاقيها في حديقة المسجد. عندما أفشى حراس القصر الخبر للوالي أمرهم بخنق الدرويش وإلقاء جثته من المئذنة وهكذا فعلوا، فظن الناس أنه انتحر وجداً بمعشوقته. إنها قصة حزينة. كنت...».

«ما يهم هذا؟» التقط عصام خيط الحكاية حيث توقف «على أية حال، في المكان المنحوس ذاته التقيت بذاك الشيطان. كان يعرف عني أكثر مما يعرفه أهلي. قال بأن نجمينا قد التقيا في السماء، تعلمون أن الكلمات تدغدغ المشاعر أكثر من الأصابع، وكلماته كانت في منتهى الذكاء والحلاوة، إلى درجة تجعل فرس النهر يركّب أجنحة ويطير! ادّعى أن ابن عمي قد وُلد تحت نجم منحوس وبأنه يجب أن يبقى بعيداً عن المنزل في الليلة التي نحفر فيها لإخراج كنزنا، وإلا فإن حضوره التعس سيحول ليرات الذهب إلى أفاعٍ ـ ومع هذا فإنه سيتلقى حصة الثلث من قيمة الكنز.

الآن، كان ابن عمي إنساناً شكاكاً على الدوام. خشيَ أن يغدر بنا إسماعيل لكنني أقنعته بعكس ذلك، وهكذا غادر مع زوجته وطفله المنزل، ثمّ بدأت مع الشيطان بالحفر. حفرنا من الفجر وحتى الظهر حفرة هائلة في وسط الفناء حيث يفترض وجود الكنز لكننا لم نعثر على شيء. تناولنا عند الظهر بعض الخبز والجبن والزيتون ـ ما زلت أذكر كل شيء إلى اليوم ـ وبعدها قمت بإعداد الشاي، ثمّ دخلت إلى المرحاض.

حين عدت كان الشيطان هادئاً كعادته، جالساً يرشف الشاي

ويتحدث عن أسفاره. جلست تحت شجرة النارنج وأخذت أشرب الشاي من دون أن يراودني أدنى شك به. كان مذاقه لذيذاً، وفجأة شعرت بدوار غريب يجتاحني، خطوت متعثراً باتجاه المطبخ ودسست رأسي تحت صنبور مياه عين الفيجة لكنني لم أتمكن من مغادرة المطبخ ثانية. أصبح كل ما حولي معتماً لكنني سمعت قبل أن أغيب عن وعيي قهقهات الشيطان العالية.

حين استعدت وعيي، كان الرجل قد غادر المنزل منذ فترة طويلة. تناثرت قطع فخّار كبيرة تعود لجرة فوق كومة التراب وفوق بلاطة وجدتُ ليرتي ذهب عثمانيتين فدسستها في جيبي من دون تفكير.

حين عاد ابن عمي، كنت ما أزال مترنحاً من أثر المخدّر «أين حصتي؟» سأل ما أن رأى قطع الفخار.

كنت محطماً فأجبته: «لقد خدرني إسماعيل وسرق الذهب». لكن ابن عمي أمسك بخناقي ومزق بنطالي وقميصي. تدحرجت ليرتا الذهب من جيبي. حسناً. لن يقنعه أي مخلوق على الأرض بأنني سقطت ضحية هذا النذل مثله تماماً، بالنسبة له كانت هاتان الليرتان أكثر من دليل على اشتراكي بالجرم مع ذاك الشيطان. ضربني بقوة ومن دون رحمة ولو لم يأت الجيران لنجدتي لكنت الآن في عداد الموتى، لكنه لم يتوقف عند هذا الحد! أخذ يشوه سمعتي في كل مكان يذهب إليه حتى تجنبني الناس وكأنني الطاعون.

ذهبت في يوم جمعة إلى الجامع، لكن ما أن خرجت بعد الصلاة حتى قام بضربي مرة ثانية وبحضور كل المصلّين، ولم يكلف أحد نفسه هذه المرة لنجدتي. شتمته وأقسمت بأنني سأقتله. مرت ثلاثة أشهر لم

نكلم فيها بعضنا البعض، ثم صار عيد الأضحى على الأبواب فقالت زوجتي بأنه لا يتوجب بدء الأيام المجيدة التي تذكرنا بعفو الله ورحمته بكره كهذا، لذا توجهت إلى بيته.

حين دفعت الباب ودخلت، لم يأت أحد من أفراد عائلته لتحيتي. ناديته لكن بدا كل شيء هادئاً. ناديته مرة أخرى، ثم سمعت حشرجة آتية من المطبخ. أسرعت باتجاه الصوت وهناك وجدت ابن عمي مستلقياً على بطنه وغارقاً في بركة من الدماء. قلبته لكن الوقت كان قد فات. لقد مات بين ذراعيّ من دون أن ينبس بكلمة. كانت السكين ملقاة بجواره. قررت أن أركض إلى أرض الديار لأنادي الجيران طلباً للمساعدة، لكن زوجته ظهرت فجأة مع ابنه الصغير على باب المطبخ وكما علمت فيما بعد، كانا عائدين لتوهما من زيارة لأقرباء. تجمدت المرأة هناك على عتبة الباب، نظرت إلى يديّ وثيابي الملطخة بالدماء ثم أخذت بالصراخ والصياح. حتى هذا اليوم لا أعرف السبب الذي دفعني لحمل السكين والدمدمة: «بهذه... السكين...» وهكذا كان الأمر بالنسبة للقاضي واضحاً مثل عين الشمس بأنني الفاعل.

سأل فارس: «ولِمَ ارتكب الفاعل الحقيقي الجريمة؟».

«لا يعلم هذا سوى الشيطان! كان ابن عمي متورطاً بشكل دائم في متاعب مع الناس، شريراً لا يؤمن له جانب وليس من السهل معاشرته. اكتشفت فيما بعد أن ابن عمي قد استأجر قبضاياً من الزعران كي يبتز تاجراً مرموقاً جداً، والقبضايات كانوا، كما تعلمون، يضربون من يشاء المرء لقاء أجر محدد، وأتى هذا القبضاي، بعد تنفيذ مهمته وكسر يد ورجل التاجر المرموق، ليطالب بأجره فحاول ابن عمي طرده

خارجاً. . . كان ينصب دوماً أفخاخاً لخصومه، لكنه لا يدع أحداً من القبضايات الذين ينفذون تلك المهمات أن يطأ بيته كي يبقى كل شيء سراً ولا يثير شبهة الجيران.

سأل علي: «وماذا حدث بعد ذلك؟».

اعترض المعلم: «لا، دعنا نسمع الآن قصتك حتى نهايتها».

«قصة. . .؟ آه هذا صحيح، سأخبركم الآن قصة زميلي في السجن لم يراهن في حياته أبداً».

اعترض علي قائلاً: «انتظر لحظة! أريد أن اسمع المزيد عن حياتك. . .».

أيّد موسى موقف الحداد فقال: «الليل طويل، سوف تصل إلى قصة زميلك، لكني أريد أولاً أن أعرف بقية قصتك، نحن نعرف بعضنا منذ سنوات ولم تخبر أياً منا عن هذا قبلاً. لقد فتحت قلبك في هذه الليلة المباركة، فلا تغلق الباب خشية، وأكمل الحديث عن نفسك أولاً، إنه أكثر أهمية من أية قصة أخرى».

نظر عصام إلى سليم وقال: «ألم تتعب من كل هذا الهراء الذي أحدثك به عن نفسي؟».

ابتسم سليم، ضغط برفق على يد صديقه مطلقاً تنهيدة وكأنه يقول «فلتتابع، لا داعي للعجلة».

«حسناً، فتحت جهنم أبوابها في وجهي، لاثنتي عشرة سنة أبقاني آمر السجن ـ فليمطره الرب بوابل من اللعنات ـ حبيس زنزانة في قبو مظلم حتى أصبحت مثل الوحش الذي حمل الآمر صورته في قلبه. بقيت في ذلك الجحر حتى مماته ـ فلتحترق روحه وتفنى في قعر جهنم ـ إلى أن قدم الآمر

الجديد ووضعني في زنزانة جماعية. وهناك أمضيت بقية مدّة الحكم. كان الوضع أرحم بكثير من جحيم المنفردة، وكما تعلمون، حين لا يتحدث المرء مع الآخرين لسنوات، فإن أحلامه تصبح خرساء كذلك. تذبل الكلمات في فمك وتفنى جذورها داخلنا. كانت الجرذان صحبتي الوحيدة داخل ذاك الجحر، كم تمنيت أن تهاجمني لجوعها وتنهي مأساتي، وكم من مرة خدشت ساقي لأغريها برائحة دمي لكنها أظهرت لي الرحمة أكثر من الإنسان نفسه. لا يمكنكم تخيل كم آلمتني فكرة أنني الوحيد العالم ببراءتي. صحيح أن زوجتي آمنت بها ووقفت إلى جانبي بكل إخلاص، لكني في الواقع كنت الوحيد الذي عرف الحقيقة كاملة».

سأل فارس: «وأصدقاؤك؟».

ابتسم عصام بمرارة وقال: «صحيح، أنهم آمنوا ببراءتي، على الأقل في البداية، لكنهم صدّقوا القضاة فيما بعد. وحين أودعت السجن، ترى هل اطمأنوا على زوجتي ولو لمرة واحدة؟ لا، لقد تركوها مهزومة وفي عزلة خانقة مع ولدين أضحت فجأة مسؤولة لوحدها عنهما. كان إحساسي بأنها تعاني معي يعذبني أكثر مما أستطيع تحمله في السجن. لقد مرت عليّ أوقات عصيبة كرهتها لإخلاصها الشديد لي.

وهناك أوقات شعرت بالنار تشتعل داخل رأسي، صدقوني، نار توشك على تفجيري إلى أشلاء، ظلت تحرقني من الداخل، حتى أثناء إعيائي الشديد كنت أنقلب أرضاً وتظل داخلي آخذة بالاستعار، كنت أستيقظ فجأة وأبدأ بضرب جسمي ورأسي بالحائط كحيوان جامح إلى أن تخمد النيران.

وُلدت من جديد ما أن انتقلت إلى الزنزانة الجماعية. لم تعد النار تحرق روحي بعد الآن. طبعاً، كانت الحياة صعبة بما يكفي: كنا نتعرض للضرب غالب الأحيان. وما أن يعيدوا السجين وهو شبه ميت إلى الزنزانة ثانية حتى نحيطه بعطفنا وحبنا، نقدم له الدخان والشاي ونغني له، حينها يأخذ وجهه الجريح بالابتسام بعض الشيء، وهنا نعلم بأنه انتصر على الموت والجلادين، وبأننا رددنا الصاع صاعين للحراس.

كان معنا شاعر أمضى خمس سنوات في السجن بسبب قصيدة، وهو من علمني القراءة والكتابة. أصبحنا صديقين حميمين، لقد قرأ آلاف الكتب في حياته فيما كنت أنا متعطشاً للمعرفة مثل اسفنجة، مع هذا استطعت تعليمه أشياء قليلة ومفيدة في المقابل. كان مفكراً كبيراً لكنه في الحياة طفلاً يتعثر أمام كل مشكلة وكان يعيش من شفقة الآخرين عليه. علّمته كيف يحصل على السجائر، والشاي وحتى العرَق. كان تلميذاً نجيباً، يراقب أدائي أولاً ثمّ يباشر بالعمل، وما مضت فترة حتى حظي باحترام أكبر السفاحين، فلقد بيَّن لهم حاجتهم الدائمة لمشورته وقدرته على الكتابة البليغة. كان يعرف أكثر من أي محامٍ، كما تعلمون، فإن واحداً من بين مائة سجين كان آنذاك قادراً على القراءة. ظلّ يعودني في السجن كل أسبوع حتى بعد سنوات من إطلاق سراحه إلى أن أُجبر على مغادرة البلد.

لكن يكفي الآن الثرثرة بشأني! أريد أن أروي لكم قصة حقيقية، والله شاهدي، بأنني سأخبركم تماماً ما حدثني به أحمد.

كان كل المساجين يحبون الرهان وكما تعلمون إنها طريقة جيدة

لقتل الوقت، وكذلك بإمكان المرء ربح بعض الشاي، الدخان أو قطعة خبز. لكن كان معنا هذا السجين الذي لا يراهن أبداً واسمه أحمد. كنا نقامر مثل المجانين فيما يمكث هو في زاوية القاووش ساكناً كالحجر. كان فقيراً جداً وكلما ربحت شيئاً كنت أعطيه جزءاً منه. حسناً، لم أحب التدخل فيما لا يعنيني ولا كنت فضولياً، لكني سألته ذات يوم: «لمَ لا تلعب معنا؟ حسناً، ظننت في البداية أنه شخص بخيل، لكنه في الواقع كان كريماً جداً، حدث هذا في وقت كان حظي في اللعب سيّئاً جداً حيث خسرت كل ما أملك بعد عدة جولات. أفلست، جلست في الزاوية بجواره، خلع قميصه الجديد وقدمه لي من دون أن يتفوه بكلمة، قايضت القميص بثلاث علب سجائر وقامرت بالمبلغ وهكذا تمكنت من استعادة كل ما خسرته سابقاً أما هو فلم يشترك في الرهان معنا أبداً.

كنا مهووسين بالقمار، نراهن على أي شيء، وفي بعض الأحيان إن لم نتمكن من إيجاد شيء للمراهنة فقد يصيح احدهم: «هل من يراهن إن كانت هذه الذبابة ستقف على أنفي؟» وحينها يسارع كل منا بعرض مبلغ رهانه؛ وكما تعلمون، كانت تحدث خدع كثيرة، حيث يمكن للمرء استخدامها للتأثير على الذبابة نفسها فما أن تكش الذبابة بطريقة معينة، لا بعنف ولا برقة زائدة ـ حتى تعاود الوقوف في المكان نفسه وكأنها تمتلكه.

أكدّ موسى ضاحكاً كلام عصام: «أنا أعرف هؤلاء الأوغاد الملاعين، كم من مرة تسلّت ذبابة فوق أنفي وأفسدت لي قيلولتي».

تابع عصام: «أقسم لكم بالله العظيم، حين يدخل المرء السجن بصنعة واحدة فإنه يخرج منه بألف صنعة وصنعة. يمكنكم تعلم أي

شيء هناك، لقد أخبرتكم كيف تعلمت القراءة. يمكن أن تصبح خبازاً، جزاراً أو حتى حداداً مثل علي. لكن ليس هذا كل شيء - يمكنكم تعلم كيفية استخدام الموسى، تزوير العملة، تهريب البضائع، وكيف تلقي النكات. هل ترغبون بسماع نكتة؟

قال توما مشجعاً إياه: «فلنسمعها».

«إنها نكتة سياسية سمعتها من ذاك الشاعر الذي حدثتكم عنه، إنه لا يروي سوى النكات السياسية. حسناً، تقول النكتة إنه كان هناك اثنان من القناصة مكلفان باغتيال رئيس الجمهورية. اختبأ قرب قصره وأصابع يديهما متشبثة بزناد البندقية، حسناً مر اليوم بطوله ولم يغادر الرئيس قصره، تابع القناصان انتظارهما، جاء اليوم التالي وانقضى ولم يظهر أي أثر للرئيس ثم أتى اليوم الثالث ولم يحدث أي تغيير. استشاط الرجلان غضباً.

سأل أحدهما: «وأين هو بحق الجحيم؟».

التفت الرجل الآخر إلى صديقه وقال والهم يثقل كل كلمة: «أدعو الله ألا يكون قد حدث له مكروه!».

اعتدنا أن نلقي النكات طوال الوقت، عاملنا السجّان بشكل أسوأ من الحيوانات لكننا كنا نهزأ منهم - بين بعضنا البعض طبعاً. هل ترغبون بسماع نكتة أخرى عن السجّان؟

«لا، لا، لم لا تخبرنا عن ذاك الرجل الذي لا يراهن أبداً»، قال الوزير وصبره يكاد ينفد، كان الوحيد بين مستمعي عصام، الذي لم يضحك للنكتة.

«حسناً، كان اسمه أحمد. وقد سألته مرة عن عدم مشاركتنا

الرهان، اجل سألته. آه لقد أخبرني قصته، كانت لا تصدق على غرار قصص السجناء. كما تعلمون، يسمع المرء الكثير من القصص في السجن، خمسون في المائة منها ترمى في البحر وثلاثون في المائة نجبر على نسيانها وحتى ما يتبقى منها يبقى غير قابل للتصديق. قصص لا تصدّق على الإطلاق! كان معنا في السجن رجل أرمني اسمه مهران، محكوم بسنة واحدة. شخص ضئيل الجسم، قصير ونحيل مثل العود وكل ما قاله حين سألناه عن سبب سجنه هو: «بابا، أنا ضرب واحد دب كبيرة». لم يكن يتقن العربية وقد استغرق منا شهراً كاملاً كي نفهم ما حدث معه. ومما اتضح أنه كان عنده جار ضخم الجثة مثل علي، حيث اعتاد هذا الرجل أن يضرب أطفاله ظهيرة كل يوم. طلب منه مهران أن يتوقف عن هذا الأمر لأنه ـ أي مهران ـ يرغب أن يتمتع بقيلولة الظهر وبالإضافة إلى أن قلبه رقيق لا يتحمل بكاء الأطفال. وهذا الجار، الدب الكبير، بدل أن يفهم زأر في وجه الأرمني، بأنه من الآن فصاعداً لن يضرب أطفاله فحسب بل مهران كذلك. قال ذلك وهجم على مهران، لكن مهران قبض على المارد بيده اليمنى فقط ورفعه ولوح به وقذفه عدة أمتار، حيث أسعف الدب إلى المستشفى لتعالج كسور عظامه.

لم يفقه القضاة الأمر، كان على الجار المارد أن يزج في السجن وليس الأرمني. لكن عم أتحدث أنا؟ تعلمون، لقد سرقوا سنوات عدّة من عمري.. لكننا لا نريد أن نحزن، أين وصلت؟

قال علي الحداد: «كنت تتحدث عن الأرمني الشجاع؟».

دمدم الوزير وصبره يكاد ينفد: «عن أحمد! عن أحمد! كنت ستخبرنا عن عدم مراهنته أبداً».

نظر عصام إلى فارس مشوشاً بعض الشيء، «هذا صحيح، كنا نتحدث عن أحمد، لكن دعوني أخبركم شيئاً واحداً عن الأرمني، مثلما كنت أقول، لم يكن مهران بالشخص الضخم وحين فهمنا قصته، آخر الأمر، ضحكنا كثيراً ولم نصدق كلمة منها واستنتجنا أنه نشال لا أكثر. وكما تعلمون، لم يكن النشالون يلقون احتراماً في السجن، لذا كانوا يختلقون دوماً قصصاً رجولية ليحظوا باحترام الآخرين. لكننا ذات يوم كنا في باحة السجن حين قرر مجرمان كل واحد منهما بحجم ثور، أن يجعلاه مسخرة للآخرين لا لسبب إلا لمتعتهما الخاصة، لم يكن مهران ليؤذي حتى ذبابة، وهو لم يبدأ عراكاً في حياته، لكن لو بادره أحد بالإساءة فإن مهران لن يسامحه أبداً. كان كالجمل لا ينسى إساءة ويحمل حقده داخله. على أية حال، وقف هذان المجرمان في الباحة يتجادلان من منهما سيتناوله كطعام إفطار من دون رشفة شاي أو بدون رشة ملح، لا أذكر بالضبط، وبدآ بمهاجمته. وقف مهران على أرضه ثابتاً مثل صخرة ثم وبسرعة البرق نقف أحد الرجلين مثل حبة البازلاء باتجاه الآخر. ظل الرجلان من بعدها يعرجان لأسابيع.

الغريب أنه وعلى الرغم مما حدث، لم يرغب مهران أن يصبح زعيم القاووش. كان هناك شاب حمصي هو أكثرنا قوة، وما أن شاهد ما قام به مهران حتى أخبره في الحال أنه سيتخلى له فوراً عن مكانه قرب النافذة، وكما تعلمون فأفضل مكان مخصص لأقوى المساجين، لكن مهران رفض العرض، لم يرغب أن يصبح ريّساً على أحد.

قال الحلاق معلّقاً: «لا بدّ وأن أمه كانت ترضعه حليب السباع».

أكّد يونس كلامه: «الأرمن شعب شجاع للغاية. لقد عرفت واحداً

يدعى كارابيت، كان يقدم للمقهى كل يوم، لم تكن عربيته بأفضل من عربية مهران، لكن كل كلمة من كلماته كانت تعادل قصة بأكملها. ذات يوم...»، رغب يونس في الاستطراد، لكن صبر الوزير السابق كان قد نفد تماماً. سأل وهو يصرّ بأسنانه: «وأحمد، ماذا حدث مع أحمد اللعين هذا؟».

قال عصام: «أنت محق، يجب أن أصل إلى قصة أحمد. كان أحمد في شبابه مشهوراً بفوزه الدائم في الرهانات وبلسانه السليط وعقله الفطن. جمع أموالاً طائلة من جيرانه البسطاء الذين جرّهم إلى رهاناته. كان متحدثاً بارعاً إلى درجة أن رئيس الدولة دعاه ذات مرة إلى إحدى حفلاته من أجل إمتاع ضيوفه. وهو لم يبالغ في مدح ذاته، فلم يكن في السجن من هو أفضل منه في سرد الطرائف، لكن لم يكن لسانه صالحاً لهذا الشيء فحسب، بل كان قاطعاً وحاداً كسيف دمشقي، وحده أبو نواس من كان بوسعه مجاراته.. هل تعرفون قصته عن الدجاج والخليفة؟».

«لا، ما هي القصة؟» رغب توما بمعرفتها، لكن الوزير بدأ يدير عينيه كمؤشر لنهاية صبره. ثم قال حانقاً: «أرجوك، أتوسل إليك وأبوس إيدك، يمكنك شراء قصة الدجاجة والخليفة لأبي نواس من أي مكتبة بثلاثة فرنكات، فلتعد إلى قصة أحمد اللعين هذا».

«طبعاً، أنت محق، أنا آسف، وأحلف الآن بروح أمي بأنني سأنهي قصة أحمد. أين كنت؟ آه، حسناً، ذات يوم أقام الرئيس وعقيلته حفلاً مع عشاء يعود ريعه لرعاية الأطفال اليتامى، لأسابيع والصحف تكتب عن الحدث المرتقب. دُعي الجميع، التجار الأغنياء، الفلاحون

الأثرياء، كبار العائلات المرموقة، كتّاب، ممثلون، سفراء وضيوف أجانب.

كان الطعام خيالياً، طفحت الطاولات بلحم الغزال المشوي، فطائر كبد الطاووس، بقلاوة. صفق الضيوف للراقصين والمغنين والمهرجين. حسناً، أخذ الرئيس يحتسي الخمرة وبعد فترة سكر وكما تعلمون عن ذاك الرئيس، كان حين يشرب يصبح الاقتراب منه خطراً حيث لا يمكن التكهن بما قد يفعله. سمعت أنه دعي مرة إلى معلولا و...».

ذكّره فارس قائلاً: «يرحم الله أمك، لقد حلفت بروحها».

«آه، حسناً، إن قصة سكرة الرئيس في معلولا قصة أخرى. إذناً لنعد إلى قصتنا، أخذ الرئيس يعبّ النبيذ المعتق حين تذكر فجأة أحمد ولسانه، أرسل في طلبه وتحدث إليه غاضباً: «ليس هؤلاء الضيوف سوى سرب جراد شحيح. لقد أفرغوا الطاولات وكل ما يقومون به هو التصفيق لا أكثر! هذه فضيحة أمام ضيوفنا الأجانب، أين الكرم العربي وأين العطف على اليتيم؟ استخدم لسانك يا صاحب الفم الكبير ولنرَ إن كنت قادراً على سحب آخر ليرة من جيوبهم وإلا سأنفيك إلى الصحراء».

ابتسم أحمد، صعد إلى المنصة وتوجه إلى الجمهور قائلاً: «سيداتي وسادتي الأفاضل، لأن الهبات التي قدمتموها هي أثمن من كل التوقعات فقد قرر رئيسنا المفدى ومحبوبنا العظيم أن يهب أعز ما يملكه أي رجل عربي، إنها شعرة من شاربه».

وقف الرئيس وأخذ يصفق لهذه الفكرة الجهنمية. اقتربت منه امرأة بثوب أبيض تحمل وسادة حمراء صغيرة. انحنى الرئيس بعض الشيء

ثم نزعت المرأة شعرة من شاربه، وحين رأى الضيوف أن الرئيس ارتعش صفقوا له، من دون أن يدركوا أنهم وقعوا في الفخ.

«يودّ فخامته الآن أن يعرف تماماً مقدار محبة ضيوفه له، سيقام مزاد على شعرة شاربه وهو متشوق لمعرفة قيمة هذه الشعرة النبيلة. كل من يرغب بالمشاركة في هذا المزاد عليه أن يدفع ليرة ذهب واحدة - فلترفعوا أيديكم ولنبدأ الآن! بقليل من الحظ ستصبح أغلى شعرة في العالم ملك أحدكم!».

ساد الصمت بين الضيوف. أخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض حيارى بما يتوجب القيام به. ثم رفع أحدهم يده وعرض مائة ليرة ذهباً. كان سيئ الحظ فقد عرض جاره في الحال مئة وخمسين ليرة ذهباً. دفع الرجل الأول ليرته الذهبية واتكأ بكرسيه إلى الخلف متفاخراً لكن المزاد لم يتوقف، أخذ الناس يصيحون ألف، ثلاثة آلاف، ستة آلاف. بدأ فريق من البنات والصبيان بجمع ليرات الذهب من الحاضرين. استمر المزاد وسرعان ما تعالى صوت بعشرين ألفاً، مائة ألف، أخذ الصياح يعلو أكثر فأكثر ويشتد حدة وغضباً، حيث رغب كل واحد أن يثبت أنه يحب الرئيس أكثر من غيره. لم تمر ثلاث ساعات حتى أخذ أحمد يصيح: ثلاثمائة ألف ليرة، على أونو، على دوي، على تري - لقد بيعت بثلاثمائة ألف ليرة! مبروك يا سيدي! أصبحت الشعرة النبيلة ملكك. يا لها من غنيمة! تلفت الجميع يمنة ويسرى لرؤية من يقوم أحمد بتهنئته. كان تاجر حديد من دمشق. صعد المنصة وتناول الوسادة الحمراء بشيء من التردد. صفق الضيوف كلهم، بالرغم من أن قلة منهم شعرت بالأسف والشفقة على الرجل.

وقبل أن يستعيد الجمهور رشده، صعد أحمد إلى المنصة ثانية وصاح في أرجاء القاعة: إن فخامته سعيد بضيوفه، لذا قرر إحياء الأمسية ببعض الرهانات. فخامته يستمتع بها بين الفينة والأخرى، وسيادته يراهنكم إن كان بوسع أحدكم لطمه على أذنه. من يجرؤ على فعلة كهذه له مئة ليرة ذهباً، أما باقي الحضور فسوف يخسر كل منهم ليرة ذهب واحدة، لا غير!» طبعاً، تمنى معظم الضيوف أن يضربوا الرئيس ثلاثمائة مرة على هذه الفكرة الوضيعة الخسيسة، لكن لم يجرؤ أحد على هذا، لذا دفع كل منهم ليرة ذهباً، لكنهم لعنوا في سرهم روح أبي الرئيس على تربيته السيئة لابنه.

«أراهن الجمهور الكريم» صاح أحمد مرافقاً بتصفيق الرئيس: «بأنني سأحزركم حزورة لن يتمكن أحدكم من حلها؟ سيسمح لي فخامته تقديم نصف مليون ليرة ذهباً من المصرف الوطني لأي شخص يتمكن من حلها».

«نصف مليون؟ - أي نوع من الحزازير هذه؟ - هل في خزينة المصرف الوطني مبلغ ضخم كهذا؟».

شاهد الضيوف الرئيس يضحك ويومئ برأسه.

«سيداتي، سادتي، سوف أرضي فضولكم، لكن ابقوا في أذهانكم بأنه إن لم يتمكن أي منكم من حلّ الحزورة فسوف يتبرع كل منكم بعشر ليرات ذهباً لصندوق الأيتام».

«هيا ابدأ وقل هذه الحزورة الملعونة»، صاح أحدهم من الصفوف الخلفية. ضحك الضيوف معجبين بجرأة الرجل.

سأل أحمد: «من يمكن أن يراهن على مقدرته أن يعضّ عينه؟».

تجمد الحضور لهذه الوقاحة، فلم يطرح هذا اللعين حزورة، كما وعد، بل رهاناً لا يمكن لمخلوق أن يربحه. تجهّمت وجوه الحضور ولم يضحك سوى الرئيس، حيث أخذ يضرب فخذه باستمتاع.

«لا تشعروا بالحزن ولا بالإحباط!» هدّأ أحمد الجمهور الساخط «بالرغم من أن أياً منكم لن يكسب الرهان ضدي، إلا أنكم وبكل تأكيد ستفوزون جميعاً بحبّ الأيتام».

«هذا ليس صحيحاً. أنا يمكنني القيام بذلك!» جاء صوت أحدهم فجأة. عمّ السكون أرجاء القاعة وهبّ تاجر الحديد ذاته واقفاً.

أطلق أحمد ضحكة مفرقعة وقال: «أيها الرجل الطيب، لا يمكن لشخص على وجه الأرض عض عينه».

صاح الرجل عالياً: «أنا أستطيع ذلك، يمكنني المراهنة بعضّ عيني اليمنى، واليسرى أيضاً!».

قال أحمد بصوت تشوبه الشفقة الساخرة: «حسناً إذناً، تعال إلى هنا وأرنا، من فضلك، كيف تعضّ عينيك».

صعد الرجل إلى المنصة واستدار مواجهاً الحضور، ثم قال: «هذه عيني اليمنى!» ثم اقتلع عينه من محجرها وحملها عالياً بإصبعيه الاثنتين. صاح الجمهور من أثر الدهشة والقرف فيما أصيبت سيدة أو أكثر بالإغماء ثمّ دسّ الرجل عينه في فمه.

قال أحمد بنبرة انتصار: «لكن هذه ليست عينك الحقيقية ـ إنها عين زجاج». أصيب بعض الحضور بالارتباك، فيما ضحك البعض الآخر.

ظلّ تاجر الحديد غير مبال بتعليق أحمد، قال: «حسناً، يمكنني المراهنة بعيني اليسرى وهي عيني الحقيقية. فتح فمه وأخرج طقم أسنانه

الصناعية. طقطق به في الهواء مرة أو مرتين ثم أطبقه عاضاً به عينه اليسرى. هلل الحضور من الإثارة ـ فيما استحال وجه أحمد شاحباً مثل الورقة البيضاء. وبسبب حضور السفراء الأجانب لم يكن أمام الرئيس من خيار سوى الدفع. وبنفس الليلة أمر الرئيس بسجن أحمد مدى حياته.

أنا واثق أنكم تذكرون حادثة نجاة الرئيس بأعجوبة من محاولة اغتياله الأولى ثمّ إصداره عفواً عاماً. حسناً، لقد أعفى حتى عن قتلة الأطفال لكن ليس عن أحمد.

أحمد هذا، كان رجلاً طيباً وحادّ اللسان كذلك. ذات مرة ظهر آمر السجن فجأة في وقت متأخر من الليل وأمرنا بتنظيف الزنزانة. ظلّ يصرخ علينا كي نجعل البلاط براقاً، وبأنه سيجبرنا، إن لم يعجبه عملنا، على لعقه بألسنتنا فسألته عن السبب في حملة النظافة هذه.

قال الحارس: «إن الرئيس قادم في زيارة عند الساعة العاشرة من صباح الغد».

نظر أحمد إلى الحارس مدهوشاً وسأله: «ما يعني هذا؟ هل تقصد أنكم أخيراً قد قبضتم على هذا المحتال؟».

«حسناً، هذه هي قصتي. آمل أنكم قد استمتعتم بها».

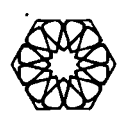
ابتسم سليم، هبّ واقفاً ومشى باتجاه عصام ثم قبّل شارب صديقه.

تثاءب الوزير وقال: «يا عزيزي، هذه ألف قصة وقصة» ثمّ ابتسم مكشراً.

مازح موسى عصاماً بقوله: «هيا، فلتبتهج، لأنك لست شهرزاد، لأنك لو كنت ذلك بحق، لأنهيت كل قصصك بليلة واحدة ولأعدمك شهريار».

ضحك عصام وأمسك بورقتي لعب الشدة، وضعهما أمام الحداد والوزير السابق وقال: «أنا متشوق لمعرفة من منكما أيها السادة سيكون شهرزادنا في ليلة الغد» وأشار لهما كي يختار كل منهما ورقة.

«حسناً، سيادة الوزير، الغد لك، وأنت سيد الحكواتية»، قال علي بسعادة للوزير الذي سحب ورقة الأس الديناري.



كيف أرغم الملك أن يسمع بعد موته ما صمّ عنه أذنيه طيلة حياته؟

انحدر فارس، الوزير السابق، من عائلة دمشقية عريقة ملاّكة. نال أبوه لقب باشا الفخري من السلطان نفسه في اسطنبول كثناء له على ولائه المطلق للإمبراطورية العثمانية - التي اخترعت ألقاباً غريبة بالدزينة. لكن هذا الباشا كان ثعلباً عجوزاً ماكراً فما أن أحسّ بأن أيام الإمبراطورية العثمانية أصبحت معدودة حتى أخذ يجسّ نبض الفرنسيين بواسطة القنصل الفرنسي الذي كان يزوره باستمرار، وهكذا أصبح الباشا المؤتمن الأول للمستعمرين الفرنسيين الذين سرعان ما حلّوا مكان العثمانيين في سوريا. لكن الباشا المتمرس - كان يعلم أيضاً أن الفرنسيين لن يبقوا في سورية للأبد لذلك قام وأثناء استقباله المستمر للمندوب الفرنسي بالتمويل السرّي لعدة جماعات وطنية كان توقها للاستقلال يكبر يوماً بعد يوم.

هكذا كان الباشا يفكر وينفذ حتى يوم مماته حيث رُويت قصص كثيرة عن دهائه.

أمضى الباشا حياته الطويلة كإنسان مسلم مؤمن حجَّ إلى مكة مرات

عدة. هناك على جبل عرفات كان على الحجاج أن يرجموا إبليس بسبع جمرات (حصى صغيرة) ترمز إلى رفضه كلية. وفيما كان الباشا شديد الدقة في تنفيذ كلّ الشعائر الدينية إلا أنه فيما يتعلق برجم إبليس فقد أصرّ على رجمه بست جمرات فقط.

«و لمَ لا ترمي الجمرة السابعة؟» دأب أصدقاؤه على سؤاله كل مرة.

كان جوابه الدائم: «أنا لا أريد أن أفسد علاقتي مع إبليس نهائياً».

رحل الباشا العجوز قبل يومين من استقلال سورية لكن لقب الباشا ظلّ حياً تتوارثه العائلة لعقود كثيرة، حتى بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية.

كان فارس، الابن الأصغر وصاحب الإحساس الأكثر رهافة بين أبناء الباشا، ولأن مهنة التجارة أو الزراعة لم تكونا ملائمتين له على الإطلاق، فقد أرسله والده إلى باريس ليدرس الحقوق في جامعة السوربون كي يتمكن لاحقاً من تمثيل نفوذ العائلة في الدولة.

تحققت رغبة الباشا الراحل حين أصبح فارس عضواً في حكومة سورية المستقلة الأولى. لكن فارس وبدلاً من إدارة عمله كوزير بشيء من اللامبالاة المتوقعة منه فقد باشر إلى تأميم شركة الكهرباء ومياه عين الفيجة ومعمل التبغ والتنباك والمنشآت المهمة الأخرى. شعرت عائلته بالحنق، فيما أطلق فقراء البلد على الوزير الجديد لقب «الباشا الأحمر»، بالرغم من أن كل ما جنوه من التأميم كان ارتفاع أسعار التبغ والمياه والكهرباء وكل المنتجات الصناعية الجديدة المؤممة التي زعموا بأنها صارت ملكاً لهم.

مع هذا قدّر الناس تواضع فارس، فقد رفض أن يكون له كوزير

حراساً شخصيين أو سائقين كباقي الوزراء. كان يغادر منزله صباح كل يوم عند الساعة الثامنة ويمشي في السوق بين العامة باتجاه مبنى الوزارة التي يصلها بعيد التاسعة. كان يشرح الأمر لأصدقائه قائلاً: «أنا أشمّ حالة الناس في الشارع».

في نهاية شهر آذار ١٩٤٩، قام ضابط في الجيش بتجهيز عدد من الدبابات وسيارات الجيب القديمة ثمّ شقّ طريقه باتجاه القصر الجمهوري. عند الفجر سحب أتباعه رئيس الدولة من سريره وطردوه ثمّ أسرعوا إلى مبنى الإذاعة. هناك أيقظوا الحارس الوحيد النائم. صاح قائدهم بالحارس: «هذا انقلاب من أجل الحرية وضدّ الصهيونية! نحن سننقذ سورية، فالبلد يقف على حافة الانهيار واللوم يقع كله على السياسيين». لم يكن عند الحارس المسكين أدنى فكرة عما تعني كلمة انقلاب، فقد كان هذا الانقلاب الأول من نوعه ليس في سورية فحسب بل في البلاد العربية كلها، لكنه استدار ناحية القائد وسأله بقلق شديد: «ولكن ماذا سيحلّ بتقاعدي؟».

بعد السادسة بدقائق قليلة، أصدر حسني الزعيم بلاغاً أعلن فيه للشعب والعالم بأسره عن نياته الشريفة، ثم توجه بعد نصف ساعة لرؤية فارس الذي يعرفه حق المعرفة. كان الباشا الأحمر لا يزال غاطاً في نومه لكن هذا لم يهم حسني الزعيم الوقح. أصر أن يستيقظ صاحب البيت فوراً وتوجه بدون أي احترام إلى الصالون الفخم لينتظر هناك الوزير. دخل فارس الصالون الكبير مرتدياً بيجامته ووجهه متجهم، فيما كان الزعيم جالساً على الأريكة مفرشخاً رجليه وشفتيه الغليظتين عن ابتسامة ساخرة ووقف ضابطان شابان على جانبيه باستعداد.

«حسناً، ما رأيك بهذا الانقلاب العبقري؟ لم تهرق قطرة دم واحدة، أليست هذه ضربة معلّم؟».

قال فارس وتثاءب بنعاس: «سيادتك، هل أيقظتني لهذا السبب؟».

«أجل، بالتأكيد ـ أريد معرفة رأيك».

أجاب فارس بجديّة: «إن أردت معرفة رأيي فلترمِ هذين الضابطين خارجاً، فأنا لا أرغب بوجود طفيليين مسلحين في بيتي».

احتج الضابطان لكن زعيمهما هدأ من روعهما فخرجا.

«أخبرني الآن، أليس الأمر رائعاً؟».

«بالطبع سيادتك، بالطبع. باستثناء أنك فتحت باباً في سورية لن تستطيع إغلاقه أبداً والأكثر من هذا، أنت سحبتني من سريري وعليك أن تحذر الآن، لأن اليوم الذي ستسحب فيه من سريرك هو أقرب مما تتخيل».

ضحك الزعيم قائلاً: «أنا لست مدنياً مثلك، فأنا أنام ببدلتي العسكرية ومسدسي تحت وسادتي لا ينام أبداً» قال كلمته ومضى خارجاً.

لم يعرف أحد في دمشق إن كانت هذه المحادثة تمت بالفعل. لكن كان هناك أمران ثابتان: أولهما أن فارس خسر وزارته لأنه رفض العمل مع الانقلابي، والثانية أنه في ليلة لا قمر فيها من ليالي آب اللاهبة تم اعتقال الزعيم من قبل انقلابيين جدد بقيادة سامي الحناوي لم يرغبوا سوى إنقاذ سورية من الدمار والسقوط في الهاوية. حَكم الزعيم اللامع، صاحب الانقلاب الأول، دمشق لمائة وتسعة وثلاثين يوماً فقط. لقد سُحب من سريره ورمي بالرصاص على طريق المزة في

ضواحي دمشق ـ مرتدياً بيجامته ليس إلا! والباب الذي فتحه على سورية لم يغلق لعشرات السنين.

قرر فارس عدم الانضمام إلى أية حكومة أخرى. جنى ثروة من عمله في المحاماة حيث أصبح محامياً لامعاً. افترض العديد من القضاة وبقناعة كبيرة أنه سرعان ما سيعاود التحاقه بالوزارة، وهو لم ينف هذا الاحتمال أبداً، وهذا ما رفع من مكانته في أعين القضاة الذين أخذوا يهتمون بمرافعاته أكثر من كل خصومه.

كان فارس أول الواصلين تلك الليلة، لكنه كان نعساً «عندك قهوة ثقيلة (اسطنبولية)؟» سأل سليم الذي أسرع إلى المطبخ وحضّر له قهوة على ذوقه ثمّ بدأ السادة بالقدوم تباعاً.

قال فارس: «لقد سرقت قصصكم النوم من عينيّ الليلة الماضية. كنت جالساً على شرفتي أفكر وأتساءل، لمَ يسرد الناس القصص؟ وما معنى سرد قصة، على أية حال؟ أرهقت نفسي بالتفكير حتى الفجر.

لم أسعد بالنوم لأكثر من ثلاث ساعات، فقد أيقظتني زوجتي في الصباح الباكر لكي أذهب للسوق لأبتاع لابني وزوجته المدللة ما احتوته قائمة طويلة عريضة من الخضار واللحم والفواكه والتوابل، لأن سيادتهما دعيا أصدقاءهما إلى حفل عشاء. خرجت غاضباً من البيت، غاضباً على هذا الجيل الذي لا يستطيع حتى الذهاب إلى السوق. لكن الحظ أنقذ مشواري إلى السوق فهناك التقيت بالشاعر الإيراني سعيداً، أنتم تعرفون سعيد بلا شك، فهو يعيش هنا في منفاه منذ دهر».

هز سليم وموسى رأسيهما بالموافقة لمعرفتهما السابقة بالشاعر

النحيل الذي وجد في دمشق ملجأ يحميه من غضبة الشاه ورجال مباحثه.

«وما باله؟» ألّح المغترب لأنه لم يسمع بهذا الرجل قبلاً.

«كأن سعيداً قرأ أفكاري وألمَّ بهواجسي، قال لي بعد التحية وبدون أن أسأله: يا إلهي أنظر إلى هذا الأفغاني الذي يعيش بالكاد من جلخه للسكاكين، يجوب الشوارع يوماً بيوم باحثاً عن لقمة عيشه. أنظر إليه، بربك ألا ترى ما أراه؟ قزم نحيل يجر عربته مع طارة وحجر جلخ عبر الشوارع منادياً ربات البيوت أن تأتي بسكاكينها ومقصاتها التي أحالها الزمن إلى التقاعد ليعيد إليها شبابها. هذا الأفغاني الصغير تراه متى بدأ يحكي لك قصصاً من كابول عاصمة بلاده، تراه بدأ ينمو أمام عينيك.

لم أكن أدري شيئاً عن أفغانستان ولكن هذا الشيطان ذا السحنة الصينية كان يأخذني، تخطفني كلماته، لأتجول معه ومع أبطال رواياته في شوارع مدينته وكأنني ابنها. وتراني أتجول في أزقتها، أشم عبير توابلها، وأسمع صراخ أطفالها وأفهم أفراح وأتراح سكانها. وفجأة تراني واحداً منهم أحس بما يحسون. أليس هذا من عجائب القصة؟» سألني وأسرع مبتعداً فهو على عجلة كالعادة. كم وددت لو كان بوسعه أن يحدثني بالمزيد عن سحر الرواية.

بعد أن ابتعت كل ما تحتاجه العائلة عدت إلى غرفتي ورجوت زوجتي ألا يزعجني أحد بعد ذلك. عدت بذاكرتي إلى أيام خلت. تذكرت ذاك الرجل العجوز الذي كان يحضّر لي - حين كنت وزيراً - قهوتي كل صباح ويخبرني كل يوم بقصة صغيرة للمتعة لا أكثر، لكني لسوء الحظ لم أكن أصغي إليه في الواقع، كل ما احتفظت به ذاكرتي

هو نتف ورؤوس أقلام لكني أجدها الآن ملأى بالحكمة. يؤسفني اشد الأسف أنني لم أتعلم كيفية الإصغاء في تلك الأيام، كما تعلمون أظن أن الحكام كلهم غير قادرين على الإصغاء أثناء توليهم السلطة.

لم أتمكن كذلك من سرد القصص في تلك الأيام، كان موظفيّ وزارتي يخبرونني ما يرغبون به باختصار شديد، لعلمهم بضيق وقتي ونفسي، ثم أبلغهم قراراتي. إن تحدثت فهذا يعني أن أصدر أمراً. سألت زوجتي هذا الصباح وأثناء الفطور متى بدأت بسرد القصص فقالت: «ما أن جُرِدت من منصبك ظلماً حتى أصبحت متحدثاً طلقاً» لم يفاجئني الأمر فكل الحكام الذين يفقدون كراسيّهم يبدأون فجأة بالثرثرة وبعضهم بكتابة مذكراته، كمجلدات سميكة وثقيلة عن حياته.

سأخبركم الليلة، إن أعرتموني صبركم وسمعكم، قصة حاكم لا يصغي أبداً، قصة ممتعة وملأى بالحكمة أيضاً.

ما أن أوشك الوزير على البدء بقصته حتى أفاق الحسون من نومه وأخذ يغرد عالياً. لم يتمكن عصام من حبس قهقهة نصر.

«في يوم من الأيام. .» بدأ فارس لكن الحسون عاد يزقزق عالياً وعالياً جداً.

زأر موسى قائلاً: «غطي القفص وحينها ينام هذا الأزعر».

دافع عصام عن محميّه قائلاً: «إنه حسون أصلي، انظروا إنه يرغب أيضاً بسرد قصة» وكأن العصفور فهم كلماته فطفق يغرد بسعادة.

قال فارس: «إن لم تغطِ هذا العصفور الملعون فلن أتمكن من قول كلمة واحدة» أسرع سليم الذي تذوق بأذنيه جديّة كلمات الوزير إلى رمي غطاء داكن فوق القفص.

بدأ فارس ثانية: «في يوم من الأيام عاش في سالف الزمان ملك تقع مملكته في أرض أبعد من جزيرة الواق الواق، كان ذو وجه جميل مدوّر إلى درجة يقول معها للبدر في ليلة صيف «انزل كي أجلس مكانك وأسحر الناس على الأرض». وبالرغم من أنه كان فتياً عندما صعد إلى العرش خلفاً لأبيه إلا أنه فاق والده نجاحاً، كان الملك الجديد أكثر حكمة من الأفعى وأدهى من الثعالب، ولم يعيّن في مملكته سوى الوزراء الماكرين الذين حكموا بلاده بيد من حديد. تزوج في السنة التي اعتلى فيها العرش من أميرة فائقة الجمال بدت أمامها كل ورود الشام الجورية شاحبة من كثرة حسدها.

همس مهدي، المعلم: «وصف جميل».

عبر موسى عن شعوره أيضاً بقوله: «أسابيع قليلة مع هكذا امرأة جميلة تجعلني أصغر ببضع سنين».

ضحك عصام قائلاً: «وما تفعل بطقم أسنانك؟».

تابع الوزير: «على أية حال، رغب الملك أن يرزق بولد، لكن زوجته أنجبت له بنتاً وبالرغم من أنها فاقت والدتها جمالاً إلا أن الملك رمق طفلته بغضب وغادر الغرفة. أعطى الأمر والدموع ملء عينيه أن أن تنفى كلتيهما إلى جزيرة نائية، فيما أعلن في مملكته أن الملكة قد ماتت أثناء الولادة».

صاح يونس القهوجي: «فليقص الله لسان هذا الرجل الظالم على هذه الكذبة!».

صبّ موسى جام غضبه قائلاً: «يا له من كلب جبان، ولماذا يكره، مقصوف العمر هذا، البنات إلى هذا الحد، أنا لديّ خمس بنات ولا أبدل ظفرهن الصغير بصبي».

اعترض الحداد: «انتظر لحظة، أنا لدي ست صبيان وكل واحد منهم مثل السبع».

قاطعه الوزير عائداً إلى قصته: «وهذا بالضبط ما يريده الملك، لكن زوجته الثانية أنجبت له بنتاً أخرى تم نفيهما أيضاً إلى جزيرة أبعد. الثالثة ـ ضحك الوزير متابعاً ـ الرابعة والخامسة والسادسة. . .» أخذ يضحك بقوة إلى درجة كاد يختنق معها.

«يثير هذا الملك مللي. .» قال توما وكأنه يسأل الوزير عما يضحكه إلى هذه الدرجة.

قال الوزير: «حسناً، ستبدأ الآن متعة القصة الحقيقية، فقد ازداد غضب الملك مع كل سنة تمر. أخذ إصغاؤه لوزرائه يقل تدريجياً فيما تجاهل تماماً نوادر مهرجه. وفي السنة السابعة من حكمه تزوج امرأة معروفة بدهائها، حملت المرأة ولكن في شهرها الثامن ـ وكان الوقت صيفاً ـ أخبرت زوجها بأنها ترغب بالانتقال إلى القصر الصيفي لأن الطقس في العاصمة كان حاراً جداً بالنسبة لها. سرعان ما انتقلت إلى القصر الملكي في الجبال حيث المناخ المعتدل ولم تصحبها سوى وصيفتها المخلصة.

ما أن بدأ مخاض الملكة حتى وصل الرسل من قبل الملك وهم جاهزون للعودة سريعاً إلى القصر محمّلين بالأخبار جيدة كانت أم سيئة. انتظروا ثلاثة أيام بلياليها أمام غرفة الملكة ليتحولوا إلى حمامات تحمل الأخبار الحلوة أو إلى غربان تحمل الأخبار السيئة.

قال مهدي: «خيراً ما قلت، يسلم فمك».

أجابه الوزير وتابع: «وفمك أيضاً. في مساء اليوم الثالث سمع

الرسل صياح المولود الأولى فيما أطلقت الوصيفة صيحات فرح، ولم يمض وقت قليل حتى خرجت وعيناها تفيضان دموعاً، «أسرعوا وأخبروا ملكنا وسيدنا المحبوب أن يريح باله»، كانت تبكي فرحاً، «لأن السماء قد حققت له أمنيته ومنحتنا كلنا أميراً سليم الجسم قوي البنيان!».

ابتهج الملك كثيراً لسماعه أن أمنية قلبه تحققت أخيراً، فاستقبل الملكة بالطبل والزمر. تجمهر الآلاف من تابعيه ليحيوا الملكة، ومن شرفته ظهر الحاكم وهو يحمل ولي العهد ـ الذي دعاه باسم أحمد ـ كي يراه الجميع. تلاطمت أمواج الفرح في البلاد من شمالها إلى جنوبها. صعد بعض العامة إلى المآذن وقفزوا نحو حتفهم من دون سبب، بل من فرط سعادتهم. كأن الناس أصيبت بمس من الجنون ذاك اليوم، من الصعب تصور السخافات التي يقوم بها البشر.

في اليوم التالي أمر الملك بهدم حارة بأكملها كي تبني مكانها حديقة وبحيرة ماء لابنه. بكى الناس الذين يعيشون في الأكواخ الصغيرة طالبين الرحمة، لكن الجنود أخذوا يجلدون بالسياط كل من لم يغادر كوخه حتى مغيب الشمس. شق مئات الباكين ممن فقدوا منازلهم طريقهم إلى القصر مناشدين الملك الرحمة والمساعدة لكن الحراس طردوهم وفرقوهم بالعصي. هذا هو الأمر المضحك حيال السعادة حيث يمكنها أن تتحول إلى تعاسة بأسرع من رمشة عين.

أطراه كل من مهدي وموسى بقولهما: «رمية جميلة!»، بينما استغرب سليم في قرارة نفسه سبب تسمية الوزير لهكذا كارثة بالأمر المضحك، وكأنه أسر بذلك لصديقه الحميم علي، من دون كلمات،

هكذا عبر وشائج قلبية، امتعض الحداد العجوز من حكواتي تلك الليلة، فارس، الذي يرش تعابير الضحك والمرح هكذا فوق كل مقطع حتى صارت القصة كلها بطعم واحد ممل.

«ناح الكثيرون، لكن شخصاً واحداً لم يبك، إنها الساحرة ميرا، فعلى الرغم من سمعتها الطيبة في أنحاء المملكة إلا أن الناس كانوا يهابون انتقامها. وكان على كوخها أن يسقط مثل أكواخ ومنازل الآخرين ليزيد فسحة قصر الأمير الصغير. ما أن رأى الحراس ميرا حتى انتابهم الخوف وأسرعوا إلى الملك ليخبروه أن الساحرة ترغب بتقديم شكواها إليه شخصياً. أخذ الملك يضحك قائلاً: «شكوى؟ ومم تشتكي؟ لقد ولد الأمير! من الآن فصاعداً لن ينتاب أي حزن أو قلق مملكتي، ولن أسمع أية شكاوى!».

ما أن سمعت ميرا الساحرة كلمات الملك حتى نظرت ناحية الشعب الباكي، ثم استدارت نحو السماء وتمتمت بعبارات غامضة. فجأة أرعدت السماء الزرقاء، ذعر الناس وتفرقوا هاربين. صاحت الساحرة: «أيها الملك الفاسد، لن تستطيع بعد اليوم سماع أية كلمة أخرى في حياتك!» مع هذه الكلمات اختفت الساحرة في الهواء، وكأنها بخار، ولم تعد مطلقاً.

كان الملك واقفاً في تلك اللحظة وسط حشد من العلماء والتجار الذين أتوا لتقديم تهانيهم، حين احتقن وجهه فجأة بالألم. أمسك برأسه وصاح عالياً: «أذناي! أذناي!» دار ثلاث مرات ووقع على الأرض مغشياً عليه. منذ ذاك اليوم لم يعد الملك قادراً على السمع، لكن وبالرغم من قلقه الشديد حيال ما حدث، إلا أنه ظل سعيداً بابنه،

وحكم البلاد بيد من فولاذ. أرسل مئات الجواسيس إلى أنحاء مملكته ليكونوا بديل أذنيه. كانوا يروون تقاريرهم مرات ومرات إلى أن يتمكن الملك من فهم أكثر التفاصيل أهمية عبر قراءة شفاههم.

جرت الرياح بما تشتهيه سفن الملك الشاب. وأجابت السماء لهفة الفلاحين ومنحتهم سنة بعد سنة أمطاراً غزيرة لحقولهم والدفء لفاكهتهم فازدهر حال المملكة. لكن وبدلاً من التمتع بالسلام، قام الملك ببناء جيش عظيم، وشعر شيئاً فشيئاً بقدرته التي تفوق قدرات البلاد المجاورة، فازداد طمعه للسيطرة عليها. لا يتطلب الأمر الكثير كي يزداد طمع أي ملك بما يجاوره من بلدان أضعف منه، وقد حذره العرافون والعلماء من غزو هذه البلاد، إلا أنه لم يأبه بهم ولم يقرأ سوى القليل والقليل من حديث شفاههم.أبى اتباع نصائحهم ونفذ رغبته فقط.

لقد خطط في الحقيقة، أن يحرز انتصاراً كبيراً في حربه الأولى - لأنه كان محارباً بارعاً. كان تحت إمرته خمسون ألف محارب مجهزين بالرماح والسيوف وعشرين ألفاً من رماة السهام وعشرة آلاف فارس وأكثر من خمسين منجنيقاً. أخفى الملك غالبية جنوده في الغابة ثم تقدموا مشياً لملاقاة العدو وما أن رأى الجيش الضخم يحشد صفوفه في السهل حتى حدد مواقع رماة السهام خلف الهضبة. امتطى الملك حصانه وسابق الريح مع ثلة من فرسانه وكأنه يبغي مهاجمة ميسرة جيش العدو. في وسط الميدان توقف، ثم كر فاراً بسرعة من دون أن يشتبك في أي قتال. شاهده أعداؤه يهرب برفقة جيش صغير فهبّوا في إثره متخلين عن كل حذر. وقد لاحق الملك أفضل فرسان العدو بفوضى

عارمة. سرعان ما وصل الملك إلى الغابة التي أعطته ومرافقيه الأمان. وفي تلك اللحظة اسودت السماء لكثرة سهام الرماة المتطايرة. وقع العديد من الرجال والأحصنة أرضاً بفعل هذه السهام...». تابع الوزير حديثه بإسهاب عن المعركة من دون حذف أية ضربة سيف، طعنة رمح أو ضربة هراوة، وكأنه كان حاضراً في ساحة الحرب، وعليه كمحامٍ وصفها أمام المحكمة.

قاطعه توما وقد أصابه الملل: «طيب يا أخي، ماذا حلّ بالمملكة؟».

«بعد سبع سنين من الحظ الطيب، حلّ جفاف شديد بالمملكة وتسبب بخسارة فادحة. جلب الوزراء الأخبار للملك لكن الملك رفض أن يقرأ شفاههم. بدأ أتباعه يلعنوه كلما ظهر على الشرفة، لكنه لم يستطع التمييز بين قبضاتهم الغاضبة والتلويحات الودودة فردّ عليها بتحيات مماثلة.

خيّم شبح الجفاف على البلاد لثلاث سنين طوال جالباً معه البؤس والدموع للمملكة. لكن الملك كان غافلاً عن كل هذه الأمور، فقد كان سعيداً بابنه أحمد. كان الصبي شاعراً رائعاً ويعزف على العود بمهارة فائقة. تمكن في سن الثانية عشرة من مسابقة فرسان الملك كلهم وتفوق على كل رماة السهام المهرة. تحلى الأمير الشاب بشجاعة الفهد وهو يصارع الأسود التي امتلكها الملك في قصره ـ ومع الأيام لم يجرؤ أحد بعد على تحديه. كان الماء هو الشيء الوحيد الذي يخشاه، فكلما لعب أبناء الوزراء مستمتعين بالسباحة جلس الأمير أحمد قرب ضفة النهر أو البحيرة يراقب الصبية اللاهين.

قال عصام ضاحكاً: «أعلم ما سيحدث الآن، أعلم تماماً!».

وبخه الحلاق قائلاً: «فلتبقه لنفسك، إن كنت تعرف أو لا. لا أحب أن يقتل المرء القصة من منتصفها» هدّأ عصام بتلويحة من يده الحلاق ملمحاً أنه لن يبوح لأحد بما خمنه..

أيد فارس قائلاً: «موسى على حق، بالإضافة إلى أن القصة بدأت تصبح أكثر متعة».

رغب يونس في أن يقول له، إنه لم يجد في القصة حتى الآن أية متعة على الإطلاق لكنه ما زال يأمل بأن تصبح كذلك.

«حسناً، ما أن أوشك القمح على النفاد من المخازن حتى قرر الملك أن يغزو بلداً مجاوراً آخر. هذه المرة كان العبيد في المملكة مجهزين بأسلحة خفيفة فأرسلهم لملاقاة العدو وبعدها قام جيشه الفعلي..».

مرة أخرى سرد الوزير السابق قصة حرب الحاكم بإسهاب شديد. بالرغم من أن فارساً نقد تصرفات الملك، إلا أنه كان مستمتعاً بسرد حروبه. كان يصف كل مقطع من المعركة بالتفصيل، كيف تدحرجت الرؤوس أرضاً، وكيف صاح المحاربون بكل قوتهم كي يشدوا عزيمتهم. تابع الوزير سرده مزيناً كل حدث وكل حركة من الملك بتفصيل ممل جعل حتى صديقه الحميم موسى ينضم إلى علي الغافي منذ مدة ويناغيه بالشخير.

«وماذا حلَّ بالأمير؟» سأل توما محاولاً مساعدة الوزير في مسك خيط القصة ثانية.

«بالرغم من بلوغ الأمير سن الثلاثين إلا أنه رفض الزواج. في هذه

الأثناء كانت شهوة الملك للسلب والنهب قد قادته إلى شن خمس حروب أخيرة. . . هنا بدأ الوزير ثانية بشن معركة أخرى. لكن توما لم يعد يصغي هو الآخر - بالرغم من تأكيدات الوزير المتواصلة بأن القصة ستصبح أكثر إمتاعاً وتشويقاً. تثاءب سليم شاعراً بالنعاس متمنياً أن ينهي الوزير قصته سريعاً. حدق كل من عصام ويونس بفارس، كانت نظراتهم داكنة متشائمة تستنكر وصف الوزير لكل هذه المذابح بأنها ممتعة. وحده يونس المعلم كان من يقاطعه بين الفينة والأخرى ليصيح: «يا لها من عبارة جميلة».

«ماذا حلّ بالجفاف؟» سأل الحلاق حين أفاق قبيل التاسعة والنصف.

«الجفاف؟ لقد استمر لثلاث سنين طويلة، جالباً البؤس والدموع للمملكة، لكن حروب الملك قد أكسبته غنائم كثيرة. . .». وباشر الوزير ليصف كل جوهرة وكل تاج مرصّع بعناية تفوق جرد الصائغ لأحجاره النفيسة. تابع مهدي كيل المديح لعبارات فارس الجميلة حتى منتصف الساعة الحادية عشرة حين سقط غافياً هو الآخر. سليم وحده من ظلّ ثابتاً يدافع بيأس عن مواقع يقظته ضد جيوش النعاس عديمة الرحمة آسفاً على واجباته كمضيف.

توقف الوزير عن سرده، نظر إلى الضيوف النائمين وصاح فجأة: «والآن وصلنا إلى نهاية القصة!» وكأن الديك قد صاح فأيقظ الرجال العجزة كلهم، جلسوا مستقيمين في كراسيهم، مولين القصة كل انتباههم آملين العودة سريعاً إلى بيوتهم.

كما أخبرتكم، حكم الملك لأربعين سنة ولم يكن يصغي لأحد.

كان نادراً ما يغادر قصره وحين يفعل كان حراسه يضربون كل من يجرؤ على الاقتراب منه.

ذات يوم كان الملك يحتفل بنصره على سلطان آخر. قامت هذه الحرب...».

اعترض يونس غاضباً: «يكفينا حروب، أين نهاية القصة؟ ماذا حدث حين كان هذا السفاح اللعين يحتفل؟».

«حسناً كان يحتفل بنصره، لكن أبناء رعيته احتشدوا أمام قصره كي يصبّوا لعناتهم على الملك وأجداد أجداده، كانوا يشتمونه ويبكون على فقدان أولادهم. بعد أن احتسى الملك بعض الشراب أمر خدمه أن يجلبوا له صينية ملأى بالنقود الفضة. اندفع خارجاً إلى الشرفة حيث قبض على حفنة منها ورماها ناحية الحشد المجتمع تحت شرفته. لكن يده ارتعشت فوقعت بعض القطع الفضة على أرض الشرفة تحت قدميه. انحنى حراسه ليجمعوها وللمرة الأولى خلال أربعين عاماً وقف الملك قبالة شعبه وبدون حماية. أسرع من رفة رمش عين انطلق سهم أصاب القلب الملكي».

علق المعلم: «يا له من قول جميل، فليبارك الرب لسانك».

أجاب الوزير: «ولسانك كذلك، كما أخبرتكم انحنى الحراس لدقيقة لا أكثر ليلتقطوا النقود لكن حين وقفوا ثانية وجدوا الملك خلفهم صريعاً على الأرض.

صاح الوزراء: «مات الملك!» صاح الناس المتجمهرون أمام القصر فرحين بموت هذا الظالم. حسناً، لقد لعنت الساحرة الملك أثناء حياته، وهكذا فقد سمعه لأكثر من أربعين عاماً. والآن كما تعلمون، تقوم الأذنان داخل رحم الأم بفتح النافذة الأولى على العالم، وهما

كذلك آخر النوافذ التي تغلق مصراعيها. بعد موت العينين والرئتين، القلب والدماغ تبقى الأذنان مستمرتين في عملهما. ومن المعروف أن كل شيء لا يستعمل يظل جديداً، وهكذا فإن لم يستخدم المرء دماغه كثيراً أثناء حياته، يبقى الدماغ حيّاً لمدة أطول. لذا، فالأذنان تعملان ويمكن لدماغه أن يعي ما يُقال. حسناً، ظلّ دماغ الملك يعمل ويعي معنى ما يسمعه بأذنيه اللتين تحررتا الآن من اللعنة، لموته. وهكذا تمكن الملك من سماع صيحات ابتهاج رعيته فاستشاط غضباً.

«انظروا إليه ملقى هناك، ذاك الأحمق» سمع الملك قول المهرج. آه كم تمنى الآن أن يصفع الرجل الوقح لكن يديه كانتا قد ماتتا. أخذ المهرج يهزأ من حماقة سيده فيما غرق الوزراء كلهم بالضحك. رغب الملك أن يرفس كل واحد فيهم على قفاه لكن رجليه كانتا قد ماتتا أيضاً.

فجأة ساد الصمت من حوله. أرهف الملك سمعه بكثير من الفضول. تناهت من بعيد أصوات وقع أقدام. «هدوء!» همس المهرج «إن الملكة قادمة مع الأمير»، كاد المهرج أن يختنق وهو يحاول كبت ضحكاته.

انتحبت الملكة قائلة: «ماذا حدث، لم أغب سوى ساعة واحدة، كنت جالسة مع الأمير في الحديقة والآن...».

«لطالما نصحنا جلالته ألا يظهر نفسه للعامة أبداً. لكن كما تعلمين أيتها الملكة، إنه لا يصغي لنا أبداً. لطالما طلبنا منه أن يشبع حراسه كفايةً كي لا يتلفتوا حوله أو ينحنوا طلباً لقطعة نقود. لكن كما تعلمين أيتها الملكة، فهو لم يصغ لنا أبداً ولم يدفع لهم سوى أجور قليلة. لقد انحنى الحراس كي يجمعوا النقود ـ ومن لا يفعل هذا؟ في تلك اللحظة

بالذات أصيب جلالته بسهم، لو كان قلبي بيدي لجعلته درعا له كي لا يصاب قلب ملكنا العزيز بأي ضرر».

تعرّف الملك على صوت وزير الأمن والشرطة الذي كان قبل لحظة يضحك ملء شدقيه مع الآخرين. «منافق» فكر الملك.. كان هذا التعبير أكثر ما استطاع التفكير به.

قال الأمير أحمد: «وماذا عني؟ لكم تمنيت أن أتحدث إليه». أحسّ الملك بشيء غريب يميّز صوت ابنه المحبوب، لم تكن نبرة الحزن العميق فحسب ـ التي والحق يقال، كان الملك سعيداً لسماعها. لا، كان الصوت رقيقاً، لطيفاً بشكل غير اعتيادي، رقته أقلقت الملك بعض الشيء. انتحب الأمير قائلاً: لقد أحبني لشخص غير شخصي. كم من مرة حاولت إخباره الحقيقة. كم حاولت إخباره بأنني امرأة. امرأة! أصغى الملك إلى صوت الأمير وسمع صيحة روحه الجريحة. «امرأة!» سمع الملك ثانية صيحة الأمير. أراد الملك أن يصمّ أذنيه لكنه لم يستطع. «لقد كرهتموه جميعاً وخدمتموه بذل، لكنني أحببته. عشت ثلاثين عاماً لأجله فقط، ولثلاثين عاماً رغبت إخباره بأنني كنت أرمي نفسي تحت براثن الأسود بدافع حبي له، كي ألمح طيف ابتسامة على وجهه التعب. مرات ومرات اخترعت أبشع الكذبات لأصرف عني النساء الطيبات اللاتي قُدمن لي، لأختار زوجة منهن. مرات ومرات أملت ومن فرط حبي له أن يموت قبل أن يكتشف كذبة حياته، لكني عزمت هذا الصباح على إخباره حقيقتي. لطالما كرهت نفسي لأني أتمنى له الموت والآن وحين قررت القدوم لإخباره الحقيقة، وجدته ميتاً، وهو الآن غير قادر على سماعي» تابع أحمد نحيبه.

لكن الملك كان يسمع أحمد جيداً وشعر بألم عظيم لم يشعر مثله

طوال حياته. لم يكن قلقاً على العرش وليس بفعل الصدمة من بوح سر ابنته. لا، كان بفعل رغبته الشديدة أن يخبر ابنته بأنه سمع حديثها الآن وفهمها لكن شفاهه كانت قد ماتت أيضاً. كم كان ألمه عظيماً، بحيث ولّد قوة كافية لأن تبكي جثة، نعم يا أحبائي، دمعتان تدحرجتا من عينيه الميتتين ببطء على خديه.

هذه هي قصتي وأنا أدعو لكم بطول العمر».

«الله يطوّل عمرك» أجاب الحلاق، بدا شديد الشحوب فيما دفن علي وجهه بسرعة بين يديه.

انتحب الحداد قائلاً: «يا له من ملك مسكين بائس».

خطا سليم نحو صديقه، أمسكه من كتفيه وهزّ الرجل الضخم قليلاً لينتشله من جوّ الحكاية ويعيده ثانية إلى الغرفة الصغيرة في حارة العبّارة.

بعد قليل استعاد علي رباطة جأشه فهمس لسليم قائلاً: «أنا بخير الآن، أشكرك». ربت الوزير على ركبة علي، نظر إليه بحزن وقال بصوت بالكاد يُسمع: «وأنا أيضاً أخشى الموت».

«هل أضع ورقة الأس أمامك؟» مزح عصام مع الحداد الصامت لكن علي لم يجبه.

كان فارس أول من نهض عن كرسيه، صافح علي ممسكاً بيده إلى وقت أطول من المعتاد وقال مشجعاً الحداد العجوز: «أنت الأس غداً وسيّد الليلة الأخيرة»، دمدم علي وهو يسرع خارجاً من البيت: «غداً سنرى هذا».

لِمَ حزن سليم بعد ولادة قصة جميلة؟

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حين غادر الأصدقاء بيت سليم، لكن النعاس كان غافلاً عن عينيه. كان الحطب يطقطق بهدوء داخل المدفأة الصغيرة. بدأت حكاية فارس بحزن وانتهت بحزن أكبر ـ كم عانى الملك من عذاب في ساعاته الأخيرة على الأرض! ـ لكن وبقدر اهتمام سليم بالقصة إلا أن الوزير أفسد رونقها بسرده السيئ لها، إلى درجة عجز معها سليم عن تذكر لبّ الحكاية ـ بالرغم من امتلاكه لذاكرة جمل. تساءل سليم: «ترى هل سقطت غافياً على كرسيّ مثل موسى وعلي؟» لم يكن واثقاً من هذا.

من الواضح أن فارس اختار قصة صعبة جداً حيث لا يمكن للمرء سرد قصة عن شخص لا يصغي للآخرين، ويجعلها في المقابل ممتعة جداً. ومن جهة ثانية لا يصح أن يقلب الحكواتي القصة رأساً على عقب، وأن يحدث مستمعيه بفضائل الاستماع ويعدد خصائل مرهفي الحس والسمع، لكي ينبههم بطريقة غير مباشرة على مساوئ عدم الاستماع، فهذا وعظ لأغبياء لا يقبله ذو عقل. بالعكس يجب أن تكون القصة عديمة الرحمة تجاه من لا يريد السماع رغم امتلاكه مقدرة الاستماع. فكر سليم وفكر: كيف يمكن لقصة كهذه أن تُروى بِحِرَفية جيدة وبشكل آخر؟

كان يواصل النهوض وتزويد المدفأة بالحطب ليُبعد البرد القارس عن غرفته. تجولت أفكاره في عمق الزمن وفي متاهة الجزر الغريبة التي طالما روى عنها حكايات. هبّت ريح عاصفة فوق أسطح البيوت ووصل إلى مسامعه فجأة مواء قطتين شاردتين تتعاركان في الظلام. سقطت تنكة على الأرض فهربت القطتان مذعورتين فيما ردد الصدى صوت القعقعة لمرات عدة في أرض الديار الفسيحة. حلّ السكون ثانية وكأن الريح لم ترغب في تعكير صفو النائمين فتحولت إلى نسيم لطيف.

حملق سليم عينيه فجأة فقد تذكر القصة التي احتفظ بها منذ أكثر من خمسين عاماً، ولم يروها أبداً، وهكذا نامت في أعماق قلبه طوال هذه السنوات. خطرت في باله أول مرة في وادي القرن الكبير حين ضرب بسوطه في الهواء وسمع بعد فترة صداه يتردد في الوادي الضيق ـ وها هي القصة تداهم ذاكرته من جديد.

في يوم من الأيام ـ أصغى سليم لصوت ذاكرته ـ عاش ملك لا يحب الإصغاء لأحد فكلما دخل إليه أحد أتباعه ليحدثه بأمر ما، قاطعه بعد الجملة الأولى وصاح به: «كفى! لقد صدقتك! أيها الحراس، فلتعطوا هذا الرجل ألف ليرة ذهباً!» أو يصيح «كاف! أنا لا أصدقك، أيها الحراس، اجلدوه ثمانين جلدة وارموه بعيداً». اعتمدت أقواله على مزاجه، لم يحب الإصغاء أبداً، ولكونه كذلك لم يستطع أن يرسي العدل والرحمة بين أبناء شعبه. ذات يوم مثل مهرج القصر أمام الملك وبما أنه كان حسن المزاج حينها فقد سأله أن يحكي له حكاية.

جثا المهرج عند قدميّ الملك وتحدث قائلاً: «لقد حدثني أحدهم، أيها الملك العظيم، بأنه في غابر الأزمان وقبل أن تطأ قدما الإنسان سطح الأرض كان في بلاد الجنّ ـ فليحمنا الرب القدير من شرّهم ـ جني يعيش مع زوجته الجنية وهما يتنقلان من وادٍ لآخر، ويقطنان في المغاور والكهوف. وكان مشهوراً بصفة سيئة بين أبناء الجن: لم يكن يصغي لأحد، لكن زوجته كانت أشدهم معاناة لأن زوجها لم يكتف بعدم الإصغاء لها فحسب، بل كان يهزأ أيضاً من كل ما تقوله ويدعوه سخيفاً. كان يصمّ أذنيه عن كل ما يودّ قلبها إخباره به».

تشاجرت معه ذات يوم، وحين أخذت تدافع عن نفسها بدأ يضربها. لكن ما زاد الطين بلة، كما نقول، كان الأسوأ من الضرب حين أصرّ على أن يشرح لها بلطف ورقة عن منفعة الضرب لها. كانت كلماته تقطر عسلاً لكن عظام زوجته كانت تنبض ألماً، لذا لعنت زوجها من كل قلبها صائحة: «يجب أن تمتلك فمين بدلاً من فم واحد وأذناً واحدة بدلاً من أذنين لأنك أصلاً لا تحتاج حتى لأذن». وصادف مرور ملك الجنّ في تلك اللحظة عبر الوادي وسمع لعناتها فشعر بالأسف عليها وبما أن تقارير سيئة عن ذاك الجني قد وصلت إليه سلفاً، لذا قرر أن يحوّل كلمات الجنيّة إلى واقع حيّ. غطّ زوج الجنية، الجني الظالم، في نوم قيلولة عميق وحين أفاق اكتشف أنه أصبح لديه بدل الشفتين فمان ـ أحدهما فوق الآخر وأذن صغيرة جداً في أعلى جبهته لا يتجاوز حجمها حبّة حمّص، فيما سقطت أذناه القديمتان على وسادته مثل ورقتي خريف مرتعشتين.

في البداية غمر الفرح قلب الجنّي فسقط على قدميه شاكراً ربه على

هذه النعمة. صار بوسعه التحدث بشكل أسرع وأعلى من السابق. لم يتوقف عن الحديث من الآن فصاعداً، حتى أثناء الأكل، ففم للأكل والشرب وآخر للكلام.

لم يفهم باقي الجنّ هذا العقاب فالجنّي أصبح يقاطعهم أكثر من قبل، ويقوم بسؤالهم سؤالاً آخر أثناء إجابتهم على السؤال الأول. فيما شارفت زوجته المسكينة حدّ اليأس، فقد أنهكها في النهار بسيل كلماته الذي كاد يغرقها، وطرد النوم من عينيها في الليل لأنه صار يشخر بفمين بدل الفم الواحد.

بدأ أصدقاؤه الجنّ يتجنبونه وكأنه وباء ولم يعد حديثه يلقى أي اهتمام من قبل أحد، حتى زوجته لم تعد تحتمل سماع كلماته. الكلمات أيها الملك، ورود سحرية رقيقة لا تتفتح إلا في أذن المتلقي، وكلمات الجني، على أية حال لم تلقَ أية آذان صاغية، كانت تذبل في اللحظة ذاتها التي تغادر فيها شفاهه.

سرعان ما أحسّ الجنّي بالبؤس بفعل كلماته الميتة: شيئاً فشيئاً تزايد عدد الكلمات الميتة والتصقت ببعضها لتشكل جداراً لا تراه العين، لكنه أصلب من الحجر فصله عن أصدقائه وأعدائه معاً. شعر الجني بعزلة مريرة، وقادته وحدته آخر الأمر لاكتشاف مدى غبائه، فبدأ من حينها يعاقب نفسه تكفيراً عن ذنبه. أقفل شفاهه الأربع ولزم الصمت كليةً، وأخذ يصغي بأذنه المتناهية الصغر أكثر مما كان يفعل بأذنيه الضخمتين. بدأ من أعماق قلبه يتوسل إلى ملك الجنّ أن يهبه أذناً أخرى ليتمكن من الإصغاء بشكل أفضل، فقد إكتشف الآن لذة السماع. ظلّ يتوسل لسنوات طوال حتى شعرت زوجته بالأسف والشفقة عليه، ونسي جيرانه

الذين قطنوا في المغاور المجاورة والينابيع وفوهات البراكين غضبهم وتوسلوا ملك الجنّ أن يسامح الجنيّ التعس. لكن ملك الجنّ أبقاه في شقائه لسنوات متجاهلاً تضرعاتهم بهذا الشأن. استمر الحال حتى مرور ألف سنة وسنة حتى رق قلب ملك الجان وسمح للجني التعس بالمثول بين يديه. سأله بسخط عارم: «هل أنت نادم على خطيئتك الكبرى بعدم سماع الآخرين؟».

أحنى الجني رأسه إيجاباً.

«وهل أنت مستعد لفعل كل ما يطلب منك لاستعادة أذنيك؟».

كان الجني مستعداً لتقديم أية تضحية تطلب منه.

«إذاً منذ هذا اليوم سوف تتلقى أذناً بدلاً من فمك الثاني، لكن بشرط أن تظل حتى آخر الزمان تردد كل كلمة وكل جملة يقولها الجنّ أو الحيوانات أو البشر. الويل لك إن تجاهلت أي صوت حتّى سقسقة زيز الحصاد».

«أمرك على رأسي، يا سيد روحي، وليشهد على كلامي القمر والشمس بأنني سأنفذ شرطك حتى آخر يوم في عمري. أرجوك تتكرّم عليّ بالأذن الثانية» قال الجني بتأثر شديد. بدأ قسمه بفمين وانتهى بفم واحد.

وحتى اليوم يتجول الجني من واد إلى آخر وهو يقطن في المغارات والكهوف ومنذ ذاك الوقت وهو يردد كل كلمة وجملة يقولها الجنّ والحيوانات والبشر. ولا تفلت من أذنيه أية ضجة ولا حتى وقع الحصى المتدحرج.

أنهى المهرج قصته وهو غارق في أفكاره.

سأل الملك: «وما اسم هذا الجني المسكين؟».

«الصدى» أجاب المهرج.

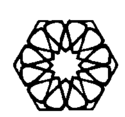
كان الصباح يشقشق حين أنهى سليم تذكر قصته. كان من قبل يشعر بالارتياح ما أن ينهي سرد حكاياته لكن الغمّ يثقل الآن على قلبه. لمَ يشعر بكل هذا الحزن؟ اعتقد في البداية أن السبب كون القصة قد خُزنت في ذاكرته مجرّدة وخالية من أية زخرفة أو زينة، لكن لا، لم يكن هذا هو السبب لأنه يخزن كل قصصه على الشاكلة ذاتها ثمّ يقوم أثناء سردها بتطوير أفكاره وإلباس قصصه العارية بالثوب والعطر والمشية المناسبة. الحكواتية السيئون هم وحدهم من يسردون الحكاية بتفاصيلها الرتيبة التي يحفظونها كلمة فكلمة بصماً عن ظهر القلب. لا، ما كان يغلي في صدره هو عدم وجود من يصغي إليه. كان سليم يدرك في ذهنه طبعاً أن الحكاية تحتاج إلى شخصين على الأقل كي تحيا لكن هذا الشعور لم يغزُ قلبه سوى الآن.

ألقى بعض الحطب في المدفأة وجلس مقابلها على كرسي كبير لينعم بالدفء. تراقصت ألسنة اللهب بسعادة حول الحطب، التفت برقة حول جسده الغليظ بأنوثة وكأنها ترغب في عناقه. للحظة بدا الحطب قاسي القلب وبارد المشاعر متجاهلاً إغراء اللهب، لكن النار ظلّت تمسّد جسده بعذوبة وتدغدغ روحه بإحساس شاعري دافئ. تجاهلت بعض شظايا وحواف الخشب القاسية إنذارات الجسد وتراجعت عن موقفها العنيد لتعانق النار أخيراً. طقطق الخشب معبراً عن استيائه لكنه سرعان ما تخلى عن أية مقاومة وأخذ يرقص ويغني وسط شعلة نار

متأججة. بعد قليل ذاب كل من الخشب والنار في جذوة ألق هامسة ترتاح على وسادة وثيرة من الرماد.

كان الوقت ظهراً حين أفاق سليم، نهض بسرعة ورفع الغطاء عن قفص الطائر. وثب الحسّون مبتهجاً بالضوء. ارتشف بضع قطرات من الماء ثمّ غرد عالياً.

دُهش سليم حين انتبه أنه أمضى الليل بطوله غافياً على الكرسي مقابل المدفأة ولم يستطع تذكر إن كان فعلاً قد استرجع قصة الصدى أو أنها كانت حلماً لا أكثر.



المفتاح السابع للسان العربجي
أو كيف فكّت ليلى
سحر حجابين
وأطلقت عنان الرفاق السبعة للغناء؟

أقبل تشرين الأول بألوانه الزاهية ـ ألوان مشرقة نسي الناس معها أنه نذير الشتاء. تدبّر تشرين أمره بارتدائه ثوباً فتاناً لينسل خلسة راحلاً إلى موطنه، واستمر الحال على هذا المنوال حتى قدوم تشرين الثاني الذي أوصل الرسالة الحزينة إلى سكان دمشق، حيث حلّ البرد وزخّ المطر المتواصل لتسعة أيام متتالية. وفيما غمر الفرح الفلاحين بهطول المطر مدراراً فوق حقولهم العطشة، أخذ الدمشقيون بالأنين والتأوه لقصر النهار ورطوبة الجو، لكن صباح العاشر من شهر تشرين الثاني أطلّ مشمساً ودافئاً وكأنه يوم صيفي تلكأ في مسيرته.

لكل يوم، كما يقول الناس، روحه وشخصيته الخاصة: يوم جيد، سيئ، ممل أو ممتع ـ بعضها يحب معشر أترابه وبعضها ينشد وحدته، مثل البشر تماماً، فيما تفضّل بعض الأيام الوحدة وتتحاشى صحبة الملتزمين لتهرب مبتعدة. ولكن من يسعه معرفة حقيقة ما يجري ليوم صيفي يقرر أن يغادر تموز ليقفز فجأة إلى وسط تشرين الثاني، هكذا ومن دون إنذار مسبق؟ فبين تشرين وتشرين صيف ثان. . .

كانت الشمس تشّع في هذا اليوم فوق المدينة العتيقة، والدمشقيون ـ إن لم يكونوا في دكاكينهم ومكاتبهم يتذمرون من اضطرارهم للعمل في يوم كهذا ـ فإنهم يتوجهون خارجاً ليتأملوا السماء أو يجلسوا في أرض ديارهم يحتسون القهوة ويثرثرون عن التزاماتهم المالية، أحوال الطقس ومزاريبهم المكسورة. عند العصر تماماً يُبعث الشارع للحياة ثانية، حيث يطلق الصغار طاقاتهم الحبيسة في طقس شتوي بارد ـ ولهذا السبب يتحطم في يوم كهذا العديد من النوافذ.

لم يكن عصر ذاك اليوم استثنائياً فقد اخترقت كرة شاردة زجاج نافذة وكسرتها في بيت خليل، ساعي البريد. كان يمكن للنافذة المكسورة نفسها في عزّ الصيف أن تجعل زوجة خليل تلعن أسلاف الفاعل حتى سابع جدّ، لكن كل ما فعلته الآن أن نادت على ابنها ذي الخامسة عشرة من عمره، ناولته بعض الفرنكات لتصليح النافذة طالبة منه عدم التمهل. ثم عاودت جلوسها تحت شجرة الليمون الكبيرة متابعة شرب القهوة والثرثرة من دون أي أثر للغضب. في الحقيقة كان قد مضى نصف ساعة وهي تضحك ملء قلبها حين أفشى أحد الأولاد باسم الفاعل. كانت أم الولد تشاركها الجلسة أيضاً تحت شجرة الليمون وبدلاً من إنكار ذنب ابنها أو أن تستهين بالنافذة المكسورة فقد اعتذرت عن سلوكه الطائش ـ وهذا نادراً ما تقوم به أم دمشقية ـ في حين ردت عليها زوجة خليل بكلمات في منتهى العذوبة.

استمر الطقس الجميل حتى وقت متأخر من عصر ذاك اليوم، حين احتشدت الغيوم لتطرد بعيداً اليوم الهارب من الصيف ـ حيث كان

واضحاً عدم ميلها للغرباء. قاوم اليوم الصيفي بيأس في حين أخذ الظلام ينشر سدوله رويداً رويداً فوق صدر المدينة.

كان سليم ورفاقه ينتظرون الحداد بفارغ الصبر. بدأ الظلام يحلّ ومع هذا لم يبدُ أي أثر لعلي. ما أن تناهى إلى مسمع الرجال صوت ساعة كنيسة دير اللاتين معلنة الثامنة حتى شعر كل من في الغرفة بأن الهواء يكاد ينفد. احتج الوزير قائلاً: «أين هذا الرجل؟ لم يتبق إلا أربع ساعات حتى منتصف ليل اليوم الأخير!». لم ينه الوزير جملته بعد حتى دخل الحداد الغرفة ـ برفقة فاطمة، زوجته البدينة.

«مساء الخير» حيّت فاطمة الرجال الذين تجمدوا من فرط دهشتهم، ثم نكزت الحلاق من خاصرته، وبعد أن أفسح الرجل المرتبك مكاناً لها إلى جواره، جلست فاطمة قرب العربجي العجوز وكأنها تلتمس حمايته.

ردّ الرجال التحية كما يقتضي الواجب، لكن الانزعاج كان ينز من كل مسامات وجوههم، إنها المرة الأولى منذ أكثر من عشر سنوات التي تشاركهم امرأة إحدى جلساتهم الحميمة.

قال الحداد شارحاً الوضع لأصدقائه المشدوهين: «أنا لم أسرد في حياتي كلها قصة، وصديقي سليم يعرف هذا أكثر من الجميع. أحببت التحدث حين كنت طفلاً صغيراً ورغبت دوماً بسرد القصص لكن والدي حذرني قائلاً: «إمسك لسانك يا صبي، وإلا سيفضحك. مع كل كلمة تتفوه بها تتعرى روحك أمام الآخرين، وشيئاً فشيئاً تصبح أكثر عرضة للأذى. وكان يعيد عليَّ المثل الدمشقي حتى حفظته عن ظهر قلب: جارك صبحه ومسيه ويللي ببالك خبيه» اعتادت أمي، يرحمها الله،

القول دائماً: «تذكر يا ولدي، إن اضطررت للتحدث ألا تلجأ للكذب فمع كل كذبة تحيكها يكبر الغطاء الذي تحتمي به ويزداد سمكه إلى أن ينتهي بك الأمر إلى الاختناق تحته». حسناً، وبما أنني لا أرغب بالاختناق أو بالتعرض للأذى فقد قررت بكل بساطة عدم التحدث مع الناس كثيراً، ولا أظن أنني اخترت عملي كحداد بالمصادفة، فالحدادون لا يميلون للكلام كثيراً لأن ضجيج مطارقنا يكون قوياً لدرجة نضطر معها إلى الصراخ ليسمعنا الآخرون ولهذا السبب نحن لا نقول إلا كل ضروري.

حسناً، لم أتمكن من النوم البارحة، سيبدو الأمر فظيعاً إن تركت سليماً، صديقي الطيب، يعاني الهزيمة بسببي ويفقد صوته إلى الأبد. أنهكت ذاكرتي وأنا أنقب فيها ولم أتمكن مع هذا من العثور على قصة واحدة. وحين عرفت زوجتي ـ صباح اليوم ـ سبب ضيقي أخبرتني بأنها ستُسعد بإخبار سليم واحدة من قصصها».

اعترض الوزير قائلاً: «لا أعلم إن كانت الجنية ستوافق على هذا، ألم تقل بأن الهدايا يجب أن تُقدم من قبلنا نحن، أصدقاؤه؟». نظر ناحية سليم متوسلاً هزة رأس بالموافقة لتؤكد كلامه، لكن العربجي العجوز هزّ رأسه نافياً الأمر تماماً. قطّب فارس جبينه خائباً واتكأ على كرسيه إلى الخلف.

أدار الحلاق عينيه فيما تمتم المعلم مدمدماً وحدق القهوجي بباب الغرفة المغلق وكأنه ينتظر العون والخلاص من هناك، وحدهما عصام وتوما المغترب ابتسما فعلياً للمرأة.

قالت فاطمة حانقة: «لقد أتيت لزيارة سليم وأنا في ضيافته ـ أنا لا أقف أمام قوس محكمتك، يا فارس باشا، كي تحكم على زيارتي».

استقام الوزير في كرسيه قائلاً لعلي: «قل لزوجتك أن تنتبه لكلامها أكثر!».

أرعد علي بصوت غاضب كالزئير: «وهل هذا قول رجل متعلم، أنا لا أهتم فيمَ إن كنت وزيراً أو صبي بويجي، إياك أن تأمرني ثانية بما يتوجب عليّ قوله لزوجتي».

أيدّ توما، المغترب، موقف علي فقال: «أنتَ قرعت على بابها ومن يدق الباب يسمع الجواب».

استدار موسى ناحية المغترب قائلاً بنزق: «إن كنتَ ذكياً إلى هذه الدرجة فلتخبرني لأني الآن أدق على بابك، لمَ سُمح لفاطمة وحدها أن تنضم لجلساتنا؟ لمَ لم تستطع زوجتي....؟».

أنّبَ عصام الحلاق قائلاً: «اهدأ يا ولد، ومن قال لك إنه لا يمكنها القدوم؟ من؟».

دخل الرجال الآن في شجار مرير، لم يفهم يونس أيضاً لِمَ سُمح لزوجة علي بالقدوم، وصاغ اعتراضه بذكاء بدا معه وجه موسى مهاناً أكثر. سرعان ما طفت الخلافات القديمة على السطح ولم يعد حضور فاطمة مهماً على الإطلاق، ما أصبح مهماً هو سبب مدح الحلاق للرئيس عبدالناصر بكونه منقذ سورية بالرغم من أن اثنين من أولاد أخ القهوجي بالإضافة إلى معلمة مدرسة تكن حباً عميقاً لأحفاد الحداد قد زجوا في السجن بلا سبب أو ذنب يذكر.

لم تعر فاطمة جدالهم أي اهتمام، أخرجت من جيب فستانها علبة التنباك وأخذت تلفّ بعناية سيجارة رفيعة.

فجأة تذكرت أمها، أرملة تدعى ليلى، عاشت طوال حياتها معروفة

ومهابة. تناقل الناس أكثر القصص إدهاشاً عن يديها العجائبيتين اللتين ولّدتا الكثير من أولاد الحيّ وأخرجتهم من بطون أمهاتهم إلى هذا العالم. لكن القصص التي أشيعت عن حكاياتها السحرية كانت أكثر غرابة.

لم يجرؤ أحد على معاداتها، لأن ليلى كانت لا تفسر الأحلام والأبراج الفلكية فقط بل لأنها كانت ماهرة جداً في تركيب السموم. فإذا كانت أصولها غامضة وغريبة فلقد أصبح اختفاؤها المفاجئ أكثر غموضاً، حيث لم تقع عليها عين شخص منذ زفاف ابنتها فاطمة ـ اختفت فجأة وكأنها تبخرت في الهواء. وحدها فاطمة علمت بأمر أمها لكنها حافظت على هذه المعرفة وكأنها سر أسرارها.

«ابنتي» قالت المرأة الحكيمة حين افترقتا «عليكِ أن تعلمي أني ما كنت في عمري ولا أنا اليوم واحدة منكم. لقد احتملت العيش في دمشق لثمانية عشر عاماً حتى أصبحتِ شابة ووجدت شريكاً مناسباً ـ وعلي طيب القلب. تمتعي بالحياة معه لكن إياكِ أن تنسي أن تحكي له قصة المرأة الذكية، وكيف تحايلت على زوجها ثقيل السمع حتى صار يصغي بكل رهافة حس وسمع لكل ما ترويه له، إحكي له هذه القصة وكل قصصك الآن وهو لا يزال يعشقك لأن الرجال يا حبيبتي يعون الأشياء أفضل حين يغرمون بالمرأة». رحلت والدة فاطمة مبتعدة، متجاهلة كل توسلات ابنتها للبقاء ولو لساعة، حتى يعود علي من الجامع لتودعه. «ولمَ أودعه؟» سألت الأم مستغربة، «أنا أتركك هنا عنده، وأنت قطعة من روحي» ثمّ قبّلت ابنتها وغادرت.

لكن فاطمة لم تتمكن من إخبار علي بأية قصة ـ ليس في ليلتهما

الأولى ولا بعد عدة أيام ولا حتى في الأيام والسنين التالية. كان علي غير قادر على الإصغاء كثيراً وكأنه ثقيل السمع واللسان، ولذلك كان نادراً ما يتكلم، حتى في ليلة الدخلة. كانت تشعر بمدى حبه وتوقه لها لكنه لم يبح بهذا أبداً. كان بشكل عام يتحدث بما هو ضروري وبكل هدوء وإيجاز.

نظرت فاطمة إلى الرجال النكدين وهم ينهشون بعضهم بعضاً. يا لهذه الجلبة التي قام بها هؤلاء الشيوخ المسنون، أجداد لكتيبة من الأولاد والبنات والأحفاد ويتصرفون كالأطفال، يتشاجرون لأنها رغبت بسرد قصة لا أكثر! وعَلِيُها؟ هل هو أفضل من الآخرين؟ لن تنسى تلك النظرة الدهشة التي اكتسحت وجهه حين أخبرته صباحاً بأنه ليس في وسعها سرد قصة واحدة فحسب بل خمسين قصة لسليم! سألها وكأنه لم يعش عمراً معها، بل وكأنه قدم لتوه من المريخ: «وهل يمكنكِ سردها بشكل جيد؟ لمَ لا تروينها لي أولاً لأرى إن كانت جديرة بأن يسمعها أصدقائي»، هذا ما قاله فعلاً: «جديرة!» هذا الرجل الذي لا يملك أدنى فكرة عن سرد الحكايات ولا حكى حكاية واحدة في حياته، يتصرف وكأنه سيّد الحكواتية ويريد أن يمتحنها، هي.. ابنة ليلى.

لكن لماذا ملّت من الحكي مع علي؟ لماذا تراجعت همتها من سنة لسنة وفضلت ألا تحكي له أية قصة؟ بالرغم من أن كل ولادة جديدة كانت تصحب معها حياة جديدة إلى المنزل، لكن بدلاً من التحدث أكثر مع بعضهما البعض فقد قلّ حديث علي وفاطمة تدريجياً. أبلغتها أختها، رحيمة، الشيء ذاته، بالرغم من أن زوجها كان نقيض علي، من الصنف المتحدث حتى الثرثرة. لمَ يقلّ حديث الأزواج مع بعضهم ولا

يزداد على مرّ السنين؟ فكرت فاطمة بالأمر ثم تذكرت كلمات والدتها قبل خمسين سنة: «هذا هو السبب»، همست فاطمة الآن بينها وبين نفسها «يقلّ حديث الأزواج مع بعضهم البعض لأن عشقهما يتحول إلى حب هادئ. العشق كالسفينة في بحر هائج وهذا يدفع ركابها للحديث مع بعض لينسوا خوفهم وطرقات قلبهم، يحكون قصصاً ليقولوا للآخر إنهم قريبون منه، بينما الحب زورق في مياه هادئة، قد تكون عميقة ومليئة بالأخطار لكن ركاب الزورق يغطون في نوم عميق ولا يشعرون بحاجة للكلام».

في الحقيقة ما أن مضت سنين قليلة على زواجهما حتى أخذت فاطمة تتلعثم بحديثها مع علي حين يدخل البيت عائداً من عمله - مع أنها كانت إلى لحظات تتحدث بشكل سهل وبسيولة لذيذة مع الأطفال والجيران. كانت تخشى دوماً من أن يجد قصصها سخيفة، لأن وجهه كان جاداً دوماً، لكن الأمر مختلف مع سليم لم تكن تتلعثم أثناء زياراته لهما، لطالما علمت أنه يحب قصصها. وكأن أذنيه تملكان مغنطيساً يجذب الكلمات من لسانها إليه.

قاطع سليم أفكارها ليناولها كوب الشاي بالنعناع، نظرت إليه، تناولت الكوب وتابعت الشجار الحاصل بلا مبالاة واضحة. كانت أوجه الرجال العجزة كالحة ونكدة.

قالت فاطمة في لحظة سكون جمع الشيوخ المسنون فيها نفسهم: «سوف أشرب كوب الشاي وأغادر، يجب أن تعذروا قولي عن أن استقبالكم السيئ لي غير جدير بقصتي على الإطلاق. لا يمكن للمرء سرد قصة لأناس وجوهها مقلوبة مثلكم». أغمضت فاطمة عينيها

وتابعت كلماتها بمنتهى الهدوء: «أقسم بروح أمي، إن لم ترجوني حالاً وتتوسلوا إليَّ لأروي لكم القصة فسوف أغادر فوراً».

ارتعش علي، لم يسمع من قبل فاطمة تتكلم بهذه النبرة القاسية. من ناحيته ابتسم سليم وكأن كلمات فاطمة كانت باقة من ألف وردة ووردة. وقف وقبّلها على جبينها. كانت هذه المرة الأولى التي يقبلها فيها العربجي منذ أكثر من خمسين عاماً من الصداقة، توهجت وجنتاه حين قال عصام: «آه لو كنت مكان سليم! ولو ترضى فاطمة أن أطبع على جبينها هكذا قبلة لكنت مستعداً أن أقضي سنة بطولها من دون التفوه بكلمة واحدة».

ابتسم علي متنفساً الصعداء.

«حسناً. . . . إن كان هذا في مصلحة سليم فليس لديّ شيء ضده» قالها الوزير، رئيس جبهة المعارضة غير المنتخب، آخر الأمر مبتسماً وحذا المعلم والحلاق وأخيراً يونس حذوه.

جأر عصام: «حسناً فلنبدأ الآن».

أضاف توما: «الله يلعن الشجار في قبره، لقد شارفت الساعة التاسعة والنصف».

رغبت فاطمة أن تتمتع بنصرها أخيراً، واحتست في اللحظات التالية كوب الشاي مستمتعة بالسكينة والسلام.

توسل الحلاق قائلاً: «أرجوكِ، إروي لنا القصة».

«سأخبركم قصة جميلة عن الساحرات المصريات» قالت وقد ارتسمت ابتسامة خجولة على وجهها.

أنّ المعلم بنزق: «أظن أن الأمر عائد لنا لتقرير فيمَ إن كانت قصة جميلة أو لا».

صاح عصام بالمعلم: «أعرنا سكوتك يا أخي».

«سأروي الحكاية على أمل شفائك يا سليم، وعلى أمل أن تبث فيك الفرح. وليمنح الرب الحياة السعيدة والمديدة.. لكل من يصغي جيداً»، تابعت فاطمة: «عاشت قبل عصور ودهور طويلة ساحرة ذكية تدعى أنوم، سكنت أرض مصر القديمة قبل صنع المومياء الأولى وبناء الأهرامات. كانت المرأة الأولى التي سُمح لها بالدراسة مع الطبيب والساحر ومهندس الأهرامات والعلامة العظيم أمنحوتيب، حيث تعلمت الخيمياء، تخمير الجعة وصنع الورق. وما أن استلقى الكاهن على فراش الموت حتى سمّى أنوم خليفة له لأنه ـ وكما شرح للكهنة المتجمعين حوله ـ وحدها القادرة على النجاح في إيجاد حجر الفلاسفة ..».

قاطعها الوزير قائلاً: «أعرف هذه القصة، في البداية رفض فرعون لكنه أوكل لأنوم سبع مهمات صعبة ونفذتها كلها، صحيح؟».

«أجل» أجابت فاطمة.

استفسر عصام: «وهل وجدت حجر الفلسفة؟».

أجاب الوزير: «أجل، لقد وجدته وكل من يلعق ذرة من غباره يصبح عبقرياً، صحيح؟ لقد بنيت الأهرامات من قبل معماريين ابتلعوا جزءاً منه، في منتهى الصغر ليس أكبر من حبة عدس. وقد اعتاد النحل أن ينثر العسل في كل مكان قبل أن يقوم المصريون بتعليمه كيفية استخدام شمع العسل في بناء الخلايا المسدسة و...».

هزّ سليم رأسه غاضباً وحدّق بالوزير. تلعثم الوزير واستدار نحو فاطمة قائلاً: «آه، أرجو منكِ المعذرة! لقد قاطعتكِ!».

أجابت فاطمة: «لا يهم»، لكن العربجي العجوز أحس بطعم المرارة في صوتها، «لربما تعرف سيادتك هذه الحكاية والمئات غيرها ولكن لا أحد على وجه الأرض يعرف القصة التالية ولا حتى زوجي علي نفسه. لذا، إما أن تصغوا إليّ أو تدعوني أغادر فوراً!».

صاح الحلاق: «من أجل الربّ، ابدئي، ابدئي، أرجوكِ فاطمة، ابدئي!».

«في يوم من الأيام عاشت امرأة شابة تدعى ليلى، لم تكن بالمرأة الجميلة أو القبيحة لكن لسانها كان مباركاً مثل لسان عزيزنا سليم والذي نرجو أن يعود طلقاً من جديد.

على أية حال، فقدت ليلى والديها في سن مبكرة وعاشت في بيت جديها في قرية جبلية في شمال اليمن. ومع كونها بنتاً صغيرة، أحبت ليلى سماع القصص فكانت تحفظ للأبد كل ما تسمعه للمرة الأولى. لا شيء في العالم يمكن أن ينسيها قصة سمعتها. حسناً، فيما كانت الصبايا يتجملن كل يوم ويتمشين نحو النبع للقاء شباب القرية، كان اهتمام ليلى الوحيد هو قصصها. كانت خرافة صغيرة بالنسبة لها أكثر جاذبية من أقوى وأجمل رجل في القرية، ولم يتمكن أكثر الرجال وسامة من أن يمتلك قلبها كما امتلكته نوادر القصص. لم توفر ليلى جهداً في سماع قصة جديدة حتى ولو اقتضى الأمر قطع الجبال الخطرة واجتياز المنحدرات الوعرة.

مرت السنون، على أية حال، وأصبحت ليلى من أشهر رواة القصص في طول البلاد وعرضها. لم تكن في تلك الأمسيات حين

تروي حكاياتها لتسحر مستمعيها فحسب بل كانت أيضاً تُسحِر نفسها بجمال كلماتها. كانت تخاطب النجوم والحيوانات والنباتات وكأنها الساحرة أو الجنية التي وصفتها في قصصها. تناقل الناس فيما بينهم بأن لكلماتها قوة عجائبية خارقة وأنها في يوم من الأيام تحدثت مطولاً مع جذع شجرة عفن وصفت له جمال الربيع الآخاذ إلى أن بدأت براعم خضراء بالبزوغ من الجذع. لكن ليلى لم تروي قصصها للناس والحيوانات والنباتات فقط، بل باحت بها كذلك للرياح والغيوم. حدث ذات سنة أن القحط والجفاف كان قاسياً بشكل يبس معه الزرع وجف الضرع ـ أخذ الفلاحون يصلون ويصلون، عدا ليلى التي تسلقت أعلى قمة جبل وانتظرت إلى أن لمحت غيمة صغيرة تقطع السماء بسرعة وكأن ذعراً أصابها لمنظر الأرض اليابسة. حينها بدأت ليلى تحكي قصة للغيمة التي لبثت في مكانها، فوق رأس ليلى، ساكنة لتصغي لها. انضمت باقي الغيوم تباعاً إليها وسرعان ما احتشدت كلها في صفحة السماء. كلما ازداد تشويق القصة كلما تكاثفت الغيوم أكثر وأكثر وكلما دكن لونها وما أن وصلت القصة إلى أكثر لحظاتها إثارة حتى توقفت ليلى عن السرد، استدارت نحو الغيوم وصاحت عالياً: «إن رغبتِ بسماع بقية القصة عليكِ أن تنزلي إلى هنا!» أبرقت الغيوم وأرعدت غضباً ثمّ هطلت مدراراً مثل حمّام ماء مفاجئ كي تقترب من ليلى لا غير».

توقفت فاطمة وأنهت سيجارتها: «حسناً، في يوم صيفي قائظ هطلت السماء بغزارة شديدة أرعبت الناس. اخضلت الأرض بالماء واختبأت طيور السنونو في أعشاشها بين الصخور العالية. في عصر ذلك اليوم أخذت الكلاب تنبح بشكل غريب وحين غربت الشمس سمع الفلاحون صيحات تنشد المساعدة وأصوات صراخ قادمة من كهف

عميق ليس بالبعيد عن القرية. اقترب قلة من الرجال والنساء الشجعان من الكهف لكنهم كانوا يرتجفون خوفاً عند كل صيحة.

قال شيخ القرية: «لا بد وأنه وحش جريح».

تساءل رجل عجوز: «وحش؟ لِمَ يطلب المساعدة بلغة الإنسان إذناً؟».

شرحت قابلة الأمر: «لربما كانت صيحات الناس الذين يلتهمهم هذا الوحش».

«أو لربما يحاول الوحش أن يغرينا بالدخول إليه، أخبرني والدي أن التماسيح تختبئ في نهر النيل بين الأعشاب النهرية الطويلة وتأخذ بالبكاء عالياً كالطفل الصغير إلى أن تأتي إحدى الأمهات اللواتي تغسلن عند النهر وتسمع صيحات الاستغاثة، ظانة أن طفلاً قد وقع في الماء. وهذا ما يكون التمساح بانتظاره....».

أكّد على كلامه صانع أحذية: «أخبرني جدي بأن الضباع تضحك أحياناً بخبث وكأنها جوقة من البنات المرحات...».

قاطعه أحد الفرسان: «سواء تظاهرت التماسيح بالبكاء واصطنعت الضباع الضحك لكن الرجل اليمنيّ الأصيل يبقى دوماً جاهزاً للتضحية بنفسه لإغاثة المنكوبين»، قال ذلك، أمسك برمحه وأسرع إلى داخل الكهف الصخري.

لم يرجع الرجل، سمع الناس صيحة عظيمة فارتعدوا ولاذوا بالفرار.

كان الهدوء يعمّ الكهف خلال النهار، لكن ليلة بعد ليلة واصل الفلاحون سماع صيحات الألم وهي تطلب الرحمة. لم يعد الكبار يجرؤون على الاقتراب من المغارة لكن الفضول قاد الأطفال إلى هناك.

اختفى طفلان في الأسبوع الأول، فتاة وصبي، اقتنع الفلاحون أن الوحش أغراهما بالدخول إلى عرينه ثم ابتلعهما. اختفى العديد من الأطفال، وبالرغم من أن أعين الفلاحين لم تقع على المخلوق أبداً، لكنهم وصفوا في أحاديثهم كل ناب في فمه وكل قرن من قرونه ومخلب من مخالبه. بعد مضي شهر لم يعد أحد يجرؤ على التفوه بكلمة «وحش»، أخذوا يشيرون إليه على أنه (الشيء الذي في المغارة)».

توقفت فاطمة، أخرجت علبة التنباك وبدأت تلفّ من جديد سيجارة رفيعة أخرى.

قال عصام الذي لم يتحمل الصمت: «إنه يشبه تماماً ما يحدث عندنا اليوم، نحن نقول حين يُعتقل أحد ما، لقد أُخذ إلى بيت خالته وطبعاً نحن نسمي رئيس الوزراء: «عبدو أكال الجاج».

قال علي: «اعتقدت أن اسمه عبدو شفاط العملة».

اعترض فارس ضاحكاً: «لا، هذه قديمة، يلقبه ابني اليوم بالسيد عبدو كبد الوزة لأن باتيه باريس الشهيرة هي طعامه المفضل».

قال عصام ثانية: «أحب هكذا تسميات لأنها تقول باختصار كل شيء ـ وكذلك يلقب وزير الداخلية «بالطبل» لأنه فارغ وقعقاع مثله».

«على أية حال»، عاودت فاطمة حديثها بعد أن أخذت نفساً من سيجارتها، «كلما ذكر أحد ما (الشيء الذي في المغارة) تعوذ الفلاحون من الشيطان الرجيم، ليحموا أنفسهم من شره».

ذات يوم أفاقت ليلى بعد حلم غريب، ارتدت ثيابها، ودعت جديها بهذه الكلمات: «أنا ماضية إلى حيث دعاني حلمي. لقد رأيت في

الحلم الأطفال الثلاثين الذين اختفوا. كانوا يضحكون عند مدخل المغارة وحان الوقت كي تستعيد القرية ضحكاتهم. أرجوكما لا تبكيا، إن أحلامي لا تودي بي إلى التهلكة».

صاح الجدّان بنفس واحد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!».

قالت ليلى: «أرجوكما، أريد أن أرحل ولا تخافا عليّ فإن الآلاف والآلاف من القصص التي أحملها في قلبي سوف تحميني»، أسرعت خارجة، ودعها القرويون في ساحة البلد مشفقين عليها وبعضهم همس: «جنت البنت»، ولم يتبعها إلى مدخل المغارة سوى ثلة من الأطفال. عند باب المغارة ودعتهم ليلى بنظرة أخيرة، لوحت لهم ثم خطت إلى الداخل.

«ليلى دخلت المغارة! ليلى دخلت المغارة!» ترددت صيحات الأطفال في أرجاء الدروب. انتقلت الأخبار الحزينة من بيت إلى آخر وقبل مغيب الشمس كانت قد وصلت إلى أبعد ركن في القرية. حين حلّ الظلام سمع أهل القرية صيحات الاستغاثة وادّعى البعض سماع صوت ليلى. زار الجيران جدّي ليلى وعبروا بحزن عن تعاطفهم معهما فيما تهامس أكثر من شخص بأن شكوكهم القديمة أكدت جنون الفتاة المسكينة.

في تلك الأثناء، شاهدت ليلى نوراً باهتاً ينبعث من أعماق المغارة. مشت ببطء باتجاهه متعجبة من التماثيل الحجرية المكوّمة عند المدخل. ما من يد بشرية ولا حتى مطرقة الزمن ذاتها يمكن أن تنحت أشخاصاً بهذه الدقة والواقعية كتلك التماثيل المجمّدة. لم تكن عروة زر أو شعرة رأس ولا حبّة عرق واحدة نسيتها يد نحات هذه التماثيل الحجرية التي كانت كلها تمثل أشخاصاً مذعورين يصارعون جاهدين للخروج من المغارة.

خيّم السكون داخل المغارة إلى درجة سمعت معها ليلى دقات قلبها. وصلت بعد قليل إلى فسحة كبيرة حيث وجدت هناك أيضاً تماثيل حجر في كل الأرجاء وكلها كانت كتلك عند المدخل، وكأنها تجمدت رعباً مقابل الجدار. أضاءت المكان كله شموع كبيرة من شمع العسل، وفي إحدى الزوايا ظهرت أكثر من عشر خلايا نحل يتدفق من بينها جدول ماء حيث تنساب المياه من صدع صخري إلى آخر. كان النحل يطنّ ويئز ويطير من ثقب في سقف المغارة نحو الهواء الطلق. لم ترَ ليلى أي أثر للوحش. أخذت تبحث عن مخابئ سرية - إلى أن التقت فجأة بالمخلوق المرعب. ليحمنا الرب القدير من منظره! كان يغط في نوم عميق في حوض حجري كبير.

بسرعة اختبأت ليلى خلف كومة من الأحجار، لكنها لم تضطر للانتظار طويلاً، فقد أفاق الوحش من نومه بعد غياب الشمس بساعة واحدة. كان منظره مرعباً إلى درجة أفضّل عدم وصفه لكم، وإلا سأفسد عليكم سهرتكم. لعق الوحش بعض العسل وأخذ يبكي ويندب قدره المخيف.

شعرت ليلى بقدميها ترتعشان من شدة خوفها، أغمضت عينيها للحظة وأخذت تستمد شجاعة من قصة لبوة جريحة كانت تحفظها جيداً في ذاكرتها. صدقوني، شجاعة هذه الأم اللبوة تبث الرعب في قلوب أعتى الشجعان.

فتحت ليلى عينيها ببطء وبالرغم من أن جدران الكهف كانت تهتز بشكل مخيف مع كل صرخة من صرخات الوحش، إلا أنها استجمعت قواها بشجاعة ولم تعد قدماها ترتعشان. وقفت وأخذت تتقدم بخطى

ثابتة نحو الوحش الذي نظر إليها مندهشاً ثم دفن وجهه بين يديه وقال: «ارحلي من هنا وإلا سأفترسك، ارحلي!».

قالت ليلى وهي تخطو خطوة أخرى باتجاهه: «السلام عليكم، سأكون سعيدة أن أسمع قصتك وليس أوامرك، فأنا لم آتِ إليك كي أهرب منك».

قال الوحش متوسلاً إليها: «ارحلي، فأنا ملعون وممسوس وكل من يمسني تصيبه اللعنة ويتحول إلى وحش».

أجابته ليلى: «هذا لم يحدث بعد، وإلا لعرفت قصة عن هكذا لعنة». ثم مست بمنتهى البساطة مخلب الوحش المغطى بالحراشف الخضر وتابعت متوسلة: «هيا، أخبرني قصتك».

«وكيف أتمكن من هذا! كل كلمة عن حظي العاثر تثقل جبالاً على صدري وكل مقطع منها يمزقني كالسكين وهي تخنقني كلما حاولت البوح بها»، أنّ الوحش وطفق يبكي.

«إذناً سأروي أنا لك قصة، وإن لم تساعدك فسوف تخفف على الأقل من حزنك» ثم أخبرت ليلى الوحش قصة البنات السبع.

القصة طويلة، طويلة جداً مستمعيّ الأفاضل». أخبرت فاطمة السادة العجزة الذين كانوا يترقبون كل كلمة من كلماتها: «لا يوجد متسع من الوقت لأرويها لكم الليلة لكني أعدكم بذلك في وقت آخر. على أية حال ما أن قامت ليلى بوصف التجارب والأعباء الجسام المفروضة على الأخت الكبرى قبل أن تجد السعادة أخيراً حتى هدأ الوحش. وبدلاً من البكاء أخذ يصغي بسكون، وقبيل طلوع الفجر بقليل كان قد ألقى برأسه في حضن ليلى مأخوذاً بكلماتها مثل الطفل الصغير. بدا الوحش ساكناً إلى درجة ظنت معها ليلى أنه نام، توقفت لبرهة لتلتقط أنفاسها لكن

الوحش همس بفضول شديد: «وبعد، ماذا فعلت كي تهرب من سجنها؟». ابتسمت ليلى تعبة وتابعت حديثها. أتى الظهر ومن بعده المساء وليلى لا تزال تسرد قصتها وكلما توقفت لتلتقط أنفاسها توسل لها الوحش ثانية أن تواصل حديثها.

ظل الوضع على حاله إلى أصبحت شمس صباح اليوم التالي في كبد السماء وسقط الوحش غافياً. أسندت ليلى رأسه على حجر ومشت نحو البئر. غسّلت وجهها بالمياه العذبة وتسللت خارجة من الكهف من دون أن يلاحظها. في الخارج نزعت ثوبها وأخذت تملأه بثمار الرمّان والتين والعنب والذرة من الحقول المجاورة ثم أسرعت عائدة إلى الكهف. أكلت قدر استطاعتها ونامت بالقدر الذي يسمح لها بالمحافظة على قوتها ثم انتظرت إلى أن أفاق الوحش وبدأت تقصّ عليه أحزان ومتاعب الأخت الثانية. قدم الليل وبزغ نهار جديد والوحش يصغي إلى القصة مثل طفل حتى يسقط نائماً. سحرت ليلى الوحش بقصصها المثيرة لسبع ليال كاملة، ولم يعد يذرف دمعة واحدة.

في الليلة السابعة، روت ليلى للوحش ما لحق بالابنة السابعة والصغرى من ظلم أبيها الملك ووصلت إلى المقطع حيث يعلن القاضي القاسي القلب الحكم الملكي، انه سيقطع رأس الابنة عند غياب شمس اليوم التالي إن لم يتواجد من يحل مكانها ويضحي بنفسه. في هذه اللحظة بدا الوحش مأخوذاً بالموقف.

قالت ليلى بتأثر شديد: «لكن لم يكن هناك من يريد أن يضحي بحياته فداءً عن الابنة الصغرى».

صاح الوحش فجأة: «أنا أضحي بحياتي من أجلها! إنها بريئة، سأقدم لها حياتي بكل سرور كي تبقى حيّة!».

ما إن تفوه الوحش بهذه الكلمات حتى انشق جلده البشع مصدراً طقطقة عالية وخرج شاب وسيم من هذا المعطف الوحشي البشع. كان جميلاً كقطرات الندى الغافية على بتلات وردة. كان عرضه النبيل بتقديم نفسه فداءً للأميرة أقوى من السحر الشرير الذي مسخه. قال وهو يمعن النظر في عينيّ ليلى: «أنا الأمير يزيد وقد أنقذتني قصصك من عذابي، يسعدني أن ألبي كل ما يرغب به قلبكِ».

فجأة سمعت ليلى والأمير أصوات وضحكات مئات من الأطفال. كان الأولاد والبنات الذي استحالوا أصناماً قد تحرروا من سحرهم أيضاً مع الأمير وأخذوا يضحكون عليه لأنه كان عارياً تماماً. تحرر أيضاً الأطفال الذين تجمدوا على مدخل الكهف فقد سمعوا قهقهة الضحكات القادمة من عمق الكهف وركضوا باتجاهها للاستطلاع. بعد فترة توجه جمهورهم نحو القرية وأخبروا أهالي القرية أن الوحش انقلب إلى شاب وسيم عارٍ وخجول. وطمأنوا الأهالي أن ليلى بخير وهي تأخذ حماماً في مِياه النهر المنعشة فيما يقوم الشاب بشيٍّ بعض أكواز الذرة لها على نار صغيرة. رقص أهالي المفقودين من الفرح وغمرت السعادة أرجاء القرية كلها.

قال الشاب لليلى: «من كل الأصدقاء الذين تبعوني ظلّت هذه النحلات مخلصة لي، وحدها ترافقني. لقد أمدتني بالضوء والعسل فيما تجمد الآخرون وتحولوا إلى أصنام من الخوف لمرآي - باستثنائك أنتِ - لكن دعيني أخبرك بقصتي من بدايتها، إنها قصة لا تصدق.

حكم والدي، يزيد الأول، بلاد اليمن السعيد لأكثر من عشرين سنة وفي يوم مولدي رأى حلماً. . . «وهكذا أخبر الأمير يزيد، ليلى بقصته الحقيقية التي لا تصدق. ظل يرويها لثلاثة أيام، على أية حال لا يوجد

هذه الليلة متسع من الوقت لإخباركم بها، لكن إن عشت كفاية فسيسعدني أن أرويها لكم في وقت آخر. المهم وباختصار، أخبر الشاب ليلى قصته وحين أنهاها غادرا المغارة، حيث كان الناس ينتظرون لأيام وبفارغ الصبر عند المدخل، سمعوا همسات وضحكات آتية من داخل الكهف، لكن لم يجرؤ أحد منهم على الدخول.

خاطبَ يزيد الحشد قائلاً: «السلام عليكم، يا أهل وأصدقاء وجيرة، هذه الشابة الحكواتية التي حررتني من اللعنة لتخرج الكلمات مباشرة من أعماق قلبي، وكأنها فراشات تاقت لنور العالم منذ زمن طويل» هلل الفلاحون مبتهجين.

تابع يزيد: «ها إني أعلن لكم اليوم كأمير صنعاء وابن الملك يزيد الأول، بأنني أنوي اتخاذ ليلى زوجة لي!».

تمتم الجدان بصوت ملؤه الخشية: «رغبتك أوامر يا سموّ الأمير».

هلل الفلاحون للملك ووريثه، وبكى الجدّان لشدة فرحهما لكن ليلى رفعت يدها الصغيرة قائلة: «لا، يا سموّ الأمير، أنت إنسان رائع وطيب القلب لكن أمنيتي في الحياة أن أجوب العالم، وقصرك، يا سيدي، ملتصق بالأرض وسيقيدني بألم كما قيدتك وآلمتك حراشفك كل هذه السنين. وداعاً!».

«لكن...»، بدأ الأمير يعبر عن استيائه.

«ليس هناك لا لكن ولا لعل، يا أميري. لقد وعدت أن تمنحني ما يرغب به قلبي ـ أم أنك تقول كلمتك بسرعة وتحنث بها بسرعة أيضاً؟» أجابت ليلى ومشت من دون أن تنتظر جواب الأمير بخطوات بطيئة مبتعدة عن جمهرة أهل القرية والأمير. نظر الناس نحوها مشدوهين حيث ثبت للكثير منهم أن ليلى مجنونة بالفعل.

على أية حال، عاد الأمير إلى قلعته حيث زجّ الوزير الشرير الذي كان وراء مسخه لوحش، في السجن، وتعبيراً عن امتنانه، أرسل سبعة جمال محمّلة بالحرير والفضة والذهب إلى جدّي ليلى.

أما ليلى فقد أخذت تجوب العالم. من جبال اليمن السعيدة سافرت عبر الصحراء باتجاه بغداد. عاشت لثلاث سنين في مدينة ألف ليلة وليلة إلى أن التقت بفارس أحلامها. كان الرجل في زيارة لبغداد لأنه كان سائق قطار على خط الحجاز الحديد الذي يصل بين الأردن ومكة والمدينة المنورة. كان هذا الرجل وقطاره هبة السماء لليلى. كانت تسافر مع حبيبها ذهاباً وإياباً وكلما رغبت بالتوقف كانت تنزل من القطار لتروي قصصاً ولتسمع غيرها في المدن المجاورة والقرى ومضارب البدو إلى أن يعود قطار محبوبها. استمرت سعادتها التي قاربت الخيال لسنوات.

حملت ليلى لكنها كانت كالغزالة، التي تواصل وثبها حتى آخر لحظات حملها. كان حبيبها سعيداً بحملها وأكثر سعادة بسبب ترقيته فقد عُين مديراً لإحدى المحطات. أبلغها فرحاً بأنه سيستقر وأنه ليس مضطراً للسفر بعد الآن. لكن ليلى انفجرت باكية وهربت في تلك الليلة إلى دمشق حيث أنجبت ابنة لهذا العالم. منحت ابنتها اسم فاطمة وفيما فشل كل من الأمير والمملكة وحبيبها في إبقاء هذه الحكواتية الرائعة في مكان واحد، ألزم حب ليلى لابنتها فاطمة البقاء في دمشق لثمانية عشر عاماً، حيث كانت تكسب عيشها كقابلة طوال تلك السنين. وفي يوم حزين جاءت إلى ابنتها. . .» توقفت فاطمة، مسحت دمعتين من عينيها ونظفت أنفها بمنديلها الكبير، «قالت لها، بأنه لم يعد في وسعها البقاء أكثر، وأنها كانت طوال هذه السنوات تحلم بسرد الحكايات في المدن والقرى البعيدة. صُدمت ابنتها، لأنها، وأرجو عفوكم لهذه الكلمة،

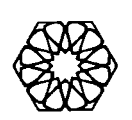
كانت غبية، فهي لم تر سوى الأم في شخصية ليلى وليس راوية ساحرة ومسحورة بالقصص. ألحت ابنتها قائلة: «لقد كَبرتِ يا أمي، ابقي هنا وسأعتني بك أنا وعلي».

«كبرت؟» صاحت ليلى ثم ضحكت، «إن الحكواتية الجيدين مثل النبيذ الجيد ـ كلما عتق طاب طعمه!» ثم رحلت تاركة ابنتها ومصطحبة معها ألف قصة وقصة.

«لم أسمع في حياتي كلها قصة كهذه!» صاح سليم وقد خرج صوته الجهوري من أعماق روحه، ثم نهض وقبل فاطمة للمرة الثانية على جبهتها صائحاً: «سلم الله فمك!».

في الخارج، وفوق أسطح المدينة القديمة، كانت سماء دمشق ترعد. لكن السكون خيم للحظة طويلة ملؤها الدهشة داخل الغرفة الصغيرة، إلى أن كسر الرجال حاجز الصمت بأصوات فرحهم المدوّية. أخذوا بالغناء عالياً وبشكل رديء يرق معها قلب كل غراب. استيقظ الحسون مرعوباً من نومه وأخذ يقفز داخل قفصه وينقنق بصوت ولحن غريبين.

كانت الضجة في الغرفة عالية جداً إلى درجة أنها أيقظت جيران الدار وجيران الدور المجاورة، ارتدوا ثيابهم على عجل وهرعوا هلعين نحو غرفة سليم، العربجي العجوز.



لَمَ رُميت أرضاً
لأجل سليم
وحلّق طائرالسنونو
في السماء من جديد؟

مرت ثلاثون سنة، لكنّي ما زلت مقتنعاً إلى يومنا هذا بأنه لم يعلم أحد من أبناء حارتنا آنذاك إن كان العربجي العجوز فقد صوته فعلاً أو أنه استغفل ببساطة أهل الحارة كلهم.

كان سليم صديقي الحميم وقد أخبرني بكل شيء مرّ به، حتى الأفكار التي جالت في مخيلته خلال الشهور الثلاثة، ولهذا علمت بقصة الصدى. كنت فخوراً بأنني الوحيد الذي باح له بسر اكتشافه الفريد، عن مقدرة الإنسان تذوق الأصوات بأذنيه، لكني كلما سألته إن كان قد فقد صوته حقاً أو أن الأمر ليس سوى دعابة خبيثة، كان جوابه ابتسامة ماكرة لا غير.

أذكر يوماً من أيام آذار ١٩٦٣، حيث أغلقت المدرسة أبوابها بسبب الانقلاب الذي جرى في الثامن من آذار، وأخذنا نجوب الشوارع لاهين متسكعين. كان ربيع تلك السنة مستعجلاً، لاحقنا دفئه أينما ذهبنا وطردنا من بيوتنا إلى الشارع، لكن موت جارتنا الشابة المفاجئ في اليوم السابق

لم يسمح لنا، من باب اللياقة والاحترام تجاه عائلتها، أن نركض في الشوارع أو نلعب بالكرة أو نستمتع بموسيقى أو أن نصدر أي ضجيج، جلسنا في منتصف الحي نتبادل الأحاديث والشائعات بصوت منخفض، إلا أن الحديث سرعان ما تحول ناحية سليم. تجرأ أحد صبية الحارة بالادعاء أنه يعرف حقيقة خداع العربجي العجوز لأصدقائه السبعة ولكل جيرته. والأكثر من هذا ادعى هذا الثرثار أن سليماً أسرّ الأمر له بدافع الصداقة.

كنت أغلي غضباً وأنا أدرك اليوم بأنني صدقت مباهاته بعض الشيء. شعرت بخيانة سليم لأنه لم يبح بسره لي. فجأة صرخ هذا المدّعي لصداقة سليم عالياً كي يسمعه الجميع: «وسأخبركم أيضاً بشيء آخر: ليس سليم سوى مخادع خبيث عديم الأخلاق».

كان الصبي ضخماً بحجم خزانة ثياب كبيرة فيما كنت أنا نحيل الجسم جداً لكن هذا لم يردعني، صحت به عالياً: «اسمع يا بغل، أنا لن أضربك هنا في الحي لأني أحترم روح جارتنا المرحومة، لكن إن كنت شجاعاً بقدر فمك الكبير فلم لا تتفضل وتواجهني في الساحة الواقعة خلف باب شرقي!».

قبل الفتى الضخم عرضي بكل لطف وفرح الصبية الآخرون بهذه التسلية الجديدة وهكذا غادرنا الحارة بهدوء باتجاه الباب الشرقي.

ما أن اجتزنا البوابة ووصلنا إلى الساحة الكبيرة المغطاة بالغبار حتى فتر غضبي بعض الشيء، والسبب أن العقل، أبو الخوف، قد تغلّب عليه محذراً إياي. هناك، وقف الصبي في مواجهتي، يداه متصالبتان ومفرشخاً رجليه ـ جبل من اللحم مع ابتسامة هازئة.

«لربما زلّ لسانك بهذه الجملة، وهذا يحدث معنا جميعاً بعض الأحيان» قلت للصبي، في محاولة لحفظ ماء وجهي - ولتجنب مصارعة كنت واثقاً من خسارتها.

جأر عالياً: «زلة لسان، ليس سليم بالمخادع الخبيث فقط بل هو أيضاً ابن ستين قحبة».

لكمته بكل ما أملك من قوة. ترنح الفتى الضخم قليلاً إلى الوراء. كان مصدوماً، نظر إليّ لثانية بدهشة ثم أقبل نحوي مثل المعدلة ورماني أرضاً من دون أي جهد. مع هذا تدبرت أمري لأقف ثانية وعدت أهاجمه من جديد مما اضطر الصبية إلى إبعادنا عن بعضنا البعض. كان أنفي ينزف لكني واصلت الصراخ على الفتى الضخم بكل ما استجمعته من حنق: «إياك أن تنسى لكماتي! سأضربك في كل مرة تشتم فيها سليماً». لا بد وأن منظري كان مضحكاً للغاية لأن الفتى الضخم كان يتشقلب على الأرض ضاحكاً، ثم حاول معانقتي.

عدت إلى البيت وأنا أدمدم وألعن سليماً في قلبي لأنه تسبب لي بتورم مزعج في أنفي وعينيّ.

في عصر ذاك اليوم همست جارتنا عفيفة في أذن العربجي بأحداث العراك، وكما أسلفت فقد عُرفت بلسانها اللاذع، وكثيراً ما تمازح الناس فيما بينهم انه حتى مذيعي الراديو يتلعثمون أثناء تلاوتهم الأخبار، ما أن تبدأ عفيفة بالثرثرة.

أسرع سليم نحوي ورغب في معرفة سبب النزال.

«السبب؟» صحت به «لأكثر من ثلاث سنوات وأنا أسألك إن كنت قد فقدت صوتك حقاً. هل أنا صديقك أم لا؟».

ضحك وقال: «أنت صديقيَ الحميم حتى وإن كنتَ طائشاً قليلاً فيما يتعلق الأمر بالنزال مع العمالقة».

«أريد أن أعرف الحقيقة، فأنا لم أنعم بنوم هادئ طوال ثلاثة أشهر. ليس لديك أدنى فكرة عن قلقي عليك في تلك الفترة، كنت أصلي كل يوم كي تعاود الكلام ثانية. هيا أخبرني».

أجابني: «أنت مخطئ الآن، لقد شعرت بقلقك عليّ، هنا في أعماق قلبي» ثم ضحك شاعراً بالرضا، مسّد على شعري وقال: «لكن ليس عليك أن تقلق بعد الآن فأنا بصحة ممتازة!».

فجأة صاح أحد الأولاد من أرض الديار: «عمي سليم! عمي سليم! أين أنت؟ لقد وقع سنونو من عشه! عمي سليم!».

نظر العربجي العجوز من نافذة غرفتي في الطابق العلوي نحو أرض الديار. تجمع حشد من الصبية حول ولد غريب في الثانية عشرة من عمره، ونظر الكل إلى سليم بأعين متوسلة.

«هذا الصبي من حارة حنانيا» صاح عبدو، ابن عفيفة ـ المشكلجي المشهور. «نحن في حرب معهم، لكننا سمحنا له بالقدوم إليك لأنه وجد سنونواً واقعاً على الأرض» أضاف عبدو، بعد أن صفع الولد المرتبك (طيارة) على رقبته للمزاح ليس إلا.

قال الولد بصوت هادئ وحزين: «هذا صحيح، لقد وجدته صباحاً بالقرب من حوض الورد في أرض الديار، حيث وقع من عشه، إنه لا يقدر على الطيران ولا يرغب بالأكل أيضاً. اصطدت له ثلاث ذبابات لكنه لم يلمسها».

«أحضر السنونو إلى هنا يا ابني، ولتبقوا جميعكم في أرض الديار وتتفرجوا من هناك» خاطب سليم باقي الأولاد. وبالرغم من طلبه حاول عبدو التسلل خلسة من دون انتباه أحد.

«قلت جميعكم!» صاح العربجي العجوز، فتسمر المشكلجي أسفل الدرج مراقباً الصبي بغيرة وهو يصعد إلى الأعلى حاملاً السنونو.

غطى سليم الطير بيديه الضخمتين ومشى به نحو شرفة منزلنا الواسعة تحت السماء حيث تنشر أمي والجارات الغسيل، أمسكت بالولد الخجول من ذراعه وتبعنا العربجي العجوز.

«أيتها السماء! إني أعيد هذا السنونو ثانية إليكِ!» صاح العربجي عالياً ودار ببطء حول نفسه وكأنه درويش يرقص. وقف الأولاد في أرض الديار على رؤوس أصابعهم ومدّوا بأعناقهم قدر استطاعتها كي يشهدوا المراسم كاملة.

«أيتها السماء! إني أعيد ثانية هذا السنونو إليكِ!» صاح سليم مرة أخرى بصوت أعلى ودار مرة أخرى حول نفسه. ثم أغمض عينيه، همس للسنونو بكلمات مبهمة، قبّله، وتوقف للحظة وصاح: «أيتها السماء! ها إني أعيد إليك ثانية هذا السنونو الرائع ليزين صدرك بأجنحته!» قذف سليم السنونو نحو السماء، واندفع الطائر إلى عنان السماء صارخاً بفرح ثم عاد ليقوم بدورة حول أرض دارنا منخفضاً حتى كاد يلامس رأس سليم بأجنحته وزقزق كأنه يودعنا ثمّ حلق مبتعداً.

نظر سليم نحو الصبي، ابن حارة حنانيا، وقال له: «أنت فتى

طيب، لا تخف لن يؤذيك أحد» ثم استدار ناحية عبدو الذي كان يقطع أرض الديار جيئة وذهاباً مثل نمر حبيس قفص.

«كل من يلمس هذا الفتى يصبح عدوي. عبدو، سوف تصحبه إلى حيّه، ولن أثق بك ثانية إن لمس أحدكم شعرة واحدة من رأسه. هيا فلتقسم على هذا!».

«سوف أحميه مثل بؤبؤ عيني، أقسم بربي على هذا!» كان عبدو يبالغ كعادته لكن العربجي لم يبال للأمر.

قال سليم للولد: «هيا، فلتسرع يا ابني فقد يشغل غيابك قلب أمك» فيما كان عبدو يأتمر على باقي الصبية متباهياً لأن الولد أصبح الآن تحت حمايته الشخصية.

تأملَ العربجي عينيّ وأنفي المتورمين وضحك قائلاً: «يجب ألا تتعارك مع الصبية الأكبر منك، وإلا لن تصبح أبداً راوي قصص، يجب أن تغلبهم بلسانك. هل تعرف قصة المرأة الضعيفة التي وقعت بين براثن العملاق وخدعته بقصصها؟».

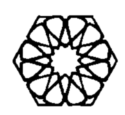
«تعني شهرزاد؟».

«بالطبع لا! يا صديقي، إنها قصة لا يعرفها أحد غيري، ولكن بما أنك صديقي المفضل فسوف أشاركك بها. التقيت بالمرأة بعد وقت قصير من هربها، حيث أخبرتني حكايتها الغريبة جداً والمرعبة جداً. بررر... يقشعر بدني كلما فكرت بها، سوف لن تصدقها، لكن هل تريد سماعها على أية حال؟».

«أجل، أجل، أريد هذا» أجبته وقد امتلأت فضولاً.

«فلتعدّ إذناً بعض الشاي وتعال إلى غرفتي. سأكون في انتظارك».

حين عدت حاملاً إبريق الشاي، كان سليم قد أعدّ نارجيلته. جلست قبالته واستمعت لمدة ساعتين للفصل الأول من الفصول الاثني عشر من هذه القصة المثيرة للغاية، قصة لا تصدق، والتي أخبرني إياها في الأيام اللاحقة. لكن الحكاية طويلة وطويلة جداً ولا يناسبها هذا الموضع في نهاية كتاب بل يلزمها كتاب كامل، لذا سأحكيها لكم في وقت آخر.



الفهرس

هذا الكتاب

ثلاثة وعشرون ناشراً ألمانياً رفضوا طبع هذه الرواية. لم يخطر ببال أحد منهم أن قصة عن دمشق، وعن الحديث الشفهي، تهم أي قارئ ألماني، فالأدب العربي كان آنذاك قارة مجهولة. وكان رفيق شامي كاتباً مغموراً نشر سبعة كتب لم تلق نجاحاً يذكر. وبعد عناءٍ، أخذ مدير جديد لإحدى دور النشر النص، وأوكل أحد خبرائه بتنقيح الكتاب، فقصقص أجنحة القصة الدمشقية ليحولها إلى رواية أوروبية صغيرة لطيفة لا أثر فيها للشفاهية.

كانت تلك اللحظة حاسمة في مسيرة رفيق شامي الأدبية. بعد تفكير دام ثلاثة أيام أبلغ الناشر أنه يرفض هذا التنقيح وأنه لا يريد تغيير سطر من أسطر الكتاب. وكانت المفاجأة. أجابه الناشر أنه عندما قرأ اقتراحات المحقق قال له: لن يقبل بهكذا مسخ لرواية أي كاتب يحترم نفسه. لذلك قرر أن يوكل رجلاً آخر بتدقيق لغة النص فقط والحفاظ عليها كما رواها رفيق شامي. وهكذا كان.

صدر الكتاب في تشرين الأول ١٩٨٩ وبيع منه خلال السنة الأولى ٢٠٠ ألف نسخة وبيعت حقوق الترجمة لـ ٢٢ لغة. وبعد ثلاث سنوات حصد الكتاب ست جوائز أدبية وتجاوزت طبعاته حتى اليوم المليوني نسخة.

